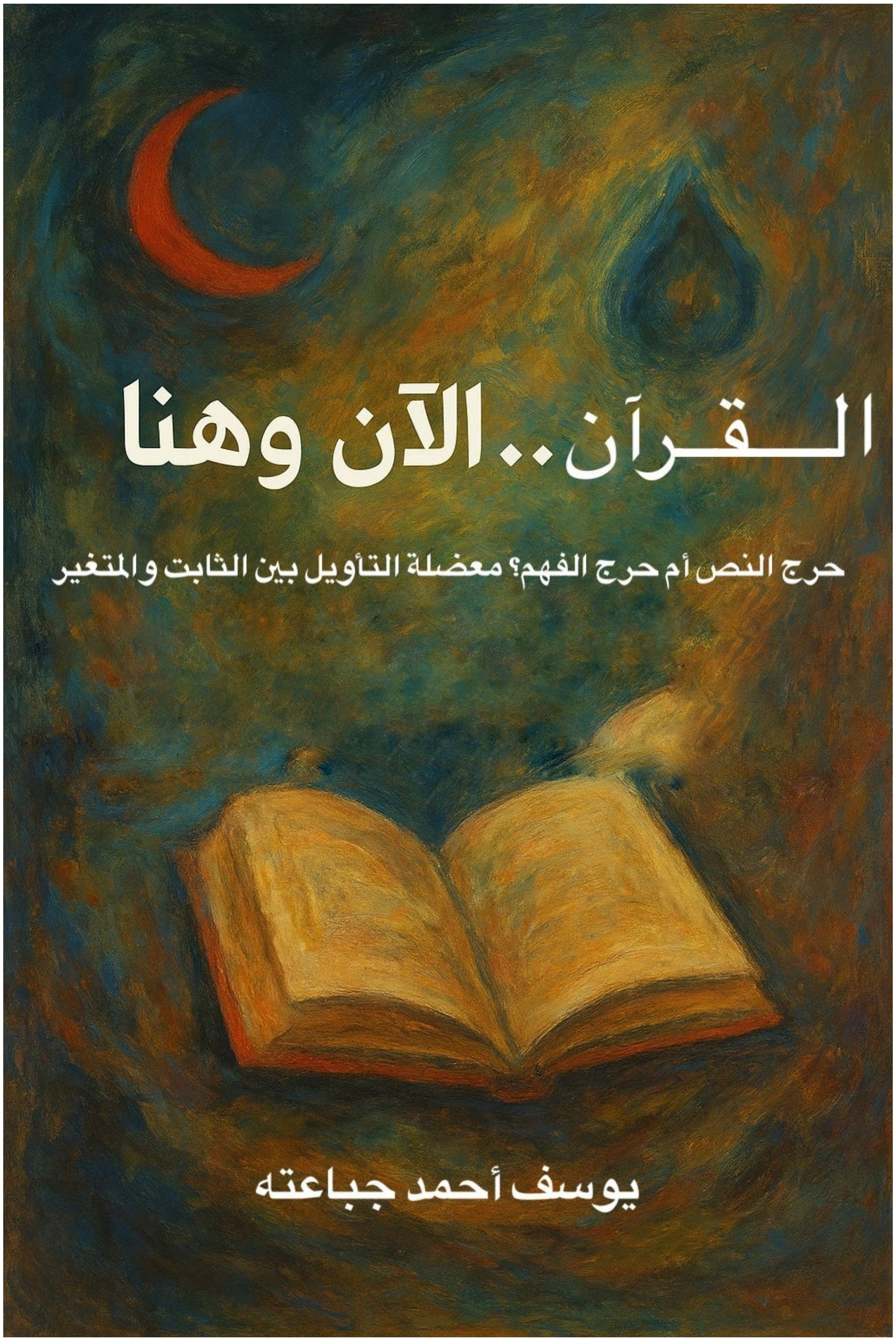

القرآن.. الآن وهنا
حرج النص أم حرج الفهم؟ معضلة التأويل بين الثابت و المتغير
يوسف أحمد جباعته

إهداء

إلى السائرين في مجاهل المعنى،
إلى من أيقنوا أن قيد الحرف لا يُفك إلا بالتأمل،
وأن النص لا يكتمل إلا حين يتجدد في وعي قارئه،
إلى العقول التي ترى في السؤال عبورًا نحو المطلق،
وفي الحيرة ضربًا من العبادة،
إلى الباحثين عن جوهر يتخطى ظاهر التشريع،

إليكم تُودَع هذه الكلمات،
فالنص لا يستمد قيمته إلا من وعي متلقيه،
ولا ينهض إلا بقدر ما ينهض به من يبحث فيه عن الحقيقة.

مقدمة:

أين يقف القرآن اليوم من تطورات الحداثة في القرن الحـادي والعشرين؟ وهل ما زال قادراً على التـبرير والتشـريع والتشـريح والتحليل والمَنطقـة والمواكبـة؟ هـل مـا زال صـالحاً لكـل زمـان ومكان، أم تـراه بـدأ رحلـة التقهقـر والـتراجع أمـام ريـاح التغيـير العاتية التي تجتاح العالم بلا هوادة؟

إنّ الزمن كفيل بأن يُخضع كل فكـرة وكـل منظومـةٍ وكـل نصٍّ لاختبـارات عسـيرة، يُمحّص فيهـا مـدى صلابتها ومرونتهـا في آنٍ معاً. والقرآن، بوصفه نصـاً مقدسـاً، لا ينفـك يواجـه هـذا التحـدي المســتمر، إذ لا يمكن أن ينــأى بنفســه عن ســياقات التطــور والتحوّل التي تعصف بالمجتمعـات البشـرية. والسـؤال الجـوهري الذي يطرح نفسـه هنـا هـو: هـل نحن أمـام نصّ خالـد في معنـاه ومقاصده، وأزلي في أحكامه؟ أم أن هذه الأحكام قابلة لأكثر من فهم وبالتالي أكثر من تطبيق؟ أم أن هناك نصوصاً قرآنيـة تحمـل في طياتها تاريخيةً آنيةً تجعلها غير قابلـة للتطـبيق بـأي فهم كـان في بعض الأزمنة والظروف؟

على سبيل المثال النص القرآني يأمر بجلد الـزاني مئـة جلـدة، وهـذا النص – كنص – محكمٌ واضـحٌ لا شـبهة فيـه. فهـل لـو زنى مسـلم في أمسـتردام ووافـق على تطـبيق الشـريعة عليـه على مرأى من الناس، هل نجلده وسط أمسـتردام؟ أم علينـا أن نلـوذ بزقـــاق معتم كي نمـــارس شـــريعتنا دون أن ينعتنـــا الآخـــرون بالهمجية؟ ولماذا نجد حرجاً أحياناً في تطبيق شريعتنا النصـية في القـرآن في هـذا الـزمن طالمـا أنهـا من اللـه تعـالى، وطالمـا أن القرآن الكريم صالحٌ لكل زمان ومكان؟

ثم، ماذا عن علاقة الرجل بزوجته في ضـوء الأحكـام القرآنيـة؟ هل لو عصتك زوجتك "المؤمنـة" في أوروبـا فسـتعظها وتهجرهـا في المضجع ثم بعد ذلك تضربها؟ هل أنت مقتنع بهذا الحل ونحن على مـا نحن عليـه من تطـور ووعي ونضـج؟ وكيـف نتعامـل مـع نصوص تُثير في داخلنا تساؤلات أخلاقية وإنسانية حين ننظر إليهـا

بعيــون الحاضــر، في حين أنهــا في زمانهــا لم تكن تثــير أدنى استغراب؟

أينما وجدت حرجاً في تطبيق قانون ما، فـاعلم أن هنـاك لُبسـاً معيناً، وهذا اللُبس إمّـا أن يكـون في نص القـانون نفسـه، أو في فهمنا لـه، أو في مقاصـده وتأريخيتـه. فهـل يمكن أن يكـون هـذا الحرج الذي نشعر به في تطبيق بعض الأحكام القرآنية اليوم نابعاً من فهمنـا التقليـدي للنص، وليس من النص نفسـه؟ وهـل تأخـذ بعض الأحكـام طابعــاً زمنيــاً مؤقتــاً؟ أم أن علينــا أن نبحث عن تأويلات أكثر حداثة للقرآن تجعلهـا منسـجمة مـع روح العصر كمـا ذهب معظم التنويريين المعاصرين؟

إن القـرآن نصٌّ يزخـر بالتوجيهـات الأخلاقيـة، لكنـه في الـوقت ذاته نصٌّ نزل في سياقٍ تاريخي واجتماعي محدّد. فهل يُفهم هــذا النصّ من خلال تفسـيره بمعـزل عن ذلـك السـياق، أم لا بـدّ من إعادة قراءته بما ينسجم مع القيم الإنسـانية الـتي تتطـور بتطـور الحضارات؟ هل العقوبـات مثـل الجلـد وضـرب الزوجـة والظهـار وملك اليمين وقوانين التداين والاستشهاد والتلاعن والمباهلـة هي علاجات وقتية قامت لزمانها، أم أنها قواعد مطلقـة صـالحة لكـل العصـور؟ وهـل هنـاك مجـال للنظـر إليهـا من منظـور المقاصـد الشــرعية الــتي تهـدف إلى تحقيــق العدالــة والرحمــة، بــدلاً من التوقف عند ظاهر النص؟

إنّ هذه التساؤلات ليست ترفـاً فكريـاً ولا سـعياً إلى التشـكيك في النص القـرآني، وإنمـا هي محاولـة صـادقة لفهم أعمـق وأدق لعلاقــة القــرآن الكــريم بــالواقع المتغيّــر. فحين نــرى أن بعض الأحكام التي كانت مألوفة في عصر النبـوة أصـبحت اليـوم محـل اسـتغراب أو حـتى اسـتهجان، لا بـدّ أن نتسـاءل: هـل العيب في فهمنا التقليدي للدين؟ أم في تغيّر طبيعة الحياة البشــرية؟ أم أن هناك بُعداً تأويلياً لم نستطع الوصول إليه بعد؟

هذه هي المنطقة المعتمة والجدلية التي اختار هـذا الكتـاب أن يخوض فيها. فنحن لا نهدف إلى مجرد إضـافة كتـاب إلى المكتبـة العربية، بقدر ما نهـدف إلى تسـليط الضـوء على زوايـا مسـكوت

عنها، وأسئلة قد نطرحها بخجـل وخـوف، لكنهـا تـتردّد في أذهـان الكثـيرين. إذ لا يمكن للخطـاب الـديني أن يظـل حـبيس قـوالب تفسيرية جامدة، بينما العالم من حوله يمـوج بتحـولات كـبرى في الفكر والفلسفة والقانون وحقوق الإنسان.

قد يقول قائل إن الإيمـان لا يحتـاج إلى مسـاءلة، وإن المـؤمن الحقيقي لا ينبغي أن يشـكّك أو يُراجـع، لكننـا نـرى أن الإيمـان العميق لا يتعارض مع البحث والتأمـل، بـل على العكس، فالعقـل الذي منحنا إياه الله هو أداة التفكر والتدبر الـتي نُحاسَـب عليهـا. وإنّ أعظم العقول الـتي صـنعت الحضـارة الإسـلامية كـانت تلـك الـتي لم تتوقـف عن التسـاؤل والبحث عن الحكمـة في كـل نصٍّ وكل حكمٍ وكل آية. فهل نحن اليوم مستعدّون لأن نسلك الطريق ذاته، وأن نعيد النظر في مفاهيمنا بما يتناسب مع وعي العصر؟

إن هذا الكتـاب ليس دعـوة إلى التمـرّد على النصّ، بـل دعـوة إلى قراءته قـراءة أعمـق وأشـمل، قـراءة لا تقتصـر على ظـاهر الكلمات، وإنمـا تنفـذ إلى جـوهر المقاصـد الإلهيـة. وهـو محاولـة متواضعة لفهم العلاقة الجدلية بين النص والتاريخ، وبين الشـريعة والواقع، وبين الإيمان والتفكـير النقـدي. فالإسـلام الـذي خـاطب الإنسان بصفته كائناً عاقلاً مُدركاً مسؤولاً، لا يمكن أن يكـون دينـاً يُغلق باب السؤال، بل على العكس، هو الـدين الـذي يـدعونا إلى التفكّر والتدبر، حتى نصل إلى يقين مبـنيٍّ على وعي ومعرفـة، لا على تكرار محفوظات وترسيخ مسلّمات غير قابلة للنقاش.

في هذا السـياق، يسـعى هـذا الكتـاب إلى تقـديم إجابـات – أو بـالأحرى إثـارة المزيـد من الأسـئلة – حـول قضـية محوريـة: هـل القرآن نصٌّ تاريخيٌّ مؤقت، أم أنه نصٌّ خالدٌ يُطبّـق بحرفيتـه عـبر الأزمان؟ هل ثمة مجال لإعادة النظر في بعض التشـريعات الـتي جاءت في سياقات محددة، أم أن هذا ضربٌ من ضروب المـروق عن الـدين؟ وكيـف يمكن لنـا أن نـوازن بين النصـوص القطعيـة الثابتة والواقع المتغير، بحيث نحافظ على روح الإسـلام وجـوهره دون أن نقع في مأزق التصادم مع معايير العصر؟

هذه الأسئلة وغيرها ستُطرح في هـذا الكتـاب بأسـلوب بسـيط وسهل ومختصـر، بعيـداً عن اللغـة الأكاديميـة المُقعّـرة، فالكتـاب موجهٌ للجميع، والهدف منه أن يصل إلى قلوب الجميع وعقـولهم، لا أن يكـون حكـراً على النخبـة من أهـل العلم. وهـو في نهايـة المطاف دعوة إلى التأمل والتدبر، بعيـداً عن التشـنّج الفكـري أو التعصـب الأعمى. فالإيمـان الـذي لا يُمهـل نفسـه لحظـة للتأمـل والتفكير، هو إيمان هشٌّ لا يصمد أمام متغيرات الزمن. والإسـلام الذي جاء ليكون دين العقل والرحمة، لا بدّ أن يتجدد فهمه ليظـل نوراً يستضيء به الناس في كل زمان ومكان.

الباب الأول:

عالمية الرسالة

1. عمر القرآن الكريم

هل للقرآن وجود حقيقي قبل سيدنا محمد وقبل بعثته؟

لطالمـا شـكل هـذا السـؤال محـوراً للاختلاف والاجتهـاد عـبر الأزمنة الإسلامية المختلفة، وقـد كـان هـذا الاختلاف حـول شـكل

القرآن وصوره السابقة للبعثة ولم يكن الخلاف حـول وجـوده من عدمه، إذ تكاد تتفق الطوائف والمذاهب الإسـلامية بمجملهـا على أن القرآن موجود وجوداً حقيقياً قبل البعثـة النبويـة. إذاً فـالخلاف ليس حول المبدأ وإنما حول الصورة والشكل.

والقول بالوجود السابق للقرآن يُعتبر ثابتاً من ثوابت الدين لدى هذه الطوائف، ومن قال إن القرآن محدث فإنه وقع في محظـور كبير وطعن في معلوم من الدين بالضرورة.

وتاريخياً فمن قالوا بقدم القرآن (بمعنى أنه أزلي) وعلى رأسهم أهل السنة والجماعة وخاصة الأشاعرة، أرادوا بذلك نفي صفة المخلوقية عنه، أي أنه ليس مخلوقاً، وأنه مُتّصفٌ بالقدم كسائر صفات الله سبحانه وتعالى. وينطلق هذا الرأي من العقيدة بأن الله تعالى متصف بالكلام منذ الأزل، وأن كلامه صفة ذاتية قائمة بذاته، لا تنفصل عنه ولا تتجزأ. وبذلك يكون القرآن، بصفته كلام الله، أزلياً غير حادث، أي لم يُخلق في زمن معين، بل هو موجود منذ الأزل، وقد استدلوا على هذا الرأي بآيات مثل قوله تعالى: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله" [التوبة: 6]، حيث وصف القرآن بأنه "كلام الله"، والكلام صفة من صفاته، وصفات الله أزلية.

وفي المقابل هناك الرأي القائل بحدوث القرآن إذ يرى المعتزلة وبعض الفرق الإسلامية الأخرى أن القرآن "حادث"، بمعنى أنه مخلوق وتشكل وظهر إلى الوجود في زمن معين، وذلك لكونه أُنزل على النبي محمد ﷺ في فترة محددة من التاريخ، واستشهدوا بآيات من القرآن تؤكد على حدوث الوحي وتدرج نزوله، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، وفي تفسيرهم لمفهوم كلام الله، أشاروا إلى أن الله يتكلم بما شاء، وقتما شاء، وأن القرآن تجلٍ لإرادة الله ومشيئته، "فأما دليل تعدد القدماء فإن المعتزلة يرون أن أخص وصف للإله الذي يجب أن يعبد هو كونه قديماً وليس بمحدث، وأن أي شيء

يشاركه في القدم، فإنه يعتبر إلهاً آخر، وهذا شرك بالله رب العالمين.

ومن هنا اعتقدوا أن إخلاص التوحيد لله عز وجل هو إفراد الله عز وجل بالقدم، ولا يوصف غيره بالقدم أبداً، فإذا وصف غيره بالقدم، فإنه يعتبر شركاً بالله سبحانه وتعالى"[1].
تحولت هذه القضية في عهد الخليفة العباسي المأمون إلى محنة سياسية ودينية تُعرف بـ"محنة خلق القرآن". في عام 827م، أعلن المأمون عقيدة خلق القرآن وأجبر علماء الأمة على تبني هذا القول، وتم استخدام السلطة السياسية لإجبار القضاة والعلماء على الامتثال لهذه العقيدة، وهو ما أدى إلى اضطهاد واسع النطاق لمن رفضوا هذا الاعتقاد. استمرت المحنة خلال حكم الخلفاء العباسيين اللاحقين، مثل المعتصم والواثق، حتى ألغيت في عهد المتوكل عام 851م.
كان الإمام أحمد بن حنبل من أبرز العلماء الذين رفضوا القول بخلق القرآن، لذا تعرض للسجن والاضطهاد بسبب موقفه الرافض، لكنه ظل ثابتًا على عقيدة أهل السنة والجماعة التي تؤكد أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأنه أزلي، وأصبح موقفه هذا رمزًا للصمود أمام الضغوط السياسية والدينية[2]، وكان صموداً آيديولوجياً منبعه العقيدة والخوف على الدين من لوثة السياسة، لذا وقف ابن حنبل وغيره من العلماء بصمود في وجه التيار السياسي المأموني. يقول محمد الكثيري في كتابه (السلفية بين أهل السنة والإمامية): [3]"لقد أوذي **كثير من العلماء في محنة القول بخلق القرآن، ولقي كثير منهم عنتا كثيرا. ويحدثنا الذهبي وغيره أن أبا نعيم الفضل بن دكني امتحن في هذه المحنة، وأنه وقف منها موقفا عجيبا. وأنه قال حين سألوه عن رأيه: والله إن عنقي لأهون**

[1] كتاب شرح الفتوى الحموية، الجزء 9، ص3
[2] محمد عبد الله دراز، *أصول الإيمان في الإسلام*، القاهرة: دار المعارف، 1960، ص. 143
[3] محمد الكثيري، السلفية بين أهل السنة والإمامية، ج 1، ص 138

من زري هذا، ثم قطع زره ورماه، وقال عنه أحمد: لقد قام في أمر الامتحان بما لم يقم به غيره".

أثارت قضية خلق القرآن انقسامات عميقة بين المدارس الفكرية الإسلامية. واعتبر المعتزلة أن العقل قادر على تحديد الخير والشر بدون الحاجة إلى النصوص الدينية، بينما رأى أهل السنة أن النصوص الدينية هي المصدر الأساسي للعقيدة.

وبرز هناك اتفاق بين الأشاعرة والمعتزلة على "حدوث" القرآن مع اختلاف في التفاصيل، يقول أبو الحسن الآمدي: "على أن لا تنازع [أي: بين الأشاعرة والمعتزلة] في أن ما جاء به الرسول من الحروف المنتظمة والأصوات المقطعة معجزة له وأنه يسمى قرآنًا وكلامًا، وأنّ ذلك ليس بقديم، وإنما النزاع في مدلول تلك العبارات هل هو صفة قديمة أزلية أم لا"[1]، أي أن الطرفان اتفقا على أن القرآن الذي نقرأه ونسمعه مخلوق من حيث الأصوات والحروف، لكنهما اختلفا في المعنى أو المضمون فالأشاعرة يرون أن المعنى (كلام الله النفسي) قديم وأزلي، لا يشبه كلام البشر، بينما رأى المعتزلة أن حتى المعنى مخلوق، لأنهم ينفون وجود صفات أزلية غير ذات الله.

وسياسياً استخدم المأمون هذه القضية لتعزيز سلطته الدينية والسياسية، محاولًا فرض رؤيته العقائدية على الأمة، بينما أدت المحنة من الناحية الاجتماعية إلى توترات اجتماعية بين العلماء والجماهير، حيث رفض الكثيرون التدخل السياسي في الأمور الدينية.

وينبغي التأكيد على أن قضية خلق القرآن لم تكن مجرد جدل عقائدي بل كانت اختبارًا لتوازن القوى بين العقل والنقل وبين السلطة السياسية والدينية في المجتمع الإسلامي.

وهناك من حاولوا عبر التاريخ التوسط بين القولين، حيث قالوا بأن القرآن قديم بمعنى أنه علم الله الأزلي، وحديث بمعنى أنه أُظهر وأُنزل في زمن معين ليكون هداية للبشر. فالكلام الذاتي

---

[1] غاية المرام في علم الكلام (ص: ١٠٧ - ١٠٨) المحقق: حسن محمود عبد اللطيف، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

لله قديم أزلي، أما الكلام الذي يسمعه الناس ويُتلى ويُكتب فهو حادث أوجده الله ليكون رسالة للبشرية.

ومن منظور فلسفي، تُعد مسألة قِدم القرآن وحدوثه جزءًا من إشكالية العلاقة بين الإلهي والمادي، والمطلق والنسبي. فهل يمكن أن يكون الوحي كلاماً أزلياً؟ أم أن الكلام بما يتضمنه من حروف وأصوات وتتابع زمني يقتضي أن يكون حادثًا؟ هذا السؤال ظل معلقاً على مر العصور، وطرحت حوله رؤى تتباين بتباين الخلفيات الكلامية والفلسفية.

وتظل مسألة "قِدم القرآن وحدوثه" إشكالية معقدة تحمل أبعاداً لاهوتية وفلسفية عميقة، إذ أفرزت هذه القضية تباينات فكرية أثرت في تشكل العقيدة الإسلامية ورسمت معالم الخلاف بين المدارس الكلامية الكبرى. كما أظهرت مدى التداخل بين الفكر الديني والفلسفي في العالم الإسلامي، ومقدار تأثير العقائد في السياسة والتاريخ الإسلامي.

وبالنظر إلى كل ما سبق فما أراه كحقيقة هو أن القرآن نفسه لم يخبرنا أنه سابق لمحمد ولقريش، وانظر مثلاً إلى الآيات التي تتحدث عن اللوح المحفوظ والتي قد يستدل بها بعضهم على قِدم القرآن وأزليته. ألا ترى أنها قابلة لأكثر من فهم وتأويل، فقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج]، لا يُشترط بالضرورة أنه كان موجوداً ومحفوظاً بصيغته الحالية منذ الأزل، وإنما –إن صح الفهم السائد للآية-فهو محفوظ من التبديل والتغيير، فلا توجد آية في كتاب الله تؤكد أن لهذا الكتاب وجوداً سابقاً للبعثة، وهذا يتركنا أمام خيار آخر ووحيد، وهو الخيار الذي ربما سيضعنا مباشرة أمام مدافع التكفير والزندقة، وهذا الخيار هو أن النص القرآني حادث، ومتفاعل مع زمانه ومنفعل بزمانه وهو - إن جاز لنا القول – "مُنتج ثقافي" واقعي لزمانه.

وقولنا إنه منتج ثقافي لا يعني بـأي حـال من الأحـوال أنـه ليس كلام اللـه تعـالى، فهـذه لا خلاف فيهـا، وإنمـا المقصـود أن النص القـرآني تفاعـل مـع الفـترتين المكيـة والمدنيـة بأحـداثهما فكـان الموجه والمرشد لهذه الأحداث، ومن الأدلة، على ذلك أن القرآن نزل منجماً – أي مفرقاً – ولم ينزل دفعة واحدة، فقد كـان يتـنزل موافقاً للأحداث موجهاً لها متفاعلاً معها.

خـذ مثلا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُـرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]، فهل المنطقي أن اللـه تعـالى قد رصد هذه الحادثة منذ الأزل؟ أم الأقرب إلى المنطق أنه نــزل يخاطب أهل مكـة ويرشـدهم فيمـا كـانوا يفعلونـه وأخطـاء كـانوا يرتكبونها؟ الصحيح – فيما أرى - أنه نزل تفاعلاً مـع تلـك الحادثـة والعشرات غيرها مرشداً لنبيه وقومه، فمـا الثـابت الـذي هـدمناه هنا في هذا؟

سيقول قائل إن كل ما جرى في البعثة النبوية واقع في علم الله تعالى المطلق، وأن الله قد رصد كل ذلك وثبته في كتابه قبل البعثة النبوية، وهذا الأمر سهل التقبل والفهم لكل من يرى أن ما سيكون من أحداث واقع في علم الله تعالى بتفصيله، وهذا صحيح، فالكون كله بنباتاته وصخوره وذراته يجري ضمن تدبير الله تعالى وعلمه المطلق، لكن هل تصرفات الإنسان المستقبلية تقع ضمن هذا النطاق؟ هناك نظرية أو رأي يقول إنّ الإنسان أوكله الله تعالى بأمانة كبيرة وعظيمة وهي أمانة التكليف، ولتحقيق التكليف وجب منح التخيير، ولمنح التخيير وجب إخراج الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً واعياً مكلفاً من البرمجة الكونية، لذا فإن ما سيقوم به الإنسان بعد دقائق لا يقع ضمن هذه البرمجة لأن فعل الإنسان المستقبلي لم يتشيّأ بعد (أي لم يصبح شيئاً) حتى يتعلق به علم، فالله تعالى يعلم كل شيء لكن قرار الإنسان المستقبلي فعل شيء من عدمه لم يدخل حيز الشيئية ولم يتولد بعد في ذهن صاحبه، فهو ليس بشيء، وقد ترك الله تعالى للإنسان حرية الاختيار، وحرية الاختيار تقتضي الانفتاح وحق الوصول إلى كافة الاحتمالات، لذا فقد زود الله تعالى الإنسان

بالعقل والإدراك ليحقق مقتضيات هذه الأمانة وهذا التكليف، وممارسة الفعل الحر.

والحقيقة إنّنا لا نجزم بصحة هـذه النظريـة ولكن نقـول بشـكل عـام إنـه سـواء وقـع مـا سـيفعله الإنسـان في علم اللـه تعـالى المسبق أم لا فهذا لا يترتب عليه إجبـار إلهي، فـالعلم المسـبق لا يقتضي الإجبار.

لكن اعتراضنا على أزلية القرآن وقِدَمه يأتي من وجوه أخــرى: فالافتراض بوجود سابق قديم للقرآن يجعلنـا نتسـاءل: مـتى كـان ذلك؟ هـل كـان قبـل البعثـة بـألف سـنة أو ألفي سـنة أو عشـرة مليارات سنة؟ وهـل قـرارات اللـه وعلمـه طارئـة حـتى نحبسـها ضمن فترة زمنية محددة؟ أم أنها أزلية أي لا سابق لها، فإن قلنــا إن ذلــك أزلي فهـذا سـيجعل من أخبـار سـيدنا محمـد وقـريش وقصص القرآن جميعها شريكة لله في أزليته، والأسـهل والأسـلم من هذا أن نقول إن القـرآن –وهـو كلام اللـه تعـالى- رسـالة من الله تعالى إلى نبيه في زمن ووقت محددين، وهذه الرسالة نزلت لتتفاعل مع الأحـداث في وقتهـا، وليسـت سـابقة لهـا، صـحيح أن بعض الآيات توجيه وإرشـاد للمسـتقبل، لكنهـا تظـل ضـمن إطـار التفاعل مع الحدث، تماماً مثلما يوجه الأب ابنه حيال خطأ قام به ثم يوجه له نصيحة مستقبلية.

يقول تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْـرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْـدَثٍ إِلَّا اسْـتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُـونَ﴾ [الأنبيـاء: 2] ، وقولـه تعـالى في سـورة الشـعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْـهُ مُعْرِضِـينَ﴾ [الشعراء: 5]، فوصف اللـه الـذكر هنـا وهـو كلامـه بأنـه مُحـدَث، والمفردة (مُحدث) تحمل في طياتها دلالـة الاسـتجداد، ونفهم من هذا أنه ذِكرٌ مستجد لم يكن له سابق عهد كأن نقول فُلان مُحدَث الثراء بمعنى أنه لم يكن ثرياً واستجد ثـراؤه، غـير أن المفسـرين بشكل عام لم يميلوا إلى هذا الاحتمال بل رأوا أنّ الاسـتجداد هـو في تـنزل الآيـات أولاً بـأول فهي محدثـة وجديـدة على من نـزلت عليهم، وهذا التفسير مُـبرر ومفهـوم فالمفسـرون يؤمنـون بقـدم كتاب الله تعالى لذلك سينحو تفسيرهم هذا المنحى.

ولننظر أيضاً إلى قوله تعــالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66]، فقد جاءت مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65]، وسنلاحظ هنا توالي القرارات الإلهية، فالقرار الأول أن بإمكان المقاتل المسلم التصدي لعشرة من المشركين فـ(عشرون صابرون يغلبوا مائتين)، ثم جاء القرار بالتخفيف (مائة صابرة يغلبوا مائتين)، وبحسب التفاسير أن النبي الكريم كان يوجّه أصحابه لقتال المشركين فيرسل العشرة إلى وجه المائة، إذ بعث حمزة في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وأرادوا قتالهم، وهذه التكليفات شقت على المسلمين، فجاءت الآية الثانية لتخفف عنهم، لأنه عندما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون، وقالوا: يا رب نحن جياع وعدونا شباع، ونحن في غربة وعدونا في أهليهم، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك، وقال الأنصار: شُغلنا بعدونا وواسينا إخواننا، فنزل التخفيف، وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم، والحاصل أن الجمهور قالوا إن الآية الثانية ناسخة للأولى، وأياً يكن الحال وكيفما فُهمت الآية فمن المؤكد أن الآية الثانية طرأت أو "استدركت" على الأولى وهذا يؤكد تفاعلية النص القرآني مع الأحداث والظروف وينفي قِدَمَهُ، ولاحظ قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم..)، فمفردة (الآن) تصحيح لحالة سابقة، ولا نقول هذا لنقصد أن الآية السابقة فيها خطأ فهي من لدن عزيز عليم، وإنما لنؤكد أن الآية الثانية تحمل مضموناً متطوراً ومستجداً واستدراكاً عن الآية الأولى وهذا لا يتم إلا بوجود نص "نسبي" وآني لا نص جاهز وأبدي، وإلا لاختلفت الصياغة.

وقد يكـون تـدرج الآيـات في بعض الأحكـام دليلاً - وإن لم يكن قاطعـاً – على تاريخيـة النص القـرآني وتفاعليتـه وواقعيتـه، ومن أبرز الأمثلة على ذلك هـو الآيـات 183 و 184 و 185 في سـورة البقرة:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
- أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَـوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ فَمَن شَـهِدَ مِنكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُـمْهُ وَمَن كَـانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُـواْ الْعِـدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَـا هَـدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

ففي الآية الأولى يفـرض اللـه تعـالى الصـيام على قـوم النـبي للمـرة الأولى، ويحـدد هـذا الصـيام بأيـام معـدودات، وقـال بعض المفسرين إن الأيام المعـدودات كـانت صـوم ثلاثـة أيـام من كـل شهر، فنجد في رواية: "حدثنا المثنى قال، حدثنا أبو حذيفـة قـال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء قال: كان عليهم الصيامُ ثلاثة أيام من كل شهر، ولم يُسـمِّ الشـهرَ أيامًـا معـدودات. قـال: وكان هذا صيام الناس قبل، ثم فرض الله عـز وجـل على النـاس شهرَ رمضان"[1] ، وفي رواية أخرى: "حدثنا أبو كريب قـال، حـدثنا يونس بن بكير قال، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبـة. عن عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبـل: أن رسول الله قدم المدينة فصامَ يومَ عاشوراء وثلاثة أيـام من كل شهر، ثم أنـزل اللـه جـل وعـزّ فـرضَ شـهر رمضـان، فـأنزل الله:"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كمـا كتب على الـذين

[1] تفسير الطبري جامع البيان في تأويل آي القرآن، الجزء 3، تفسير الآية 183 من سورة البقرة

من قَبلكم" حــتى بلــغ:" وَعلى الــذين يُطيقونــه فديــة طعــامُ مِسكين."[1]

وقال غيرهم: بل الأيام الثلاثةُ التي كان رسول اللــه يصــومُها قبل أن يفرض رمضان، كان تَطوعًا صوْمهُنّ، وإنما عنى الله جــل وعز بقوله: "كتب عليكم الصيامُ كمـا كتب على الـذين من قبلكم أيامًا معدودات"، أيامَ شَهر رمضان، لا الأيامَ الـتي كـان يصـومهن قبل وُجوب فرض صَوم شهر رمضان"، حيث نجد ذلك في روايـة: "حدثنا محمد بن المثنى قال، حدثنا محمـد بن جعفـر، عن شـعبة، عن عمرو بن مرة، قال، حدثنا أصحابنا: أنّ رسول الله لما قدم عليهم أمرَهم بصيام ثلاثـة أيـام من كـل شـهر تطوعًـا لا فريضـةً. قال: ثم نزل صيام رمضان [2]".

وغيرهـا من الروايـات الـتي تتضـارب فيمـا بينهـا، ومن نـاحيتي فإنني أرى أن هذه الآيات تحمل حكمين منفصلين لا حكماً واحـداً، وبتأمل بسيط للآيات يمكننا ملاحظة ذلك، فالحكم في الآيــة 183 " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَــا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُــونَ" ورد بصــيغة مختلفــة عن الحكم في الآيــة 185" شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيــهِ الْقُــرْآنُ هُــدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّنَ الْهُــدَى وَالْفُرْقَــانِ فَمَن شَــهِدَ مِنكُمُ الشَّــهْرَ فَلْيَصُــمْهُ..." في الأولى (كتب عليكم الصيام) وفي الثانية (فمن شهد منكم الشـهر فليصمه...) فلو كان حكماً واحداً هو صـيام شـهر رمضـان فلمـاذا ورد بصيغتين مختلفتين؟ وفي آيـتين متتـاليتين؟ مـا الـداعي لهـذا التكرار والتنوع في الألفاظ لحكم شـرعي واحـد، لـو كـان حكمـاً شرعياً واحدا؟

كذلك ستلاحظ في الآية التي تتوسط هـاتين الآيـتين وهي الآيـة 184 "أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَــرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَـهُ فِدْيَـةٌ طَعَــامُ مِسْــكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُـومُواْ خَيْـرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُــونَ" أن هناك ثلاث فئات من الناس الذين بإمكـانهم تأجيـل الصـيام أو عـدم الصـيام بالكليـة، وهم 1. المـريض و2. المسـافر و3. على

[1] المصدر نفسه
[2] المصدر نفسه

الذين يطيقونه، بينما في الآية التي تليها فئتان فقط وهما 1. المريض و2. المسافر، فلو كانت هذه الآيات الثلاث تتحدث عن حكم شرعي واحد فكيف نفهم هذا الاختلاف فيما بينها؟

الحقيقة أن الآيات تدرجت في الحكم تمهيداً لصيام شهر رمضان، فكان الحكم الأول بضعة أيام نوعاً من التدريب ثم جاء الأمر بصيام شهر رمضان فريضةً إسلامية وعبادة رسمية يؤديها ملايين المسلمين حول العالم. ولنكن منصفين فنقول إن هذا التدرج ليس دليلاً قطعياً على تاريخية النص القرآني وتفاعليّته مع الأحداث في وقتها، إذ يمكن لقائل أن يقول إن التدرج لا يمنع من أزلية القرآن فقد شاء الله هذا التدرج لترويض الأنفس على مراحل، وهذا لا يمنع وجود كتاب الله تعالى محفوظاً منذ الأزل في لوحه المحفوظ، وهذا كلام واقعي لمن يؤمن بأزلية كتاب الله تعالى وقِدَمِه، لكننا نسوقه هنا لنقول إن آيات معينة هيمنت وحلت مكان أحكام في آيات أخرى مع بقاء لفظ تلك الآيات للتعبد بها، وهذا يعزز مفهوم أن القرآن الكريم يقبل الاستدراك عليه من داخله، وطالما يقبل الاستدراك من داخله فمعنى نزوله إذن من لدن حكيم عليم إلى منطق البشر هو أنه يسري عليه منطق البشر ونسبيتهم. هذا النص إلهي المصدر لكنه تنزّل بمنطق البشر فصار يقبل الاستدراك مثل كلام البشر وفكرهم، أي أنه نزل من عالم المطلق إلى عالم النسبية. وفي كتابه الدين والتدين- التشريع والنص والاجتماع يقول عبدالجواد ياسين: (إثبات المصدر الإلهي للدين في ذاته، لا يعني إنكار حضور الاجتماع في البنية الكلية الدينية، فلأن الإنسان هو موضوع الدين ومجاله، سيعبّر المطلق الديني عن ذاته من خلال التمثل في الواقع الاجتماعي. يتم ذلك بشكل أساسي عبر "النص" وهو في ذاته آلية اجتماعية من حيث هو بناء لغوي وإن كان حاملاً لمضمون الوحي.)[1]

ومن أجل تجنب الوقوع في فخ حدوث القرآن لجأ التنويريون المعاصرون من أهل القرآن إلى إنكار ما يسمى (أسباب النزول) لأنه بإقرارهم بوجود أسباب للنزول فإنهم يقرون تلقائياً بحدوث

[1] عبدالجواد ياسين، الدين والتدين- التشريع والنص والاجتماع، ص 7-8، مؤسسة مؤمنون بلا حدود

القرآن، فهناك أحداث تقع وتفاعلاً معها نزل الوحي ليخاطبها، وهذا ما لا يريده المعاصرون- ولا الأقدمون طبعاً، إذ أن الجميع – تقريباً- متفقون ومتصالحون مع فكرة أزلية القرآن الكريم وقِدَمِه، وبدلاً من ذلك أسموها (مناسبات النزول) وذلك تلطيفاً لهذا الانطباع بمعنى أن السور والآيات جاهزة وأزلية لكنها تتنزل في المناسبات والحوادث بما يتوافق مع ظرفها، مع أن النتيجة واحدة.

وسر رفض المعاصرين لفكرة أسباب النزول هي قناعتهم أن هذا القرآن لا بد وأن ينزل ولا يحتاج أسباباً، أما الأقدمون فقد تصالحوا مع فكرة أسباب النزول لكنهم طبعاً متفقون على أن هذا القرآن الكريم قديم وليس حادث، وأُفردت لذلك كتب وأبحاث كثيرة ومنها:

"أسباب نزول القرآن للإمام علي بن أحمد الواحدي" (توفَّى 468 هـ)، و "لباب النقول في أسباب النزول" لجلال الدين السيوطي (894-911 هـ)؛ و "العُجابُ في بيان الأسباب" للحافظ المحدّث أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (توفَّى 852 هـ)، وغيرها.

وبناء على هذا الفهم حذّر العلماء المسلمون من تدبر القرآن دون الاطلاع على أسباب نزول الآيات والسور لأن ذلك سيوقع في الخطأ والضلال والفهم المُبتسر، وهذا حقق وإن من غير قصد تطور ما في مسألة تطور الشرائع والقوانين، إذ وجد المُفتون المعاصرون من خلال أسباب النزول نافذة يبررون من خلالها تغير وتطور الأحكام عبر الزمن، مثل أحكام السبي وملك اليمين ففي عام 1877، في عهد الخديوي إسماعيل، وقّعت الحكومة المصرية اتفاقاً بالإسكندرية، يقضي بحظر تجارة الرقيق، وفرض عقوبات مشدّدة على ذلك، وكان تبرير ذلك أنه بانعدام أسباب الرقّ، صار الناس كلّهم على أصل الحرية، وبهذا يتماس الفهم التقليدي التراثي في أحيان مع فكرة وضرورة تطوير الشرائع والقوانين حتى بوجود نص قرآني يؤطر ويعترف بوجود سبي وملك يمين:وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ [سورة المؤمنون، الآيتان 5–6]، وهذا أمر محمود.

النص القرآني مُنتج متفاعل وفاعل إن جاز لنا قـول ذلـك، غـير أنه يختلف عن المنتجات البشرية في مصدريته، فهذا مصدره الله تعالى وتلك مصادرها بشرية، ما يجعل من القرآن حالة فريــدة إذ أنه متجسد في لغة البشر بينما هو من الله تعـالى واللـه لا يتكلم لغة البشر، وهذا هو الإنـزال فقولـه تعـالى (أنـزل) تعـني أن هـذا القـرآن **هبـط من التعبـير أو القصـد الإلهي إلى التعبـير البشري**، وهذا منطقي، فالقرآن نـزل يخـاطب النـاس بلسـانهم البشري الذي يعرفون ويألفون، لا بــ"لسان" الله.

هذا النزول لم يراع اللسان فحسب وإنما راعى الثقافة والبيئـة والظروف التي نزل فيها، وتفاعل معها بحسب ما ولّدته الظروف الاجتماعية والسياسية القائمـة، ولا أدري مـا سـر تقـديس النـاس قديماً وحديثاً لفكرة قِدَم القرآن الكريم، وإصرارهم على اعتبـاره قديماً، وتشنجهم الواضح في الدفاع عن ذلك، مـع غيـاب الـدلائل على ذلك من الكتاب نفسه، وفي الـوقت نفسـه لا أدري على أي أساس تم اعتبار هذه الفكرة (وهي قِدم القرآن) من المعلومــات من الدين بالضرورة ومن يقول بغير ذلك فقد كفر.

الواقع القرآني في الكثـير من مواضـعه يؤكـد على محليتـه في الخطاب والتشريع، ولنأخذ مثلاً هذه الآية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَــرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَـوْتِ تَحْبِسُـونَهُمَا مِنْ بَعْـدِ الصَّـلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَـوْ كَـانَ ذَا قُـرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ [المائدة: 106]

حيث تروي التفاسير مناسبة لهذه الآية، وهي أن «أنَّ تَمِيمًا الدّارِيَّ وأخاهُ عَدِيًّا كانا نَصْرانِيَّيْنِ خَرَجا إلى الشّامِ ومَعَهُما بَدِيلٌ مَوْلى عَمْرِو بْنِ العاصِ وكانَ مُسْلِمًا مُهاجِرًا، خَرَجُوا لِلتِّجارَةِ، فَلَمّا قَدِمُوا الشّامَ مَرِضَ بَدِيلٌ فَكَتَبَ كِتابًا فِيهِ نُسْخَةُ جَمِيعِ ما مَعَهُ وألْقاهُ فِيما بَيْنَ الأقْمِشَةِ ولَمْ يُخْبِرْ صاحِبَهُ بِذَلِكَ، ثُمَّ أوْصى

إِلَيْهِما وأمَرَهُما أنْ يَدْفَعا مَتاعَهُ إذا رَجَعا إلى أهْلِهِ، وماتَ بَدِيلٌ فَأخَذا مِن مَتاعِهِ إناءً مِن فِضَّةٍ مَنقُوشًا بِالذَّهَبِ ثَلاثَمِائَةِ مِثْقالٍ، ودَفَعا باقِيَ المَتاعِ إلى أهْلِهِ لَمّا قَدِما، فَفَتَّشُوا فَوَجَدُوا الصَّحِيفَةَ وفِيها ذِكْرُ الإناءِ، فَقالُوا لِتَمِيمٍ وعَدِيٍّ: أيْنَ الإناءُ ؟ فَقالا: لا نَدْرِي، والَّذِي دَفَعَ إلَيْنا دَفَعْناهُ إلَيْكم، فَرَفَعُوا الواقِعَةَ إلى رَسُولِ اللَّهِ ، فَأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى هَذِهِ الآيَةَ»، بمعنى لو أن أحدهم كان في سفر وحضرته الوفاة وأراد كتابة وصيته فليستشهد على ذلك شهيدين، وعليهما أن يقسما أمام الناس على أمانتهما في نقل الوصية كما أملاها عليهما المُتوفى، وذلك في عقب الصلاة حيث يتم حبسهما أي إيقافهما بعد الصلاة، وتحديداً –كما تقول بعض التفاسير- بعد صلاة العصر فهذا الوقت كان معروفاً عندهم للتحليف وقضاء الأحكام، والحقيقة أنني لا أجد في واقعنا اليوم في القرن الحادي والعشرين أي ضرورة لتطبيق هذه الآية، فهناك بدائل عصرية لكتابة الوصية وإرسالها في بريد الكتروني بسيط، خاصة أن الإنسان المعاصر قد يسافر بمفرده ولن يكون معه مرافقان ليشهدا على الوصية، وفي حال عدم وجود مرافقين فلا يعقل أن نستشهد بشهادة رجلين من تشيلي أو زيمبابوي ممن كان المتوفى في بلادهما مثلاً وأن على هذين الحضور إلى مسجد في ديار الرجل المتوفى ويتم حبسهما بعد الصلاة للإدلاء بشهادتهما.

2. القـــرآن في المـــيزان: الجغرافيـــا والزمن

إن من أكبر عوائق فهم القرآن الكريم ودلالاته هو أن الجميع – بلا استثناء تقريباً- يرى أن هذا الكتاب موجه إلى العالم كله، وهذا ما يـدين بـه المفكـرون والفقهـاء من كافـة المـذاهب، مسـتدلين بقوله تعالى: {مَّا كَـانَ مُحَمَّدٌ أَبَـا أَحَـدٍ مِّن رِّجَـالِكُمْ وَلَكِن رَّسُـولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمـاً} (الأحـزاب 40)، وقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللّـهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعـاً} (الأعراف 158)، فهل فعلاً نـزل القـرآن الكـريم مُخاطبـاً العـالم وملزماً كافة الأمم بتشريعاته؟ هل هـو حجـة على الصـيني –مثلاً- الذي لا يفقه اللغة العربية؟

هذا سؤال لطالما أرقنا ونحن ننظر يميناً وشمالاً وفكرة عالمية الرسالة المحمدية تحاصرنا من كل جانب فلا نجد فكاكاً ولا جواباً شافياً للسؤال، واكتفى مشايخنا الكـرام بـالرد على هـذا السـؤال بـالقول إن على هـذه الأقـوام أن تبحث عن الحقيقـة لتجـدها في كتـاب اللـه تعـالى، فهـل هـذا بـرأيكم جـواب منطقي؟ هـل على الصيني الذي يعمل في مزرعة نائية أن يـترك أعمالـه ونشـاطاته ويتفرغ لدراسة العربية من أجل أن يفهم كتاباً لا يعنيه في شيء؟ هل لو قلت لك إن عليك أن تـدرس البوذيـة وكتبهـا وتتعلم اللغـة الهندية أو السنسكريتية بحثاً عن الحقيقة فستقبل؟ سـيكون ردك البديهي: ولماذا علي أن أدرس ديانـة أخـرى وديـانتي هي الحـق؟ الأمر نفسه ينطبق على هـذا الهنـدي أو الصـيني الـذي وُلـد وهـو مقتنع تمامـاً بـأن ديانتـه هي الحـق وهي السـبيل الوحيـد لـدخول الجنة، وينطبق ذلك على كافة مذاهب الأرض.

من الغـريب إذن أن نطـالب الصـيني بتعلم العربيـة من أجـل إدراك الأسـرار والإعجـازات واللطـائف الربانيـة في هـذا القـرآن ومن ثم الدخول في الإسلام.

فكيف يستوي هذا المأزق مع فكرة عالمية رسالة سيدنا محمد عليه السلام وأنها رسالة للناس وللعالمين كافة؟ ما هو المطلوب منا نحن كمسلمين إزاء هذه العالمية؟ وكيف ننقل روح القرآن وكنهه إلى الأمم الأخرى الأعجمية؟ وكيف يكتمل إيمان هذا الأعجمي إن دخل الإسلام وهو لا يفقه اللغة العربية وأسرارها ودلالاتها؟ ألن يكون إيماناً أبلهاً خالياً من الحضرة الدلالية للقرآن والتي وهبنا إياها الله تعالى نحن العرب ولم يهبها لغيرنا؟

إن فكرة عالمية الرسالة المحمدية باتت بديهة من البديهيات التي لا تُناقش ولم تناقش على مدار التاريخ الإسلامي كله إلا على استحياء شديد، وسبب بداهتها وانتشارها يعود إلى الانطباعات التالية التي انقدحت في أذهاننا فانغرزت في اللاوعي:

1. أنها رسالة خاتمة فمن المنطقي أن تكون عالمية
2. القرآن سطر ذلك بوضوح في قوله تعالى (وما ارسلناك ألا رحمة للعالمين) وقوله تعالى –مثلاً- (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس).
3. قصص السيرة التي تروي لنا إرسال سيدنا محمد عليه السلام رسائل إلى عظيم الفرس وعظيم الروم وعظيم مصر يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك قصص الفتوحات الإسلامية التي ركزت (كما فهمنا) على نشر الدعوة الإسلامية بين الاقوام.

والاجابة على ذلك هي التالي:

هل لمجرد أن الرسالة كانت رسالة خاتمة فهذا يعني أنها عالمية؟ الحقيقة أن هذا لوحده لا يكفي وإنما علينا قراءة القرآن الكريم بتأنٍ لاستكشاف عالميته من داخله إن كان عالمياً.

تعالوا نناقش آيات القرآن الكريم التي خرجنا منها بانطباع عن عالمية الرسالة.

يقول تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

هل كلمة العالمين تعني كل شيء في السموات والأرض كما ذهب المفسرون؟

كلمة عالمين ليست جمع عالَم (بفتح اللام) فلو كانت كذلك لكان جمعها (عوالم)، ولكن الكلمة (عالمين) تتحدث عن الناس، وهناك أدلة كثيرة في القرآن حول ذلك، فقوله تعالى (وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) أي بما في صدور الناس، وقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) يتحدث هنا عن الناس، وتحديداً مجموعة محددة من الناس، وكان رد آل لوط عليه بأن قالوا (أولم ننهك عن العالمين) بمعنى ألم ننهك عن الناس وعن التحدث معهم.

إذن من الواضح أن كلمة (العالمين) تشير إلى الناس، لا بل إلى مجموعة محددة من الناس. خذ مريم مثلاً وقصة حملها فقد كانت آية للعالمين في قوله تعالى: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِين)، وما كانت هذه القصة إلا آية لبني إسرائيل في ذلك الزمان فقط، فهم من شهدوا هذه الواقعة، ونحن نعلم أن سيدنا عيسى مبعوث لدعوة بني إسرائيل فقط.

الأمر نفسه ينطبق على مفردة (الناس) فينبغي فهمها بحسب سياقاتها في الآيات، فأحياناً يُراد منها جميع البشر وأحياناً تعني فئة أو مجموعة محددة من البشر، والسياقات واضحة في هذا. يقول تعالى (قل أعوذ برب الناس) هنا تتحدث الآية عن كل البشر، ويقول تعالى (وأنزل التوراة والانجيل، من قبل هدى للناس) فهل المُراد هنا جميع الناس أم المستهدفين من الرسالة وهم بني إسرائيل؟

وقوله تعالى (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق)، فهل مطلوب من داوود أن يحكم بين كل البشر على وجه الأرض؟ لماذا لا نقول هنا إن رسالة سيدنا داوود عالمية كما قلنا إن رسالة سيدنا محمد عالمية؟ وانظر قوله تعالى (يا أيها الناس إن الناس قد جمعوا لكم) ولاحظ محلية وجزئية الخطاب فيها فهي واضحة تماماً.

إذن كلمة (عالمين) و (الناس) تحكمها سياقاتها ولا تحمل بالضرورة مدلول العالمية في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة

للعالمين)، وفكرة عالمية الرسالة المحمديـة اسـتناداً إلى الآيـات السابقة فكرة غير متماسكة، ولا يدعمها القرآن.

ومن الأصوات الاستشراقية التي ناقشت عالمية الرسالة القرآنية المفكر الأمريكي **جون وانسبرو John Wansbrough** (1928-2002) وهو واحد من أبرز الباحثين الذين خاضوا في عمق النص القرآني، لا من باب التسليم بنصوصه، بل عبر أدوات النقد التاريخي والنصّي. ومن أبرز ما طرحه وانسبرو تلك الرؤية التي ترى أن الخطاب الديني الإسلامي لم يكن موجهاً للعالم أجمع، بل جاء في سياق جدلي محلي بين طوائف دينية متناحرة، ولم يتحول إلى خطاب عالمي إلا لاحقاً في ظل حاجات سياسية للدولة الإسلامية الناشئة.

في كتابه[1] **"البيئة الطائفية: محتوى وتكوين تاريخ الخلاص الإسلامي"**، يقول وانسبرو:

"إن الخطاب الديني الإسلامي الأول لم يكن عالمي النزعة، بل محصور في جماعة معينة تبحث عن هوية دينية في مقابل الطوائف الأخرى."

هذه الجملة تشكل حجر الأساس في فهم منهج وانسبرو التأويلي؛ إذ يضع القرآن في سياقه الطائفي الخاص، معتبراً إياه جزءاً من خطاب جدلي نشأ داخل بيئة مشبعة بالنقاشات اللاهوتية، سواء مع اليهود أو المسيحيين أو الطوائف الأخرى المتأثرة بالتراث الإبراهيمي. فبحسبه، لم يكن النبي محمد يقدّم نفسه منذ البداية كرسول للبشرية جمعاء، وإنما كصوت ديني داخل جماعة تبحث عن تثبيت هويتها في مواجهة الخصوم العقائديين ضمن الإطار المحلي للجزيرة العربية أو الهلال الخصيب.

---

[1] جون وانسبروJohn Wansbrough، البيئة الطائفية: محتوى وتكوين تاريخ الخلاص الإسلامي (The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History)، ص 33

ثم يتطور تحليل وانسبرو ليصل إلى نتيجة أكثر جرأة ، إذ يقول[2]:

"إن القول بعالمية الرسالة جاء لاحقًا مع تطور المفاهيم اللاهوتية الإسلامية، وظهور الدولة الإسلامية التي احتاجت لتأطير لاهوتي لحكم الشعوب غير العربية."

هنا يُسقِط وانسبرو عن القرآن صفة "العالمية" كعنصر أصيل في بنية النص، ويعتبر أن هذه العالمية جاءت استجابة لتطورات سياسية لاحقة، لا دينية خالصة. فالخطاب الذي وُجه أولاً إلى جماعة محددة، تَحول مع نشأة الدولة الإسلامية وتوسّعها إلى خطاب يحتاج إلى تأطير لاهوتي جديد يُبرّر سلطة العرب المسلمين على غير العرب، ويضفي الشرعية الدينية على حكم الشعوب المفتوحة. وهكذا، تصبح "عالمية الرسالة" في نظره مشروعًا لاهوتيًا متأخرًا، نشأ في ظل الإمبراطورية، وليس مع نزول الوحي.

وسنلاحظ من خلال قراءة كتاب وانسبرو أنه في طرحه لا يكتفي بنقد الرواية التقليدية السائدة حول عالمية الرسالة، بل يُعيد رسم خريطة تطور الخطاب الديني في الإسلام، متّكئاً على قراءة داخلية للنص، وتحليل تاريخي لنشوء السلطة الدينية والسياسية. ورغم الجدل الواسع الذي أثارته أطروحاته، فإنها تُعد جزءاً من التيار الاستشراقي الحديث الذي يسعى لفهم الإسلام لا كمُعطى نهائي، بل كمُنتج ثقافي-تاريخي تطور ضمن ظروف معينة، وقد يكون لهذا الطرح ما يرد عليه، لكن لا يُستهان بأهميته في سياق البحث النقدي الأكاديمي.

كــذلك يســتدل البعض بــأن خاتميــة الرســالة تقتضــي حتمــاً عالميتها، لكن هـذا الاسـتدلال يحتـاج إلى تفكيـك وتحليـل أعمـق.

[2] جون وانسبروJohn Wansbrough، البيئة الطائفية: محتوى وتكوين تاريخ الخلاص الإسلامي (The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History)، ص 73

فمفهوم خاتم الأديان يمكن أن يحمل دلالتين مختلفتين: دلالة سائدة تقليدية وأخرى خاصة تأويلية.

فالمعنى السائد والمتعارف عليه هو أن الإسلام الدين السماوي الأخير، ولن تأتي بعده رسالة إلهية أخرى. أي أن الوحي قد انقطع بعد النبي محمد ﷺ، وأن الإسلام جاء ليكون الدين الخاتم والشامل للناس كافة، بصيغته النهائية، لذا فهو المرجع الفصل لكل البشر حتى يوم الدين.

المعنى التأويلي للخاتمية: انطلاق عصر العقل

لكن هناك معنى آخر يمكن استنباطه من روح القرآن نفسه وهو أن خاتمية الرسالة تعني انتهاء التدخل الإلهي المباشر في تفاصيل الحياة البشرية، أي أن الوحي توقف، وانطلقت مرحلة الإنسان والعقل ليكونا المرجع الأساسي في إدارة شؤون الحياة. فكما أن النبي محمد ﷺ هو "خاتم النبيين" بالمعنى الظاهر أي آخر الأنبياء، فإن هذا يمكن أن يعني أيضًا أن مهمة النبوة كآلية إلهية للتوجيه قد انتهت، **ليبدأ عهد الاجتهاد البشري المستقل.**

بعبارة أخرى، لم يعد هناك "نبي" رسمي يتدخل في حياة الناس ويشرّع لهم بالوحي، بل بات على الناس أن يصنعوا "أنبياءهم" بمعنى استخدام العقل والمنطق لتحديد ما يصلح لهم في كل عصر. وهنا لا نقصد الأنبياء بالمفهوم الديني، بل نقصد القيادات الفكرية والفلسفية والعلمية التي تتولى توجيه المجتمعات عبر الاجتهاد البشري.

ويمكن مقارنة هذه الفكرة بالتحولات الكبرى في التاريخ، مثل الانتقال من الحكم الثيوقراطي إلى الحكم المدني في أوروبا بعد عصر التنوير. فبعد قرون من سيطرة الكنيسة واعتبار رجال الدين هم الناطقين باسم السماء، جاءت الثورة الفكرية الأوروبية لترسّخ مفهوم الدولة الحديثة، حيث القوانين تصاغ بناءً على العقل والتجربة الإنسانية وليس على النصوص المقدسة وحدها.

وفي تاريخ المسلمين، نجد ملامح لهذا التحول في التجربة المعتزلية، حيث كان الاعتزال يؤكد على دور العقل في تأويل

النصوص، معتبرين أن الإنسان مسؤول عن أفعالـه بحكم العقـل، وليس فقط بحكم النقل. كـذلك، نجـد هـذه الـروح في محـاولات الفلاسفة المسلمين مثل الفـارابي وابن رشـد، الـذين سـعوا إلى التوفيق بين العقل والدين، مؤكدين أن النصـوص يجب أن تخضـع للتفسير وفق معطيات الزمان والمكان.

إذا أخذنا هذا المنظور، فإن مـا بعـد النبـوة هـو عصـر الإنسـان بامتيـاز، حيث لم يعــد هنــاك مصــدر ســماوي يفــرض ســلطته التشريعية على المجتمعات، بـل أصـبح الإنسـان المسـؤول الأول والأخــير عن مصــيره. لا أنبيــاء بعــد اليــوم، بــل هنــاك علمــاء، ومفكــرون، وفلاســفة، ومشــرّعون، وقــوانين مدنيــة تُبــنى على التجربة الإنسانية، لا على النصوص الجامدة.

وبذلك، يمكن القول إن خاتمية الرسالة ليست قيدًا بل تحريرًا، تحريــر للعقــل من الوصــاية المطلقــة، وانطلاقــة نحــو الاجتهــاد المستمر الـذي يجعـل الحيـاة قانونهـا العقـل والمنطـق، لا النص الحرفي وحده.

وهناك أيضاً الرسائل التي كان يبعثها سيدنا محمد إلى كسرى وقيصر والمقوقس، والتي يرى البعض فيها دليلاً على عالمية الرسالة، فهل تتخيل أن يرسل الله تعالى رسالة إلى كل العالم، ويكتفي النبي بكتابة رسالة إلى ملوك هذه الدول، ليرفع العتب عن نفسه؟ هل الرسالة الورقية كافية؟ وهل وصلت الدعوة إلى هذه الأمم بعمقها ودلالاتها واستشرافاتها؟

هي مجرد رسالة ورقية كانت تصل إلى هؤلاء الملوك وكان البعض يرفضونها ويلقون بها في سلة المهملات، وبالتالي فمن يرى أن الدليل على عالمية الرسالة هي تلك الرسائل الورقية التي كان يرسل بها النبي إلى الملوك فهو دليل هش للغاية.

أما لماذا كان يبعث النـبي الرسـائل (إن صـح أنـه كـان يبعثهـا) فهـذا لأنـه كـان يـرى الحـق في رسـالته ويتمـنى أن ينشـرها، ألا نلاحظ اليوم المسـيحيين يسـعون بكـل الوسـائل إلى نشـر دينهم في أفريقيــا فيبنــون المــدارس والمستشــفيات من أجــل هــذه الـدعوة؟ هـل هـذا يعـني أن المسـيحية رسـالة عالميـة؟ وكـذلك

البوذيون يسعون إلى نشر البوذية في العالم فهل يمكن تصنيف مُعتنقهم عالمي؟ والأمر نفسه ينطبق على الهندوسية وتحديداً حركة "إيسكون" التبشيرية، فهل هذه الملل عالمية؟

وأما الفتوحات الإسلامية فموضوعها طويل، وقل عنها ما شئت لكنها لم تكن بهدف نشر الرسالة العالمية في المقام الأول، وإنما اختلطت فيها عدة مقاصد ومصالح، وحتى الصحابة أنفسهم فقد غمرهم هذا الهوس بعالمية الرسالة وانغرس في أذهانهم هذا الانطباع، وهذا كان دافعاً ظاهرياً من دوافع التمدد والفتوح الإسلامية، التي أسهمت فعلاً في توسع الدولة الإسلامية وبالتالي نشر الإسلام، لكن الفاتحين لم تكن تحركهم آيات القرآن لفتح الدول واستعمارها وإنما كانت تحركهم انطباعاتهم وفهمهم وقراءتهم هم للسيناريو الإسلامي والسيناريو السياسي. المهم أن الانطباع السائد وقت نزول رسالة سيدنا محمد أنها كانت عالمية وهذا هو الدافع الذي كان يحرك الناس لاتخاذ الفتوحات الإسلامية مبرراً للغزو، وكانت مبرراً للمفسرين لكي يدعموا ذلك استناداً إلى فكرة أن الرسالة خاتمة وأن سيدنا محمد عليه السلام سيد الأنبياء والمرسلين وأن القرآن وصفه بانه رحمة للعالمين، الخ.

فالحديث عن الفتوحات الإسلامية طويل ومتعدد الأبعاد، ويمكن للمرء أن يقول فيها ما شاء، لكن من الخطأ اختزالها في بُعد واحد فقط، سواء كان دينياً بحتاً أو سياسياً واقتصادياً محضاً، إذ لم تكن الفتوحات مجرد وسيلة لنشر الرسالة العالمية للإسلام، بل كانت نتاجاً لمجموعة معقدة من العوامل، تراوحت بين الاندفاع العقائدي، والمصالح السياسية، والطموحات التوسعية، والضرورات الاستراتيجية.

حتى الصحابة الأوائل لم يكونوا جميعهم متفقين على تفسير دوافع الفتوحات، لكن ما لا شك فيه هو أن الهوس بفكرة عالمية الرسالة كان قد ترسخ في أذهانهم، مما جعلهم ينظرون إلى الفتوحات على أنها امتداد طبيعي للمهمة النبوية، ولم تكن هذه الفتوحات تتبع هدي آيات القرآن مباشرة، بل كانت تتحرك وفقاً

لانطباعـات وتفسـيرات وتـأويلات بشـرية للسـيناريو الإسـلامي والسياسي في ذلك الوقت.

ولا شك إن الدافع الديني كان حاضـراً في الفتوحـات، لكنـه لم يكن الوحيد ولا حـتى الأكـثر تـأثيراً في بعض الأحيـان، ويمكننـا أن نرى هذا بوضوح عند مقارنة حملات الفتح في مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامي:

1. **الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين**

- بعد وفاة النبي محمـد ﷺ، انطلقت الفتوحـات في عهـد أبي بكـر الصـديق وعمـر بن الخطـاب، لكنهـا لم تكن مجـرد نشـر للإسـلام، بـل أيضـاً رد فعـل سياسـي وعسـكري على التهديـدات الخارجية، خاصة من الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية.
- استندت الفتوحات المبكرة إلى استراتيجية عسكرية تهدف إلى تـأمين الدولـة الناشـئة، والتخلص من القـوى الـتي قـد تهـدد استقرارها.
- في بعض الأحيان، قبلت الجيوش الإسـلامية بإبقـاء الحكـام المحلـيين في أمـاكنهم مقابـل دفـع الجزيـة، ممـا يـدل على أن الهـدف لم يكن دائمـاً إجبـار النـاس على الإسـلام بقـدر مـا كـان توسيع النفوذ السياسي.

2. **الفتوحــات الأمويــة: من الجهــاد إلى التوســع الإمبراطوري**

- في العصــر الأمــوي، تحــولت الفتوحــات إلى مشــروع إمبراطوري ضخم، حيث أصبح التوسع الجغرافي هدفاً بحد ذاته.
- في هذه المرحلة، لم تكن الفتوحات مدفوعـة فقـط بـروح الجهاد، بل أيضـاً بحـوافز اقتصـادية واضـحة مثـل السـيطرة على الثروات، وتأمين طرق التجارة، وفـرض الضـرائب على المنـاطق المحتلة.
- مثال واضـح على ذلـك هـو الفتح الإسـلامي للأنـدلس عـام 711 م بقيادة طارق بن زياد، حيث لم يكن الهـدف الوحيـد نشـر الإسلام، بل أيضاً التوسع على حساب القوة القوطية الحاكمة في إسبانيا.

3. **الفتوحات العباسية: فتور الاندفاع الديني**

- مع صعود الدولة العباسية، تراجع زخم الفتوحات، وبدأ التركيز ينصبّ على إدارة الدولة وتعزيز الاقتصاد، بدلاً من الغزو المستمر.
- على الرغم من استمرار الحملات العسكرية، فإنها لم تكن تحركها نفس الدوافع الأيديولوجية التي ميزت الفتوحات المبكرة، بل كانت أقرب إلى حروب الممالك التقليدية القائمة على التنافس الجغرافي والسياسي.

ولعب المفسرون والفقهاء دوراً مهماً في إضفاء الشرعية الدينية على الفتوحات، حيث استندوا إلى فكرة أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وأن النبي محمد هو "رحمة للعالمين". ومن هنا جاءت قراءات تبريرية تربط الفتوحات بمهمة تبليغ الرسالة الإلهية، حتى وإن لم تكن الأسباب الفعلية للغزو قائمة على هذا الأساس.

يُشبه هذا ما حدث في الحروب الصليبية لاحقاً، حيث استخدمت القوى الأوروبية الخطاب الديني لتبرير حملات عسكرية كانت ذات دوافع اقتصادية وسياسية واضحة، مثل السيطرة على طرق التجارة في الشرق الأوسط.

ولو نظرنا إلى الفتوحات الإسلامية من منظور أوسع، سنجد أنها لم تكن حركة دينية محضة، بل كانت أيضاً نتيجة طبيعية لديناميكيات القوة والصراع في ذلك العصر. تماماً كما توسعت الإمبراطوريات الفارسية والبيزنطية من قبل، كان للدولة الإسلامية طموحاتها الجيوسياسية التي تجاوزت البعد الديني البحت.

لكن يبقى السؤال الأهم: هل كان بالإمكان انتشار الإسلام بوسائل غير الفتوحات العسكرية؟ ربما، والدليل على ذلك انتشار الإسلام في مناطق مثل إندونيسيا وماليزيا عبر التجارة، وليس عبر الفتح العسكري.

لذلك، فإن القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت حصراً لنشر الرسالة العالمية يتجاهل تعقيد الواقع التاريخي، حيث تداخلت

العوامل الدينيـة، السياسـية، والاقتصـادية لتشـكيل هـذا المشـهد الفريد من نوعه.

هذا هو الجـو العـام الـذي سـادت فيـه فكـرة عالميـة الرسـالة المحمدية، وفكرة أن القـرآن الكـريم صـالح لكـل زمـان ومكـان، وعلينا نشره في أصقاع الأرض، وأن من فهمهما واتبعها فقد نجــا ومن فشل في إدراك أسرارها فقد رسب في الامتحان وســيُلقى في جهنم بلا حساب.

والحقيقة- فيما أرى- أن الرسالة المحمديـة هي رسـالة خاصـة بأمة محمد، ولا مانع من نشرها والدعوة إليها في كل مكان، فهذا حقك، ومن حق المسيحي أن ينشر ما يـراه حقـاً في ملتـه، ومن حق عابد النار أن يشرح للناس ويحاول إقناعهم أن النار هي الإله الحقيقي، المهم أن يتم ذلك ضـمن حـوار سـلمي وبـدون وصـاية وسيف.

القضية الثانية تكمن في اللسان القرآني وخصوصيته، والــتي لا يمكن أن يدركها غير العربي إلا بصعوبة بالغة وسنوات طويلة من الدراسة والاجتهاد، وبحسب ما أرى فإن اللسان العربي هو أصــل اللغــة الأول في حــال نقائهــا، وقبــل أن تــدخلها بعض العجمــة، والقرآن نزل بلسان عربي نقي تعرف معانيه بإرجـاع الكلمـة إلى جذرها الثنائي المشـدد، لكن لن ينجح في فعـل ذلـك إلا الانسـان العربي.

كذلك لو درسنا القرآن الكريم بتأنٍ للاحظنـا بسـهولة أن البيئـة الطاغيـة فيـه هي البيئـة العربيـة بمشـاكلها وأحـداثها، فقـد ركـز بشكلٍ كبير على النبي وحياتـه ومشـاكله مـع قومـه ولم يخـاطب قوماً آخرين سوى بني إسرائيل وهم كما نعـرف جـزء من الواقـع العربي بتاريخه وثقافتـه وجغرافيتـه، وكـانوا يعيشـون بين العـرب ويتسـمون بالأسـماء العربيـة. والقـرآن كمـا أسـلفنا نـزل بلسـان عربي ومنطق عربي يفهمه الانسان العربي في الصحراء العربية، والآية التالية تؤكد ذلك.، قال تعالى: "نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ الْمُنـذِرِينَ بِلِسَـانٍ عَـرَبِيٍّ مُّبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُـرِ الأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ

عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَـــرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَـــانُوا بِـــهِ مُـــؤْمِنِينَ." (الشعراء)

أليست هذه آية صريحة وواضحة تعفي كل من ليس عربيـاً من الإيمان بسيدنا محمد والقرآن الكريم؟ فالقرآن الكـريم يؤكـد أنـه لو نزل على أعاجم فلن يؤمنوا به لأنه ليس بلغتهم، وقياساً عليــه فليس مطلوبـاً من الأعـاجم أن يؤمنــوا بهـذا القــرآن لأنــه ليس بلغتهم. أليس كذلك؟

والآية التالية تؤكد ذلك: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًـا أَعْجَمِيًّا لَقَـالُوا لَـوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُـهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَـرَبِيٌّ قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصـلت: 44]، فهي تؤكـد على أهميـة أن يكـون القرآن عربياً، فلو جعل الله القرآن أعجميا غير عـربي لمـا فهمـه العرب المقصودين بالرسالة. ثم يؤكد القــرآن أن الرسـل جميعـاً نزلوا بلسان قومهم، ومن الواضح أن سيدنا محمـد ليس اسـتثناءً في هذا: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، ثم يحدد اللـه تعالى الطرف الثاني وهو المرسـل إليـه فيخـاطب العـرب الـذين يفهمـون القــرآن بـأن اللــه انـزل عليهم رسـولاً ليعلمهم الكتـاب والحكمـة: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]، ولو كانت الرسالة موجهة إلى كل العالم لقال (كما أرسلنا إلى كل الشعوب رسولاً يتلو عليهم آياتنا....) أو مـا شـابه. وهذا تأكيد آخـر صـريح: ﴿هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعـة: 2]، وفي قولـه تعـالى : ﴿لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبــة: 128]، فاللــه تعـالى يخـاطب العــرب وأن هــذا الرســول منهم وإليهم، ثم يحصــر اللــه تعــالى مستهدفات هـذه الرسـالة بشـكل واضـح وقـاطع، فيقـول: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخـرف: 44]، فهـل نحتـاج

دليلاً أكبر من هـذا أن القـرآن نـزل يخـاطب العـرب وقـوم النـبي تحديـداً في شـبه الجزيـرة العربيـة؟ لا بـل إن هنـاك آيـة أخـرى تتحدث في الجغرافيـا فتحـدد أطـر هـذه الرسـالة: ﴿وَهَـذَا كِتَـابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَـا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]، فما هي أم القرى؟ أليست مكـة؟ ومـا هي القـرى التي حولها؟ أليست شبه الجزيرة العربية؟ هل هنغاريا من القرى التي حول مكة؟، وإليك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَـا كَـانَ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَـا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59]، وقد أرسل الله تعـالى رسوله محمد لينذر قوماً معينين ولم يرسله لكي ينذر العالم كله. يقول تعالى: (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) إلّا أن قومه استنكروا أن يكـون هـذا النـبي منهم: ﴿وَعَجِبُـوا أَنْ جَـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَـذَّابٌ﴾ [ص: 4]، ثم يقـارن اللـه تعالى إرسال سيدنا محمـد بإرسـال سـيدنا موسـى إلى فرعـون، باعتبارهمـا شـاهدين على المرسـل إليهمـا فيقـول تعـالى: ﴿إِنَّا أَرْسَـلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُـولًا شَـاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَـا أَرْسَـلْنَا إلى فِرْعَـوْنَ رَسُـولًا﴾ [المزمـل: 15]، فهـل تشـمل هـذه الآيـة الصـينيين والأسكيمو والفنلنديين والمكسيكيين؟ لا، وإنما أرسل اللـه تعـالى نبيه إلى قوم أُمّيين لم يـأتهم نـذير من قبـل وهم أهـل مكـة ومـا حولهـا: ﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَـانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَـا وَلَكِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمًـا مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 46]، وكذلك الآية التالية: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُـوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَهُمْ يَكْفُـرُونَ بِـالرَّحْمَنِ قُـلْ هُـوَ رَبِّي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـهِ مَتَـابِ﴾ [الرعـد: 30]، والأمـة هي مجموعـة من البشـر تجمعهم ثقافـة وظروف واحـدة، والمقصـود بهم هنـا أمـة العـرب. ثم يؤكـد اللـه تعالى بشكل عـام إرسـال رسـول لكـل أمـة، ولا شـك أن سـيدنا محمد ليس استثناء وإلا لذكر الله ذلـك: ﴿وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولٌ فَـإِذَا جَـاءَ رَسُـولُهُمْ قُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْـطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ﴾ [يـونس:

47]، وكل نبي سيشهد على قومه يوم القيامة، وسيشهد سيدنا محمد على أمته -بحسب بعض التفاسير، وعلى كافة الأمم – بحسب تفاسير أخرى-، وإن صح فهم المفسرين في الثانية فهذا منطقي فنبينا محمد يقف كخاتم للنبيين ويعلم ما أحدثت هذه الأمم بعد أنبيائها، وهو الأجدر بالشهادة على الجميع، وهذا هو مقتضى الرسالة الخاتمة فهي شهادة على الجميع، ودستور تصحيحي لكل الانحرافات التي وقع فيها أهل الديانات الأخرى، وسيكتشف الباحثون عن الحق مقدار التصحيح الذي قدّمه القرآن لمناهجهم، لكن هؤلاء قلة قليلة جداً للأسف، أما بقية الناس فيتعبدون بحسب ما تربوا عليه وسيحاسبهم الله تعالى جميعاً كُلٌّ حسب وعيه وإدراكه وفطرته وعمله الصالح، لكنه غير ملزم باتباع القرآن تحديداً وبنبوة محمد عليه السلام، إلا في حالة واحدة وهي وصوله بقدراته الذاتية ووعيه إلى الاقتناع بأن هذا القرآن هو الواجب الاتباع، وهو كلمة الله تعالى التي صانها الله تعالى إلى يوم الدين، وهؤلاء – كما أسلفنا- قلة قليلة.

وانظر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7]، فلكل قوم هاد وأنت يا محمد لست استثناء في هذا فقد بعثك الله تعالى هادياً لقومك.

ومن الواضح لدارس القرآن محلية المواضيع والبيئة التي نزل إليها، فلن تجد فيه حديثاً عن الثلوج أو الفقمات والكنغارو وقوانين وأوقات الصيد عند الاسكيمو، ولن تجده يتحدث عن سلخ فروة الرأس والهنود الحمر، ولكنه يتحدث عن قضايا محلية مثل الأشهر الحرم والتي ارتبطت بالعرب ضمن ثقافتهم الرامية إلى حماية أنفسهم من الغارات، فماذا سيستفيد الصيني من الأشهر الحرم والهدنة؟ وستجده يتحدث عن أمومة الرضاعة وأخوة الرضاعة، وهي ثقافة عربية حصرية، ولا توجد أمة في العالم تعتبر الأنثى التي ترضعك أماً لك سوى أمة العرب، فما الذي سيستفيده الأسترالي من هذه الثقافة؟ كذلك الظهار وهي عادة عربية كانت منتشرة، وجاء القرآن ليمنعها ويحجمها، وكذلك

تحريمـه للشـهر النسـيء، وهـو اخـتراع عـربي خـالص. كـذلك تخصيصه الكثير من الآيات للحديث حول ملك اليمين، وهناك الكثير من الآيات تتحدث عن مشاكل العرب وعقائدهم، فهل العرب هم كل البشر؟ لماذا لا يتحدث عن آلهة الهنود الحمر والفرس والهنود والصينيين والأوروبيين؟ لماذا لم ينه الهنود عن عبادة براهما (إله الخلق) وفيشنو (إله الحماية) وشيفا (إله التدمير)؟ لأنه ببساطة نزل يخاطب العرب في شبه الجزيرة العربية، وهذا هو لب البحث، فالقرآن نزل يخاطب العرب ويعالج مشاكلهم، ولم ينزل بلغة عالمية وخطاب عالمي، وهو الدين القيم الوسط الذي تتبعه الكثير من الأمم بالفطرة، لكن الخطاب فيه محلي، وهذا هو المقصود، وليس المقصود أن نغلق بابنا علينا فلا ندعو غيرنا، وإنما المقصود أن فكرة عالمية الرسالة ولّدت لدينا حساً من الوصاية الإلهية على الناس وواجب هدايتهم وهذا فرّخ عندنا الكثير من العنف والإرهاب والإقصاء ورفض المُخالف.
ولك أن تنظر في معالجة القرآن لهذه المشاكل العربية الخالصة:
﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إلى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ* وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ*وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ*وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام]،
وكذلك قوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]، و: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش]، و ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ

ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81]، فلماذا لم يذكر الفرو كنعمة من نعم الله علينا للدفء في المناطق الباردة؟، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلى حِينٍ﴾ [النحل: 80]، فلماذا لم يذكر الفقمة التي يستخدمون جلودها في مناطق أخرى من العالم؟ وكذلك انظر قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101]، فهذا حديث عن أهل المدينة وما حولها من الأعراب المنافقين، وهذه بلا شك لا تعني أهل فرنسا والهندوراس في شيء، وانظر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: 67]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 38]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57]، وغيرها الكثير.

ومن هذا نخلص إلى أن القرآن الكريم نزل في بيئة محلية متميزة، كانت لها خصوصياتها الثقافية والاجتماعية التي تختلف عن بيئات أخرى في العالم، ومحلية الخطاب تبرز بشكل جلي في المواضيع التي تطرق إليها القرآن. هذه المواضيع كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتفاصيل الحياة اليومية التي عاشها العرب في شبه الجزيرة العربية، في بيئة صحراوية حيث كانت القيم الاجتماعية والعادات لها دور محوري في تنظيم حياة الأفراد والجماعات.

عندما يتحدث القرآن عن الأشهر الحرم مثلاً، فإنما هو يخاطب المجتمع العربي في تلك الفترة التي كانت مشوبة بالغارات القبلية والنزاعات المستمرة، وهذه الأشهر الحرم كانت بمثابة فترة هدنة تتيح للمجتمعات أن تركز على التجارة أو أداء العبادة دون الخوف من الغارات، فإشارة القرآن إليها، في هذا السياق، تأتى كجزء من فهم البيئة المحلية وكيفية التعامل مع التحديات التي كانت تواجهها تلك المجتمعات. لا يمكن هنا الحديث عن أهمية الأشهر الحرم في ثقافات أخرى، لأنها ببساطة ترتبط بعادات وتقاليد كانت حصرية في شبه الجزيرة العربية.

والمثل نفسه ينطبق على العديد من المواضيع الأخرى التي تطرق لها القرآن، مثل مسألة الرضاعة وأخوة الرضاعة. هذه المفاهيم كانت جزءاً من ثقافة عربية بحتة، وكان القرآن في هذا السياق يحدد ويوضّح مفاهيم تربط الأسرة العربية والمجتمع العربي في وحدة فكرية واجتماعية، وقد تبدو هذه المسائل غريبة عن ثقافات أخرى، لأن المجتمعات الأخرى قد تطورت لتتبع مفاهيم أخرى تتعلق بالعلاقات الأسرية والاجتماعية.

كذلك نجد أن القرآن تطرق لظاهرة الظهار، وهي عادة كانت منتشرة في المجتمع العربي، جاء ليمنعها ويضع الحدود الصارمة لها، موضحاً رؤية الإسلام في حماية حقوق المرأة وتنظيم العلاقات الأسرية. هذا التوجه نحو معالجة العادات المحلية كان جزءاً من مهمة القرآن في إصلاح المجتمع العربي، وليس في توجيه خطاب عالمي بعيد عن التحديات الاجتماعية التي كانت تواجه العرب في تلك الفترة.

إذاً، من المهم أن نلفت الانتباه إلى أن القرآن كان خطاباً موجهاً بالدرجة الأولى إلى قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهم العرب في شبه الجزيرة العربية. صحيح أن هناك

مفاهيم وقيم تتجاوز هذه البيئة المحدودة، ولكن سياق الرسالة ومواضيعها وخطابها يتعامل مع قضايا ذات صلة مباشرة بحياة هؤلاء القوم. إن الحديث عن آلهة الهند والفرس والهنود الحمر لم يكن ضمن الأولويات القرآنية لأنه ببساطة كان موجهًا إلى مجتمعات كانت تعيش في ثقافة بعيدة عن هذه المعتقدات، فالدعوة كانت تركز على توحيد الله سبحانه وتعالى والتخلص من المعتقدات المحلية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية.

ومن النقاط التي تعزز فكـرة محليـة الرسـالة أيضـاً هـو وجـود بعض القضايا العالقة التي لم يعالجها القرآن ولم يتطرق إليها، ما اضطر الكثير من العلمـاء إلى الاجتهـاد لحلهـا دون وجـود أي نص يتكئون عليه ولا قياس يقيسونه، فكيف ترك القرآن هذه المسائل مفتوحة دون تصريح بها أو حـتى مجـرد تلميح يسـاعد المتـأخرين في اجتهادهم لحلها؟

مثلاً: مسألة صيام وصلاة القـاطنين في أقاصـي شـمال الكـرة الأرضـية مثـل غرينلانـد والـتي تـدخل في ليـل طويـل ابتـداء من أكتوبر وحتى مارس في كل عام.

كيف سيصوم هؤلاء؟ لماذا لم يتطرق القرآن في آياته إلى هذه المسألة لو كان رسالة عالمية موجهة إلى كل البشر؟

في المقابل سـتجد أنـه وضـع حلـولاً لمسـائل أقـل إلحاحـاً من صـيام أهـل غرينلانـد ففي جـانب العبـادات والشـعائر مثلاً سـنجد التيمم في حال عدم وجود ماء (فلم تجـدوا مـاء فـتيمموا)، وعنـد الحديث عن الجـانب الاجتمـاعي سـنجد الكثـير من الآيـات توجـه المؤمنين وترشدهم إلى السبيل الأمثل، ومنها قوله تعالى: ﴿فَـإِنْ لَمْ تَجِـدُوا فِيهَـا أَحَـدًا فَلَا تَـدْخُلُوهَا حَتَّى يُـؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيـلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَـارْجِعُوا هُـوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ﴾ [النـور: 28]،ـ نعم هذه المسائل ستجد لها حلولاً في القـران لأنهـا تتعلـق بالبيئة المحلية التي نزل فيها القران أما غرينلانـد فليسـت معنيـة بالخطاب، ولا السويد التي يصل الصيام في شمالها إلى أكـثر من

22 ساعة في اليوم، فمن المسلمين هناك من يصوم بحسب توقيت مالمو، وهي مدينة في أقصى جنوب السويد، وهناك من يصومون وفقا لتوقيت مكة المكرمة أو توقيت تركيا، وخاصة أن هناك حالات أكثر تطرفاً إذ طالما أن المسلمين يصومون ويفطرون على شروق الشمس ومغيبها، فكيف يمكن لمسلمي كندا في القطب الشمالي وتحديداً في منطقة "نونوفت" الصيام والإفطار إذا كانت الشمس أصلاً لا تغيب في الصيف؟

وأطلق الكنديون على هذه الظاهرة "Midnight sun" شمس منتصف الليل، وهي ظاهرة طبيعية تحدث في أشهر الصيف في الأماكن الشمالية من الدائرة القطبية الشمالية أو جنوب الدائرة القطبية الجنوبية، ويمارس المسلمون هناك خلال شهر رمضان أعمالهم ووظائفهم بشكل طبيعي، مع الاستمرار في الصيام والإفطار بحسب أذان مكة، حتى أنهم يؤدون صلاة التراويح في المسجد.

طبعاً نحن هنا لا نناقش الفتوى، ولا نهدف إلى ذلك، ولكن نريد تسليط الضوء على غياب نص واضح في القرآن الكريم يعالج هذه النقاط، وهذا ليس نقصاً في كتاب الله تعالى وإنما للسبب ذاته الذي نسلط الضوء عليه وهو أن هذا الكتاب نزل بخطاب محلي يخاطب قوماً معينين – وهم قوم النبي الكريم - في وقت معين – وهو وقت نزول الرسالة - ومكان معين –وهو شبه الجزيرة العربية.

من الواضح لدارس القرآن محلية المواضيع والبيئة التي نزل إليها، فلن تجد فيه حديثاً عن الثلوج أو الفقمات والكنغارو وقوانين وأوقات الصيد عند الاسكيمو، ولن تجده يتحدث عن سلخ فروة الرأس والهنود الحمر، ولكنه يتحدث عن قضايا محلية مثل الأشهر الحرم والتي ارتبطت بالعرب ضمن ثقافتهم الرامية إلى حماية أنفسهم من الغارات، فماذا سيستفيد الصيني من الأشهر الحرم والهدنة؟ وستجده يتحدث عن أمومة الرضاعة وأخوة الرضاعة، وهي ثقافة عربية حصرية، ولا توجد أمة في العالم تعتبر الأنثى التي ترضعك أماً لك سوى أمة العرب، فما الذي

سيستفيده الأسترالي من هذه الثقافة؟ كذلك الظهار وهي عادة عربية كانت منتشرة، وجاء القرآن ليمنعها ويحجمها، وكذلك تحريمه للشهر النسيء، وهو اختراع عربي خالص. كذلك تخصيصه الكثير من الآيات للحديث حول ملك اليمين، وهناك الكثير من الآيات تتحدث عن مشاكل العرب وعقائدهم، فهل العرب هم كل البشر؟ لماذا لا يتحدث عن آلهة الهنود الحمر والفرس والهنود والصينيين والأوروبيين؟ لماذا لم ينه الهنود عن عبادة براهما (إله الخلق) وفيشنو (إله الحماية) وشيفا (إله التدمير)؟ لأنه ببساطة نزل يخاطب العرب في شبه الجزيرة العربية، وهذا هو لب البحث.

والقضايا المهمة حول العالم التي لم يتطرق إليها القرآن كثيرة ومنها مثلاً الطبقات الاجتماعية في الهند، حيث كانت هناك طبقية صارمة بين الأفراد، وتوزيع للحقوق والواجبات على أساس الانتماء الطبقي. رغم أهمية هذه القضية في الهند لكن القرآن لم يتناولها لأنها لم تكن جزءًا من الحياة الاجتماعية في البيئة العربية في ذلك الوقت. فلم يكن هناك تقسيم طبقي مستمر يؤثر بشكل جوهري في التفاعل اليومي بين أفراد المجتمع العربي كما كان الحال في الهند، لذا كان القرآن مشغولًا أكثر بتقديم خطاب شامل يتعلق بمساواة الأفراد في الحقوق والواجبات على أساس التقوى والإيمان.

كذلك نجد أن التجارة والاقتصاد في الصين في ذلك العصر كانت تختلف تماماً عن تلك التي كانت في شبه الجزيرة العربية. على سبيل المثال، الصين كانت تمارس التجارة عبر طرق بحرية وبرية في الشرق الأقصى، وكان لديها بنية اقتصادية معقدة تشمل تبادلات ثقافية وتجارية واسعة، لكن القرآن لم يتناول هذه المسائل الاقتصادية بل ركز على المعاملات التي كانت أكثر صلة بالمجتمعات التجارية في الجزيرة العربية. فقد جاء القرآن ليحدد قوانين التجارة والربا فيما يخص العرب، في حين كانت الصين

قـد أسسـت لنظـام تجـاري مختلـف لم يكن القـرآن مطالبًـا بمخاطبته.

وأيضـاً، الممارسـات الدينيـة في أفريقيـا كـانت تحتـوي على طقـوس وعـادات دينيـة تختلـف عن تلـك في الجزيـرة العربيـة. فالأديان الأفريقية التقليدية كانت تتبع أشكالاً متعـددة من العبـادة تقوم على طقوس تختلف حسب كل قبيلة، وكان لكل منهـا آلهـة وأرواح خاصّة. ومع ذلك، لم يذكر القـرآن هـذه الآلهـة أو ينـه عن هـذه العبـادات، بـل كـان التركـيز منصـبًا على عبـادة اللـه وحـده وتوجيه المسلمين إلى توحيد العبادة وعدم الشرك به.

ومن الأدلة أو المؤشرات أيضـاً على محليـة الخطـاب القـرآني صـورة الجنـة ونعيمهـا في القـرآن، وهي صـورة لا تشـكل إغـراءً كبيراً لكافة الثقافات في العالم، وإنما تُسيل لعاب البدوي المقيم في صحراء شبه الجزيرة العربية تحديداً، وأجرؤ على القـول إنهم لو خيروا الناس بين جنة الخلد وبين أن يبقوا في الدنيا ويعيشـون حياة مرفهة فيها لربما اختاروا الدنيا، لأنه وبصراحة فـإن الصـورة المرسـومة في أذهـان النـاس عن الجنـة تبعث على الملـل، فمـا معنى أن تقضي يومـك جالسـاً في حديقـة تتنـاول الفواكـه ولحم الطير وتشرب العسل من الأنهار؟ ما فائدة كل هذا بدون سـيارة لامبرغيني تزمجر على الطريق السريع واتصـال سـريع بـالإنترنت واحتسـاء القهـوة البرازيليـة الشـهية مـع بـدايات الأمطـار أواخـر الخريف؟

ورود صـورة الجنـة بهـذا الشـكل في النص القـرآني يعـني أنـه يخـاطب قومـاً معيـنين بصـورة هم يحبونهـا ويحلمـون بهـا، وهـذا أقصى ما كان يتوق إليه القـوم أيـام البعثـة النبويـة فالانتقـال من معيشة الصـحراء القاحلـة إلى المـاء والخضـراء والوجـه الحسـن انتقال عظيم، لذا خاطبهم الله تعالى بما يميلـون إليـه، لكن هـذه الصورة لا تعـني شـيئاً لأهـل سويسـرا، فهم يعيشـون في خضـرة دائمة، تجري حولهم الأنهار، وتهطل عليهم الأمطار مدرارا.

كذلك من الدلائل على محلية الرسالة القرآنية في خطابها وإلزاميتها هو الواقع والمنطق، فلو بحثت في النص القرآني لكي تجد الدعوة إلى نشر الرسالة إلى كل العالم لما وجدت ذلك، فكيف لرسالة ينبغي أن يتم نشرها وتعميمها على العالم لا تجد فيها دعوات واضحة من الله تعالى يفرض فيها على المؤمنين نشر رسالته كي يتحقق الهدف في تعميم الرسالة على العالم؟ لو كان الهدف من رسالة الإسلام أن تكون رسالة عالمية فبالإضافة إلى كل ما ذكرناه في الأعلى ستجد القرآن مليئاً بالشواهد وهو يحث المسلمين على ضرورة نشر هذه الرسالة في البقاع المختلفة، لكن القرآن سكت عن كل هذا، ما يؤكد زعمنا أن هذه الرسالة محلية وليست عالمية ونزلت تخاطب قوماً بعينهم، وهذا – مجدداً – لا يعني أن نُحجم عن نشر ديننا وتوعية الشعوب الأخرى به، خاصة أنه الدين الخاتم وجاء تصحيحاً للقيم والأخلاق والمناهج السابقة، لكن هذا يمكن أن يتم طواعية لا إلزاماً وبدون الإحساس بالذنب والمسؤولية إن عجزنا عن تحقيقه، لأنه لو كان ذلك مُراد الله تعالى لوجدته واضحاً جلياً في كتابه في عشرات الآيات. كذلك فإن نشر دعوة الإسلام في العالم هي قضية يستحيل تحقيقها في ظل انشغال المسلمين بهمومهم ومعايشهم ووجود العوائق الكثيرة الجغرافية والسياسية والاجتماعية، والله تعالى يعلم كل هذا، وها نحن ومع قناعتنا التي بنيناها حول عالمية الرسالة ووجوب نشرها إلا أننا لم ننجح في أن نكون في المرتبة الأولى عالمياً من حيث عدد الأتباع إذ نحل ثانياً بعد المسيحية.

كذلك نلاحظ أن جميع الأنبياء المذكورين في القرآن ظهروا في منطقة الجزيرة العربية والعراق ومصر والشام، ولا يوجد أي ذكر لأنبياء هولندا واليونان والصين وموزمبيق.

وقد اكتفى القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78]، فلماذا لم يقصصهم

عليه؟ طالما أن رسالة القرآن رسـالة عالميـة فلمـاذا تم تسـليط الضوء على أنبياء المنطقة العربية فقـط؟ كـان ينبغي على الأقـل التطرق إلى أنبياء الأمم الأخرى ولـو بشـكل مختصـر جـداً، حـتى تستأنس هذه الأمم بأن القرآن –الـذي يـدّعي أتباعـه-أنـه رسـالة العالم قد أورد شيئاً بحقهم، وهـذا يضـعنا أمـام احتمـالين لا ثـالث لهما:

إمّا أن رسالة القرآن ليست موجهة إلى العالم بـأجمع أو أنـه لا يوجـد أنبيـاء في العـالم إلا في منطقـة شـبه الجزيـرة العربيـة وأطراف بادية الشام و-ربما- العراق ومصر، فكيف يسـتقيم ذلـك مع فكرة أن اللـه تعـالى لن يحاسـب قومـاً إلا بعـد إقامـة الحجـة عليهم من خلال إرسال الرسل؟ هل سيحاسـب اللـه تعـالى أبنـاء المنطقـة العربيـة ويـترك الصـين والهنـد والأميركـتين وأفريقيـا وأستراليا وروسيا بلا حساب؟

المنطق البسيط الذي نعرفـه يقـول إن اللـه تعـالى قـد أرسـل رسـلاً إلى كـل الأمم، لكن الأنبيـاء المـذكورين في القـرآن لم يتجاوزوا الشرق الأوسط، ففي جزيرة العرب هناك: هود، وصالح، وإسـماعيل، وشـعيب، ومحمـد، وفي العـراق: نـوح وإدريس وإبـراهيم ويـونس وذو الكفـل، وفي بلاد الشـام هنـاك: لـوط، وإسحاق، ويعقوب، وأيـوب، وداود، وسـليمان، وإليـاس، واليسـع، وزكريـا، ويحـيى، وعيسـى وفي مصـر كـان: يوسـف، وموسـى، وهارون.

هناك تعتيم كامل على أنبيـاء المنـاطق الجغرافيـة الأخـرى في العالم في القرآن الكريم، وذلك لسبب بسيط أن ذلك لا يعنينا ولا ينبغي أن نشغل أنفسنا به، فرسالتنا محلية وخطابهـا محلي وهـذا منطقي ومفهـوم، فقولـه تعـالى (ومنهم من لم نقصـص عليـك) بدون شـرح وتوضـيح الحكمـة من ذلـك يـدل على بداهـة السـبب ووضوحه وهو أن هذه الرسـالة الـتي بين يـديك يـا محمـد خاصـة بقومك فلا داعي لأن نقص عليك قصص أنبيـاء الأمم الأخـرى، ولا داعي لأن نسردها كحجة عليهم لأن حجتهم فيمن نزل عليهم هم، وليست في القرآن الكريم.

هذا هو المنطق البسيط الذي أفهم به هذه المسألة.

ولا شك أن هناك أنبياء لكل أمّة في العالم، بدليل قوله تعـالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْـطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47] ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36] ، وفي قوله تعـالى (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)، فهذه الآيات تؤكـد أن كـل الأمم جاءها أنبياء ورسل، والله تعالى أقام الحُجّة على عباده بإرسال الرسل، وهذا لم يكن حصراً لجزيرة العرب والعراق ومصـر وإنمـا يشـمل كل الأمم الأخرى. صحيح أنه كـانت هنـاك كثافـة سـكانية تاريخيـة قديمـة في هـذه المنـاطق لكن المنـاطق الأخـرى لم تكن تخلـو تمامـاً من السـكان، ووجب إرسـال الأنبيـاء إليهم لإقامـة الحجـة عليهم.

وهنا قد يسأل سائل وحق له أن يسأل فيقـول: لمـاذا لا نسـمع الآن وفي ظـــل انتشـــار وســـائل الإعلام والمعرفـــة عن أنبيـــاء المناطق الأخرى؟ لماذا لا يكون نبي الصين معروفاً مثلمـا نعـرف رجـال السياسـة والتـاريخ القـدماء عنـدهم ولمـاذا لم نسـمع عن أنبياء اليونان بينما نعرف فلاسفتهم بالاسم والصفة؟

الجواب يكمن في اللغة والثقافة، ففي اللغة ستجد أن النبي له مسمى آخر في الثقافات الأخرى لكن الدور المنـوط بـه متشـابه مع أنبيائنا.

ومن الناحية الثقافيـة سـتجد أن الاهتمـام المعاصـر في العـالم الغـربي بـالترويج لأنبيـاء مـا قبـل الميلاد قليـل جـداً وينحصـر في الجانب الأكاديمي فقط، فيما عدا الأنبياء الرئيسـيين وهم موسـى وعيسى ومحمد أصحاب الأديان السـماوية الثلاثـة، فالاهتمـام بهم عالمي.

في الثقافة اليونانية مثلاً، بحسب الموسوعة البريطانية[1]، هنـاك العرّافات أو النبيات (oracles)اللواتي كان الناس يقصدونهن من

[1] الموسوعة البريطانية، مادة العرّافات Oracle" *Encyclopaedia Britannica,*"

جميـــع الأنحـــاء لطلب النصـــيحة باعتبـــار أنهن كن يتلقين وحي السماء، فكانت الناس تحج إليهن من أماكن بعيدة لطـرح سـؤال وتلقي الجواب من الإله عن طريقهن، ومن أشـهرهن بايثيـا، نبيـة الإلـه أبولـو إلـه الشـمس، وفي الإمبراطوريـة الرومانيـة سـتجد الظاهرة نفسها بمسـمى النبيـات أو العرافـات (sibyls)، وفكـرة وجود نبيات أو عرافات في تلك الثقافة يعـزز فكـرة وجـود أنبيـاء أيضاً لكنهم وردوا تاريخياً بمسميات وألقاب أخرى على الأرجح.

بالمقابل فإن هناك من يشكك في وجود الأنبيـاء جميعـاً، سـواء أنبيـاء منطقتنـا، أو المنـاطق الأخـرى، حـتى أن البعض يـرى أن سيدنا محمد عليه السلام مجرد رمز ومقـام بـدون وجـود حقيقي فيزيائي، وهذا يرفضه المنطق.

فهل يمكن إثبات وجود الأنبياء آركيولوجياً – أي عن طريق علم الآثار؟، وهـو –كمـا نعلم- علم أكـاديمي شـبه يقيـني يفيـد بوجـود الشيء في زمن ما، لكننا عندما ننظر ونبحث في الآثار بما يصـل إلينا عبر مصادر المعرفة الـتي نسـتخدمها وهي وسـائل التواصـل الاجتماعي ووسـائل الإعلام لا نجـد آثـارا أو مقتنيـات تخص أنبيـاء اللـه تعـالى، فـأين هـو مُلـك سـليمان العظيم الـذي حكم العـالم القديم وصال وجال وأمر الجن أن يصـنعوا لـه التماثيـل (وتماثيـل كالجواب وقدور راسيات)؟ وأين نجد آثـاراً لسـيدنا يوسـف الـذي حكم مصر بقبضة من علمه وحكمته؟ وأين سـيدنا موسـى؟ وأين سـيدنا يعقـوب وأسـباطه ورحلاتهم وهجـراتهم...الخ؟ أننـا أمـام موقف تاريخي محرج يكاد أن يزلزل قناعاتنا بـديننا، فنضـطر إلى الـــتزام الصـــمت وعـــدم البحث في المســألة مكتفين بالإيمـــان العاطفي، ونتجنب حتى مجرد التفكـير في الأمـر وهـذه من أكـبر الشـبهات الـتي يتنمـر الملحـدون من خلالهـا على المؤمـنين، فلا وجود ظـاهر لهـؤلاء الأنبيـاء تثبتـه الاثـار، الـتي وثقت في الـوقت نفســه طريقــة تنــاول الفراعنــة لطعــامهم وأدق التفاصــيل عن الملـوك السـومريين، فهـل هنـاك إثبـات آركيولـوجي على وجـود شخص اسمه محمد عاش في منطقة اسمها مكة وكان يدعو إلى الايمان؟

قبـل الخـوض في الـدليل الآركيولـوجي لا بـد أن نقـف وقفـة قصـيرة لنفكـر بعقولنـا المجـردة ومنطقنـا البسـيط Common sense فإجمـــاع المـــؤرخين من كافـــة الخلفيـــات التاريخيـــة والسياسية والمصـالح المتشـابكة على وجـود هـذه الشخصـية، لا يجوز أن يمر مرور الكرام، فهو بحد ذاتـه دليـل قـائم على وجـود هذه الشخصية التاريخية وجوداً فيزيائياً حقيقياً، ولك أن تنظـر في آلاف الروايات التي تتحدث عن النبي وتصرفاته وعباداتـه وحياتـه وزوجاته وولادته ووفاته، هل يعقل أن تكون هذه التوليفة المعقدة من الروايات والقصـص مـؤامرة من إعـداد مجموعـة من النـاس من مناطق جغرافية مختلفة وثقافـات متباينـة ومتصـالح متضـادة اتفقوا على تأليف هذه الشخصـية وخلقهـا من العـدم؟ بعيـداً عن الإيمـان العـاطفي، نحن نتكلم هنـا من ناحيـة أكاديميـة، والعـرف الأكاديمي يؤكد اسـتحالة قيـام مثـل هـذا الـتزوير الضـخم لقضـية تاريخية ما، وهذا الأمر يمكن تطبيقه على مختلف القضايا.

خذ مثلاً مسألة التشـكيك في جغرافيـة الكعبـة وأن البـتراء هي مكـة الحقيقيـة الـتي أثارهـا بعض البـاحثين أمثـال دان جيبسـون الكنـدي، فالسـؤال الأول قبـل البحث في التفاصـيل هـو كيـف تم نقل مركز العبادة الرئيسـي من البـتراء إلى مكـة في فـترة عبـد الله بن الزبير –كما يقول جيبسـون في الفيـديو الشـهير لـه على موقع يوتيوب[1]- ولا نجد لـذلك صـدى أو أي وثيقـة أو تسـريب من أي نوع؟ كيف تآمر المسـلمون وغـير المسـلمين بكافـة أطيـافهم ومصالحهم وجغرافيتهم من شبه الجزيرة والعراق ومصـر واليمن والأندلس وبلاد الشام على إخفاء أمـر البـتراء هـذا وصـمتوا عنـه صمت الأموات حتى جاء جيبسون وفضحه؟ هذا لا يعقل.

[1] https://www.youtube.com/watch?v=uozietUble4

ولم يكن جيبسون في هذا بدعاً من القول فهناك مستشرقون كثر حاولوا الطعن في مركزية مكة التجارية وجغرافيتها ومن هؤلاء باتريشيا كرون التي شككت في حقيقة أن مكة كانت مركزاً تجارياً مهماً في كتابها (تجارة مكة وظهور الإسلام Meccan Trade and Rise of Islam)، إذ ترى أن الفرضية التقليدية التي تقول إن مكة كانت مدينة تجارية عظيمة تصدر التوابل والعطور والبضائع إلى الشام والبحر الأبيض المتوسط، لا تستند إلى أدلة تاريخية قوية، واستندت في ذلك إلى عدة أدلة منها غياب ذكر مكة في المصادر الجغرافية والتجارية القديمة، وموقع مكة الجغرافي الذي تعتبره غير ملائم ليكون نقطة على طريق تجاري دولي بين اليمن والشام، وكذلك غموض طبيعة المنتجات التجارية التي زُعم أنها صدّرتها، فتقول[1]: "بعد أن نسينا معظم ما كنا نعرفه عن تجارة مكة، هل نجد أنفسنا عاجزين عن تفسير نشوء الإسلام؟ إذا اعتبرنا أن التجارة هي العامل الحاسم وراء ظهور نبي في جزيرة العرب، وانتشار رسالته هناك، وفتح العرب للشرق الأوسط، فإن الجواب بالتأكيد هو نعم."

وكرون هنا لا تنفي نشأة الإسلام، كما قد يُفهم وإنما تنفي أن تكون تجارة مكة هي العامل الجوهري وراء ظهوره، فتقول إذا أزلنا "التجارة" من المعادلة، فإن الفرضية التقليدية تنهار، مما يفرض علينا البحث عن تفسير بديل لنشأة الإسلام، وبكلمات أخرى فهي تدعو إلى هدم النموذج التفسيري التقليدي وإعادة بناء تفسير جديد يعتمد على معطيات سياسية ودينية أوسع من مجرد النشاط التجاري.

---

[1] باتريشيا كرون، تجارة مكة وظهور الإسلام Meccan Trade and Rise of Islam ، الطبعة الأولى الصادرة عن Princeton University Press عام 1987 ص 231

وكذلك شككت بجغرافية مكة[1]:
"مكة كانت مكانًا قاحلًا، والأماكن القاحلة لا تكون محطات طبيعية للقوافل، خاصة عندما تكون هناك بيئات خضراء مشهورة بالقرب منها."

وهي هنا لا تقدم دليلًا قاطعًا على أن مكة لم تكن الموقع الجغرافي المعروف اليوم، إلا أن كتاباتها تلمح إلى ذلك في أكثر من موضع، مما يفتح المجال –بحسبها- لاحتمال أن تكون نشأة الإسلام قد حدثت في مكان آخر.

لكن هذا الطرح واجه نقدًا كبيرًا، وحتى كرون نفسها تراجعت لاحقًا عن بعض طرحها في هذا الكتاب وفي كتاب "الهاجريون Hagarism "(نسبة إلى هاجر)، وهو الكتاب الذي وضعته بالتعاون مع مايكل كوك في عام 1977،

بالمقابل نجد هناك من المستشرقين من دافع عن جغرافية مكة ففي كتابه "محمد في مكة Muhammad at Mecca" أكد ويليام مونتغمري وات على أن مكة كانت مركزًا تجاريًا استراتيجياً، مما يتناقض مع رؤية كرون التي تقلل من أهمية مكة كمركز تجاري:[2] *"على الرغم من الجغرافيا القاحلة المحيطة، كان موقع مكة على تقاطع طرق القوافل بين اليمن والشام يجعلها مركزًا تجاريًا طبيعيًا، يسهل التجارة والتبادل."*

وكذلك الأمر بالنسبة لفريد م. دونر في كتابه "*سرديات أصول الإسلام* "Narratives of Islamic Origins حيث يقول:[3]
"الموقع التقليدي لمكة مدعوم ليس فقط بالمصادر الإسلامية بل

---

[1] باتريشيا كرون، تجارة مكة وظهور الإسلام Meccan Trade and Rise of Islam ، الطبعة الأولى الصادرة عن Princeton University Press عام 1987 ص 231

[2] ويليام مونتغمري وات، *محمد في مكة* (Muhammad at Mecca)، ص 22

[3] فريد م. دونر، "*سرديات أصول الإسلام* "Narratives of Islamic Originsص 43

أيضًا بالمراجع غير الإسلامية المبكرة. رغم أن بعض الباحثين اقترحوا مواقع بديلة، فإن ثقل الأدلة يؤيد السرد التقليدي"، أي أنه يرفض الطروحات البديلة لعدم كفاية الأدلة.
وهذا ما يؤكده ف.إي. بيترز في كتابه "محمد وأصول الإسلام “ Muhammad and the Origins of Islamإذ يرى أن[1]: " *مركزية مكة في الإسلام المبكر ليست مجرد رمز؛ وإنما حقيقة تدعمها الأدلة الأثرية والنصوص باعتبارها مركزاً تجارياً نشطاً*."

وكما يقولون فـإن أي ادعـاء كبـير ينبغي أن يسـتند إلى برهـان كبير، وخاصة إن تعلـق الأمـر بالتشـكيك في مجمـل من مجملات التاريخ، فنفي مجمل تاريخي أمر في غاية الصعوبة، ووجـود مكـة في مكانها الحقيقي الذي نعرفه من هـذه المجملات، كـذلك فـإن وجود سيدنا محمد الفيزيائي الحقيقي والتاريخي هـو من مجملات التاريخ، بعيداً عن التفاصيل التي قد يطالها التحريـف، تمامـاً مثـل الحرب العالمية الأولى فلا يستطيع عاقل أن ينكر أنها قامت فعلاً، لكن من الممكن أن يتلاعب بتفاصيل هذه الحرب بما يتناسب مع مصالح الدول، فهذه الدولة تدّعي أنها أكرمت أسرى تلك الدولـة، وتلك الدولة تتهم الأولى بانها عذبت أسراها، وهكذا، أما أن نقـول إن الحرب العالمية الأولى لم تقع أصلا فهذا ضرب من العبث.

في كتابـه المعنـون (الوجـود التـاريخي للأنبيـاء وجـدل البحث الآركيولوجي) يسوق لنـا المؤلـف د. سـامي عـامري بعض الأدلـة على أن محمـد شخصـية حقيقيـة، ولكي نكـون منصـفين فالأدلـة ليست غزيرة وذلك يعود إلى أسباب ومنها عـدم اهتمـام الثقافـة الإسلامية بـالنحت والتصـوير لتجسـيد القـادة والأنبيـاء، خاصـة أن النبي حارب الأصنام وحطمها في فتح مكـة، كـذلك لم تكن الأمـة في زمن النبي أمة توثيق وكتابة.

---

[1] ف.إي. بيترز ، *محمد وأصول الإسلام*، ص 15

ومن هذه الأدلة التي ساقها عامري في كتابه ختم الخليفة عبد الملك بن مروان، ويعود إلى زمن حكم عبد الملك بن مروان 65 –ـ 86 هجري، فعلى جهة مكتوب كلمة "فلسطين" وعلى الجهة الأخرى مكتوب لا إله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله، وفي الوسط مكتوب (عبدالله عبدالملك أمير المؤمنين)، وهذا الختم موجود في متحف الآثار في إسطنبول، وهناك أيضاً قبر عباسة بنت جريج الذي اكتشفه الباحثون في أسوان وعليه تاريخ 14 ذو القعدة سنة 71 هجرية، ومكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم إن أعظم مصايب أهل الإسلام مصيبتهم بالنبي محمد –صلى الله عليه وسلم- هذا قبر عباسة ابنة جريج (؟) بن سد (؟) رحمت الله ومغفرته ورضوانه عليها، توفيت يوم الاثنين لأربع عشر خلون من ذي القعدة سنة احدة وسبعين وهي تشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم، وأيضاً دينار أموي للخليفة عبدالملك 72 هجري مكتوب عليه بسم الله لا اله الا الله محمد رسول الله، وهناك نقش إعادة بناء الحرم 78 هجري الذي تم اكتشافه في الطائف، وهو أول نقش يذكر المسجد الحرام، ومكتوب عليه (شهد الريان بن عبدالله انه لا اله الا الله، وشهد أن محمداً رسول الله...) وفي آخره مكتوب (كُتب هذا الكتاب عام بني المسجد الحرام لسنة ثمان وسبعين) والأمثلة على النقوش والعملات التي تم تدوين اسم النبي محمد عليها كثيرة، وهي دليل على تاريخية هذه الشخصية ووجودها الحقيقي وليس الرمزي.

ويذكر *توماس الكاهن*[1] في *Chronicle of 640* التي دوّنها حول سنة 640م، أن "*في الساعة التاسعة، يوم الجمعة 4 فبراير، جرت معركة بين الرومان وعرب محمد في فلسطين، على بعد اثني عشر ميلاً شرق غزة*"، وهو هنا يتحدث عن معركة اليرموك التي وقعت سنة 15 هجري (الموافق لسنة 636 ميلادية)، ومحمد مذكور هنا بالاسم في وثيقة معاصرة لبعثته، وفي وثيقة يونانية مكتوبة اثناء الغزو العربي لسوريا بين عامي 632 و 634

[1] آندرو بالمر، *The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles*، *ص 18-19*

ميلادية مكتوب أن (نبيا كاذباً ظهر بين الساراكينوسيين)[2] والساراكينوسيين لقب كان يطلق على العرب والمسلمين في العصور الأولى، وقد نلاحظ وجود صلبان على العملات الإسلامية الأولى، والسبب في ذلك أن الدولة الإسلامية كانت لها معاملات تجارية معقدة مع الأمم المجاورة، والاستغناء عن هذه العملات مرة واحدة فيه مخاطرة اقتصادية كبرى، لذلك تم التخلص من هذه العملات بالتدريج وعلى مراحل، فقد كانت الدولة الإسلامية محاطة بالدولة الفارسية والدولة البيزنطية، لذا حافظت العملة الإسلامية المبكرة على الشعارات الدينية للدولتين، فهناك مثلاً عملة نقدية تعود إلى فترة الإمام علي بن أبي طالب أو معاوية، مكتوب على جهة منها بسم الله بالعربية وبغير العربية (معاوية أمير المؤمنين)، وعلى الجهة الأخرى صورة النار المقدسة للفرس وحولها رجال يتعبدون.

والخلاصة أنه خلال فترة حياة النبي محمد (570-632 م)، لا سيما أثناء وجوده في مكة (610-622 م) والمدينة (622-632 م)، هناك أدلة قليلة على وجود أدبيات مكتوبة من مناطق أخرى تشير إليه أو إلى الحركة الإسلامية المبكرة بشكل مباشر، ومنها تعاليم يعقوب (634 م) التي كُتبت بعد وفاة النبي محمد بقليل، وتشير هذه النصوص المسيحية السريانية إلى ظهور "نبي" غير مسمى بين العرب، الذي يعلن أن أتباعه يجب أن يعبدوا الله الواحد ويعيشوا وفقًا لمبادئ معينة، ويعكس النص ردود الفعل المسيحية المبكرة تجاه صعود الإسلام، ولكنه لا يذكر محمد بالاسم.

فخارج الجزيرة العربية لا نكاد نجد كتباً من بلاد فارس تم إصدارها خلال فترة البعثة النبوية وذلك بسبب حواجز التواصل بين هذه الأمم، حيث كانت الأخبار تستغرق وقتاً طويلاً للوصول إلى بلاد فارس، ووقتاً أطول لاستيعاب تأثيرها وبالتالي الاهتمام بها وتوثيقها.

ولتوضيح وتلخيص ما سبق حول عالمية الرسالة نقول إن هذه القضية – أي محلية رسالة القرآن الرسالة ينبغي أن تُقرأ في

[2] د. سامي العامري، كتاب الوجود التاريخي للأنبياء – ص174

كتاب الله تعالى جُملةً، بمعنى أنها من الموضـوعات الـتي سـتجد في كتاب الله تعـالى مـا ينقضـها – إن أردت-وسـتجد مـا يعززهـا ويدعمها – إن أردت، وعليه فـإن الموضـوع في المقـام الأول هـو استشعار لجو القرآن الكـريم العـام، والـذي سـتحس بوضـوح لـو قرأتـه بحياديـة أنـه خطـاب محلي لقـوم معيـنين في زمن معين، حتى لو ناقضته ظاهرياً بعض الآيات مثل قوله تعالى (قُـل يـا أيهـا الناس إني رسول الله اليكم جميعا...). بالمقابـل علينـا أن نتـذكر دوماً صلاحية هذا الكتـاب العظيم لكـل البشـر، فهـو يحمـل قيمـاً وأخلاقـاً عامـة صـالحة للجميـع، لكنـه - كخطـاب يحمـل أحكاما وتشريعات وإلزامات- مُوجّه إلى قوم النبي تحديـداً، وقـد تناسـب أحكامه وتشريعاته الآخرين وقد لا تناسبهم وذلك بحسـب زمـانهم وثقافتهم وظروفهم، وهـذا الخطـاب القـرآني مُلـزم لقـوم النـبي تحديداً، وكذلك لكل من اختار هذا الدين طوعاً من بعد قوم النبي محمد، وهم نحن. إذن الأمر متعلق بالخطـاب والإلـزام، فـالقرآن مُلزم لمن نزل عليهم، وليس ملزمـاً للنصـارى واليهـود وأصـحاب الملل الأخرى ولو كان كذلك لوجـدت فيـه عشـرات الآيـات الـتي تدعو إلى نشـر هـذه الرسـالة وتعميمهـا على أهـل الأرض بصـفة تشريعية، أي لكان هذا واجباً صريحاً في القرآن، ونحن نعلم اليوم أن هذه مهمة مسـتحيلة التحقـق، فقـد خلقنـا اللـه أممـاً مختلفـة متباينة في لغاتها وثقافاتها وظروفها، ولو شـاء اللـه تعـالى لهـدى الناس أجمعين إلى سبيل واحد وجمعهم على كتاب واحد.

لقد ارسل الله تعالى نبيه لينذر أم القرى وما حولها وهذا واضح في صريح القران (لتنذر أم القرى وما حولها)، فالرسالة تنحصر في قوم النبي في مكة وما يحيطه من العرب، أما النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية فهم سيتبعون دينهم وملتهم ولا إلزام عليهم بتصديق النبي محمد، لكن في الوقت نفسه فإن القرآن مرجع لهم ان أرادوا تصحيح عقيدتهم فقد جاء مهيمناً على الرسالات السابقة ومصححاً لها، وهذا يعتمد على قدرة الفرد اليهودي أو النصراني في التحقق والبحث ويظل معلقاً بنيته وإرادته وقدراته الفردية، وعلمه

وحسابه ومصيره الأخروي على الله تعالى، كذلك فالقرآن ملزم لنا اليوم بحكم التبعية، فنحن اتبعنا آباءنا وأجدادنا على هذا الدين، والدين ملزم لمن اتبعه، ولو أراده الله عالمياً لجعله بلغة بسيطة واضحة ومباشرة بحيث لو ترجمناه لا يساء فهمه من جانب الأعاجم، بينما نجده في الواقع متشابهاً في كثير من حالاته، عميقاً جداً لا يكاد يدرك أسراره العرب فكيف بغير العرب؟ ولو أراد الله تعالى إلزام الناس جميعاً بهذه الرسالة، فإننا سنجد انعكاس ذلك في الكثير من الآيات التي تحضنا على نشر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لكننا لا نجد ذلك في القرآن الكريم، فكيف يمكن للقرآن أن يغفل عن هذا الأمر مع أنه شديد الأهمية؟ ولك أن تنظر في القضايا التي يعالجها القران فمعظمها قضايا محلية تخص البيئة المكية وما حولها: الظهار وملك اليمين والاضحية والنسيء واللعان ونسب الرضاعة..الخ، وكلها قضايا محلية خالصة، ولو فتشنا في ثقافات الشعوب المختلفة فسنجد الكثير من القضايا التي كان ينبغي على القرآن أن يغطيها بالشرح والتفصيل والحكم لو كان خطابه عالمياً، لكنه لم يفعل لأن خطابه محلي، فأين أجد في القرآن الأحكام المتعلقة بالطهارة بالنسبة لشعب الاسكيمو الذي يعيش معظم أيام السنة في جو بارد جليدي؟ أين أجد الأحكام المتعلقة بالصيد للهنود الحمر في أمريكا وكندا؟ إنك لن تجد ذلك ولن تجد في القرآن مفردات خاصة بالبيئات الأخرى مثل الثلج والجليد والفيضانات والملاحة النهرية والغابات، الخ. لأن الخطاب القرآني ببساطة خطاب محلي، وإن حمل في ثناياه قيما عالمية تصلح لكل زمان ومكان، فهذا لا يغير من طبيعة الخطاب والمستهدفين من الخطاب، وهذا لا يعني عدم دعوة الناس إلى هذا الدين، فالدعوة إلى ما ترى أنه حق لا يتناقض مع فكرة محلية الخطاب القرآني، ونرى في الواقع الكل يدعو إلى دينه، فها هم النصارى يعقدون الحملات التبشيرية في كل مكان، وذلك لإيمانهم بنشر ما يرون أنه الحقيقة، ونحن نؤمن أن ديننا صحيح والسعي إلى نشره من الفطرة، لكن تغول فكرة عالمية الرسالة في عقولنا ولّد لدينا

حسّاً من الوصاية على الآخرين. نريد أن ننقذهم من النار باعتبار ذلك مصيراً حتمياً لكل من لا يقول (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله)، وهذه الفكرة تحديداً (العقلية الوصائية) هي التي أفضت إلى التشدد والإرهاب، وسوء الفهم هذا أوقع الكثير من العلمانيين العرب في فهم خاطئ للإسلام نفسه فاتهموه بأنه رسالة تشدد وإقصاء حيث يقول علي حرب: "إن الإسلام في حد ذاته يؤول إلى التعصب والضيق والإلغاء والإرهاب."[1]

لكن الحقيقة إن أفهامنا وتصوراتنا عن الدين هي التي صنعت هذا التشدد فالقرآن الكريم نفسه لم يطلب منا أن نكون أوصياء على الاخرين، لكننا قررنا ذلك بناء على فهمنا أن رسالة القرآن عالمية وأن من لم يؤمن بها فهو كافر مخلد في النار، وينبغي نشرها وفرضها على الآخرين، وأما قوله تعالى ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]، فهذه لا تكفي لأن نجزم أن القرآن رسالة عالمية، فهي خطاب إلى النبي لينذر من حوله ومن بلغته هذه الرسالة بأي شكل كان، وهذا الكلام ينطبق على زمن النبي الكريم، وينطبق علينا اليوم، فلو علم أي فرد في هذا العالم الحقيقة وبلغته رسالة الإسلام بشكلها الصحيح، وتيقن أنها صحيحة لكنه كابر فهذا قد كفر، لأن الكفر هو تحريف الحق والتشبث بالباطل، وأما قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا..) فواضح من تركيبها (قل يا أيها الناس) والتي تقتضي وجود سامع وجمهور أنها تندرج ضمن الخطاب المحلي، ونحن نعرف أن كلمة (الناس) في (القرآن) لا تعني بالضرورة جميع الناس في العالم إلّا في حالات خاصة مثل (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) والسياق يحكمها، وأما قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15]،

[1] كتاب الممنوع والممتنع، علي حرب، ص78، المركز الثقافي العربي، 1995

فهذا خطاب لأهل الكتاب كي يتبينوا الحق، ولا علاقة له بخطاب وإلزامية القرآن الكريم، وهو خطاب لأهل الكتاب في زمن النبي وخطاب لهم في كل زمان ومكان فهم مدعوون لتبين الحق والتعرف عليه من خلال القرآن الكريم، لكن هذا لا علاقة له بموضوعنا المتعلق بمحلية الخطاب القرآني، فالقرآن الكريم نزل يخاطب قوم محمد ومن حوله من القرى كخطاب إلزامي تشريعي مباشر، وليخاطب كل العالم بخطاب بشكل غير مباشر ليخبرهم أن الحق هنا في هذا القرآن ومن عرف الحق وانحرف عنه عامداً قاصداً فقد وقع في إثم عظيم، وقد يستشهد البعض بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ* وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] للتدليل على سياق التوبيخ، توبيخ لكفار مكة العرب، لأنه نزل بلغتهم فهذا نتفق فيه من ناحية المبدأ، لكن ألا تلاحظ معي تسليط الضوء في هذه الآية على أهمية اللغة في نقل الرسالات (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين)، ولاحظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]، صحيح أن السياق سياق توبيخ، لكنه أيضاً سياق امتنان إلهي بأن أنزل عليهم الكتاب بلغتهم، وهذا الامتنان إقرار إلهي –وإن بطريقة غير مباشرة- في أن ما هو مطلوب من العربي ابن البيئة التي نزل فيها القرآن يختلف عما هو مطلوب من غير العربي حيال القرآن الكريم، فكيف ستلزمهم بالحجة نفسها التي تلزمنا بمجرد ترجمة القرآن لهم؟ هل الترجمة تفي القرآن حقه؟ وهل القرآن أصلاً قابل للترجمة؟ أم أن فهم المترجم واتجاهه الديني والأيديولوجي هو الذي سيحدد طريقة الترجمة؟، والآية صريحة في حل هذا الإشكال: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالرسالة –أي رسالة- حُجّة على من نزلت الرسالة عليهم بلسانهم، والقرآن ليس استثناءً في هذا فهو حجة على من نزل عليهم وليس حجة

على أهل الفلبين وسيبيريا، وعليه نقول إن رسالة القرآن نزلت موجهة إلى قوم معينين وهذا هو مراد الله، ولا مانع من نشره ودعوة الناس إليه لكن الأمم الأخرى ليست ملزمة به، وإنما ملزمة بما تعلمته ونزل عليها من رسالات، فلكل أمة من الأمم شرعة ومنهاج يتبعونه ويحاسبون عليه يوم القيامة ولا يجوز لنا أن نقرر مصائر الناس، وسيحاسب الله الناس فُرادى بناء على فهمهم وقناعاتهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)، ولن يعاقب الله تعالى صياد سمك في سيبيريا لأنه لم يطلع على ترجمة القرآن ويتبع ما فيه، وإنما سيحاسبه على إيمانه بالله وما قدم من عمل صالح في هذه الحياة.

3. من هم (يا أيها الذين آمنوا):

أينما نجد (يا أيها الذين آمنوا) في كتاب الله تعالى فهي خاصة بقوم النبي عليه السلام الذين عاصروه، ولك أن تقرأ الآيات بدقة مرتين: في المرة الأولى جربها باعتبار أن الذين آمنوا هم نحن في كل زمان ومكان، وفي المرة الثانية أنها خاصة بقوم النبي الذين عاصروه، وستلاحظ بجلاء أنك في المرة الأولى اضطربت ولم تنسجم كثير من الآيات مع الواقع المعاصر، وفي المرة الثانية ستجدها متزنة ومنسجمة بشكل واضح.

ولنأخذ بعض الأمثلة:

1. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]
2. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 11]

3. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: 101]
4. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28]
5. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53]
6. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]
7. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 33]
8. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12]
9. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10]
10. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70]

11. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]

12. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12]

13. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: 14]

14. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]

15. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]

16. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18]

17. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

18. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]

اخترت لكم أعلاه 18 آية تبدأ بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا)، وسيلاحظ جميعكم أن الآيات التسعة الأولى فيها خصوصية ولا تصلح أن تكون عامة لنا جميعاً، ومن الواضح أنها موجهة إلى قوم النبي تحديداً، فمثلاً في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) لن يقول عاقل أن هذه الآية عامة، وأنها تنطبق علينا اليوم، فلو أردت تطبيقها بصراحة فلا أدري كيف أقدم بين نجواي صدقة عندما أناجي الرسول، وأين

هو الرسول أصلاً حتى أناجيه؟ وفي قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه....) فمن الواضح أن هذه الآية لا تنطبق اليوم، فأين هو النبي الكريم اليوم وأين هو طعامه؟ والأمثلة كثيرة.

أما التسع آيات التي بعدها فقد حملت مدلولات وإرشادات عامة، ومن الصعب أن نجزم أن الخطاب فيها لقوم النبي محمد، فمن أين استنبطتُ أنا أن (يا أيها الذين آمنوا) تخاطب قوم النبي محمد عليه السلام أيضاً في هذه الآيات ومثيلاتها؟ هناك سببان رئيسان يقفان وراء زعمي هذا: السبب الأول: السياق، والسياق هو الحاكم أو كما يقولون بالإنجليزية Context is king ولو نظرت إلى الآية التي تبدأ بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) فحتى لو كان الحديث فيها عاماً، إلا أن السياق فيها خاص. مثلاً انظر إلى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) وهذه الآية معناها عام لكن انظر إلى سياقها فالآيتان اللتان سبقتاها هما (وإن احكم بينهم بما انزل الله...) أي يا محمد احكم بينهم بما أنزل الله، ثم الآية (أفحكم الجاهلية يبغون....) وبعدها جاء قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء...) إذن من الواضح أن الخطاب فيها خاص وموجه إلى قوم النبي محمد عليه السلام:

"وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ".

ولك أن تأخذ وقتك الكافي وتتدبر الآيات والسياقات وتنظر فيها لتلاحظ هذا الملحظ. السبب الثاني: هو الاتساق القرآني، فالله تعالى جعل هذا القرآن العظيم متسقاً لا اختلاف فيه، وهذا مصداق قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)، لذلك لا يعقل أن تكون (يا أيها الذين آمنوا) موجهة مرات إلى قوم النبي ومرات أخرى إلى كل المؤمنين بالرسالة المحمدية على مر الأزمان، وبما أنها ثابتة وواضحة في التسع آيات الأولى (أعلاه) أنها خاصة بقوم النبي فهذا ينسحب ويندرج وينطبق على كافة آيات الكتاب العظيم، إذ لا يعقل أن يضعنا الله تعالى في حالة من التيه فنعجز عن دراسة القرآن باتساق، فمرة يقصد قوم النبي، ومرة أخرى يقصد أهل الأرض جميعاً، وسيقول قائل هنا لكن الله تعالى ذكر كلمة (الناس) وأراد بها كل الناس حيناً، وجماعة من الناس حيناً آخر، والجواب على هذا بسيط، وهو أن مفردة (الناس) هي مجرد مفردة وليست تعبيراً بجملة أو شبه جملة تتضمن نداءً مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) فمفردة الناس في اللغة السائدة التي نعرفها جميعاً قد تعني جميع الناس وقد تعني مجموعة من الناس بحسب سياقاتها، وهذا ينطبق على القرآن، لذلك فقوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) من الواضح أنها تشمل الناس جميعاً، وقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) تشمل جماعة من البشر فقط.

هذا فيما يتعلق بالجزء الأول من الطرح وهو محاولتنا إثبات أن قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) تخص قوم النبي الكريم، والآن نأتي إلى السؤال الثاني: هل الخطاب (يا أيها الذين آمنوا) ملزم لنا اليوم؟ كما نلاحظ ففي الأمثلة التسعة الأولى ومثيلها في القرآن فنحن أمام آيات خاصة جداً ومحلية ولا تصلح في تطبيقها إلا في حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعليه فمن الاستحالة تطبيقها اليوم، وأما الآيات التسعة المتبقية فهي وإن كانت عامة في ألفاظها إلا أن سياقها يحكمها ويربطها مجدداً بقوم النبي الكريم وهي طبعاً إرشادات وقيم تصلح لكل زمان

ومكان ولكل من وعى وأدرك وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسـول اللـه، ولكن المعـني فيهـا في المقـام الأول هم حملـة الرسالة ونواة الإسلام الأول وهم الصحابة الكرام.

أما لماذا وضعتُ الآية رقم (7) وهي (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللـه وأطيعـوا الرسـول ولا تبطلـوا أعمـالكم) ضـمن المجموعـة الأولى من الأمثلة، فهذا لأنني مقتنع أن الطاعة لا تكـون إلا لحي، فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول...) هي رسالة خاصة إلى قومه لطاعة الرسـول كـولي أمـر ورسـول متفاعل مع القرآن وعلى قومه إطاعـة القـانون الـذي يسـنه لهم في حياته، أما بعد وفاته فإننـا نتبـع هديـه مـا اسـتطعنا، من خلال القرآن الكريم – الرسول الذي لا يمـوت. ولـو تتبعنـا الطاعـة في كتاب الله تعالى لوجدنا أنها اقترنت بامتثال أوامر الشـخص الحي ولا طاعة لميت، فنقول في لغتنا العادية أطع معلمك، أطع أبـاك، أطـع أمـك، ولكن لا يعقـل أن نقـول (أطـع جـدّك) المُتـوفى منـذ خمسين عاماً، وهذا الأمر يؤكده القرآن بشـكل واضـح في الكثـير من المواطن، وانظر قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ قَـالَ لَهُمْ هَـارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَـا فُتِنْتُمْ بِـهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الـرَّحْمَنُ فَـاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُـوا أَمْرِي﴾ [طه: 90]، فهذا هارون حي ويطلب من قومه أن يطيعـوا أمره، وكذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَـدُوا لَـوْ أَطَاعُونَـا مَـا قُتِلُـوا قُـلْ فَـادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِـكُمُ الْمَـوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ﴾ [آل عمـران: 168]، فهـذه طاعـة لإخـوانهم الأحيـاء، وكذلك في قولـه تعـالى: ﴿فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54]، والحـديث هنـا عن قـوم فرعـون الذين أطاعوه في حياته بعدما استخفهم، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْـرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 81]، والحديث هنا عن طاعـة آنيـة معاصـرة لشخص حي هو شـخص النـبي الكـريم، ولـك أن تنظـر أيضـاً في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُـزِّلَتْ سُـورَةٌ فَـإِذَا أُنْـزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِـرَ فِيهَـا الْقِتَـالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ [محمد: 20]، والحديث هنا عن المنافقين فهم يؤكدون الطاعة بقولهم نحن مستعدون للقتال، لكنهم عند القتال ينسحبون، والطاعة هنا هي لشخص سيدنا محمد في حياته باعتباره رسولاً وقائداً للجيش. هذه كل الآيات في كتاب الله تعالى التي تتحدث عن الطاعة بالإضافة طبعاً إلى آيات طاعة الله والرسول، والله تعالى حي لا يموت وطاعته واجبة من خلال كتابه العظيم، أما طاعة الرسول فكما أسلفنا اقترنت بطاعته حياً في الأوامر والقوانين التي كان يضعها لتسيير شؤون دولة الإسلام الأولى.

ونعاود التأكيد على أنه في حال تضمنت الآية حكماً أو قيمة عامة فهي تشملنا بالهدي والإرشاد لأننا اخترنا التبعية لهذه الملة، ومن اختار دين محمد فعليه الالتزام بقيم وأحكام هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وإن كانت الآية تتحدث عن حدث محدد أو مشكلة وقعت وقت البعثة فهي ملزمة لقوم النبي فقط، ومثال ذلك قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الحجرات: 2]، فهذه لا يقول عاقل إنها ملزمة لنا بأي حال من الأحوال. لكن الخطاب لغوياً في الحالتين –سواء حمل نصيحة عامة أو توجيهاً خاصاً- فهو موجه بشكل مباشر إلى قوم النبي تحديداً، وقولنا بأننا له خاضعون وبأمره مؤتمرون لا ينفي محلية الخطاب، ولا خلاف أن طاعة الرسول واجبة على من عاصروه، لكننا سنختلف على وجوب طاعته بعد وفاته، فإن كانت طاعته بعد وفاته ملزمة وأن ما كان يصدر عنه تشريعات ملزمة أبدية موازية لكتاب الله تعالى فهذا يعني أن علينا ان نتحرى ونبحث بدقة متناهية عن آثاره الصحيحة ونتعبد الله تعالى بها، وهذا كما لا يخفى على أحد صار أمراً شديد الصعوبة والتعقيد لتضارب كتب الحديث فيما بينها ولما تحمله من أبعاد ظنية الثبوت لأنها بمجملها احاديث آحاد، ولما نراه في الواقع الحالي من تحقيق المحققين وإسقاط أحاديث من درجة الصحيح إلى دركة الضعيف، والعكس صحيح،

والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يأمر بأمر غائم تائه ويتركه لذمة الرجال والتاريخ والسياسة.

وهناك ملحظ آخر طريف قد يساند طرحنا هذا وهو أن (يا أيهـا الـذين آمنـوا) قـد وردت حصـراً في السـور المدنيـة فقـط، حيث وردت في سـور البقـرة وآل عمـران والنسـاء والمائـدة والأنفـال والنـور والحج والأحـزاب ومحمـد والحجـرات والحديـد والمجادلـة والحشـر والممتحنـة والصـف والجمعـة والمنـافقون والتغـابن والتحريم، وكلها بلا استثناء سور مدنيـة، ولم تـرد عبـارة (يـا أيهـا الذين آمنوا) في سورة مكية مطلقـاً (بحسـب علمي) فمـا معـنى هذ الكلام وما دلالته؟

هذا تأكيد لمحليـة الخطـاب فخطـاب يـا أيهـا الـذين آمنـوا كمـا أسـلفنا خطـاب خـاص لقـوم النـبي الكـريم وهـؤلاء تشـكلوا من المهاجرين والأنصار، فأمـا المهـاجرون فقـد كـانت الهجـرة محـل تمحيص إيمانهم واستحقاقهم للمسمى وأما الأنصار فدخولهم في الإسلام عن قـوة وهم في بيـوتهم معـززين مكـرمين أنـالهم هـذا الاستحقاق أيضاً.

كذلك حتى لو قال قائل إن الخطاب التشريعي بـدأ في العصـر المدني ولهـذا وردت (يـا أيهـا الـذين آمنـوا) في السـور المدنيـة، نقول له نعم هذا صحيح أيضاً، وهذا يعـزز فكـرة أن الخطـاب في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) خطاب محلي وليس عالمي، فلـو كان هذا الخطاب عالمياً لوجدته منتشـراً في كافـة مسـاحة النص القرآني بسوره المكيّةُ والمدنيّةُ.

وسنلاحظ بشكل عام أن الخطاب في القرآن يأتي ضمن ثلاثة نطاقات:

1. خاص موجه إلى قوم النبي أو
2. خاص موجه إلى قوم سابقين وتحديداً بني إسرائيل أو
3. خاص موجه إلى قوم النبي لكنه عام ويصلح لكل من يقرأه.

لكنك لن تجد أبداً في كتاب الله تعالى خطابا خاصا موجها إلينـا تحديـداً في القـرن الحـادي والعشـرين. لن تجـد في كتـاب اللـه تعالى أي آية مُخصصة لنا اليوم بصيغة مشابهة ل(هدى لكم ولمن

بعدكم...) مثلاً، وهذا من الأدلة الداعمة لفكرة محلية ووقتية الخطاب.

ولدراسة ذلك بعمق أكثر يمكننا تناول العديد من الأمثلة التي تتضمن المفردات (منكم، إليكم، عنكم، عليكم، أنتم....).

انظر قوله تعالى :

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]، و ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49]، و ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، و

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 52]، و ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]

وغيرها الكثير من الآيات والتي سنلاحظ أنها موجهة تحديداً إلى بني إسرائيل، وسنلاحظ أيضاً أن جميع الخطابات الموجهة إلى بني إسرائيل تبتدأ في أولها ب (يا بني إسرائيل..) وذلك لأن القرآن نزل بخطاب أساسي وهو قوم النبي والاستثناء هو بنو إسرائيل فوجب التنبيه إلى أن الخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل تحديداً وليس إلى قوم النبي وما على قوم النبي سوى أخذ العبرة والتعلم منه وعدم الوقوع في الأخطاء نفسها، وكذلك فهو رسالة إلى اليهود المقيمين في الجزيرة العربية ليتعظوا.

وعلينا في هذا المقام أن نتعرف على من هم بنو إسرائيل فهناك من يقول إن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وهناك من اختار طريقا آخر فانتهى إلى أن يعقوب هو شخص آخر، وممن سلكوا هذا الطريق وضعوا احتمالين: (1) إسرائيل هو ابن آدم الذي قتل أخاه، و(2) إسرائيل رجل صالح ممن كان مع نوح في السفينة.

فما هي الحقيقة يا ترى؟

نحن نعلم أن سيدنا يعقوب أنجب 12 ولداً، منهم عشرة من زوجاته وهم روبين، وشمعون، ولاوي، ويهودا، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشير، وإساتشر، واثنان من زوجته راحيل هما (سيدنا يوسف وبنيامين)، وهما الأصغر سناً، بالإضافة إلى بنت اسمها (دينا).

ألا ترى في ذلك علاقة بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]؟

وهنا يبرز سؤال: ما علاقة سيدنا موسى أصلاً بيعقوب وهناك فارق زمني يقدر بـــ 400 سنة بينهما؟

لاحظ أن سيدنا موسى عندما استسقاه قومه ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا، لكي تشرب منه أمم بني إسرائيل الاثنتي عشر، فكل أمة أو مجموعة كان لهم مشربهم من هذه العين (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما)

أي أن بني إسرائيل كانوا 12 أمة (مجموعة) والأمة كما نعلم هي المجموعة من البشر التي تتبع إماماً لها، وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يكونوا على قلب رجل واحد، وانما كل أمة من هذه الأمم كانت تتبع إماما (نبياً) لها، وكذلك وصفهم الله تعالى بالأسباط، والسبط هو الحفيد، فأحفاد من كان هؤلاء؟

وهل الرقم 12 (يعقوب أنجب 12 ولداً) وسيدنا موسى خرج من مصر بـ (12 أمة من بني إسرائيل)، مجرد مصادفة؟

في الحقيقة فإن أبناء يعقوب الاثني عشر هم الاسباط الذين تناسل منهم بنو إسرائيل، ويعقوب هو جدهم الأكبر. هكذا بكل بساطة، فلو تتبعت لفظة (الأسباط) في مواقعها في القران الكريم لوجدتها مقترنة جميعها بسيدنا يعقوب:

- ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى

وَمَــا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَــرِّقُ بَيْنَ أَحَــدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَــهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]
- ﴿أَمْ تَقُولُــونَ إِنَّ إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــمَاعِيلَ وَإِسْــحَاقَ وَيَعْقُــوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـارَى قُـلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَـهَادَةً عِنْـدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَـا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ﴾ [البقرة: 140]
- ﴿قُـلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَيْنَـا وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَـى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ كَمَـا أَوْحَيْنَـا إلى نُـوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَوْحَيْنَـا إلى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَالْأَسْـبَاطِ وَعِيسَـى وَأَيُّوبَ وَيُـونُسَ وَهَـارُونَ وَسُـلَيْمَانَ وَآتَيْنَـا دَاوُودَ زَبُـورًا﴾ [النساء: 163]

نلاحظ في الآيات الأربع تكرار (يعقوب والأسباط...) وهذا يعني ان هؤلاء الاسباط كانوا أنبياء لبـني إسـرائيل في الفـترة الزمنيـة الواقعة بين سيدنا يعقوب وسيدنا موسى.

وفي تحليل التوراة لاسم يعقوب قالوا إنه عند الولادة جـاء إلى الدنيا وهو ممسكٌ بإحكام بعقب أخيه التوأم (عيسو)، ولذا سـمي (يعقـوب *Yaʿaqōv* יעקב) وهي مشـتقة من العقب *ʿaqev* עָקֵב أو heel بالإنجليزية، لكن على ما يبدو فإن الأمر أعمـق من هـذا، فيعقوب هو الذي أعقب هؤلاء الاسباط الذين تناسلوا فكان منهم بنو إسرائيل.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَــالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّــلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَــاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُـوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ فَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12]

ومن قال ان إسرائيل هو الذي حُمل مـع نـوح فـإن الـرد عليـه بسيط، وهو قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]

نلاحظ ورود (ممن حملنا مع نوح) مع (إسرائيل) في نفس الآية وهذا ينفي ان إسرائيل كان ممن حملوا مع نوح.

أما من قال بان إسرائيل هو ابن آدم (قابيل) الذي قتل أخاه، فقد استند إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32]، والتي أعقبت الآية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31]

يعني قصة ابن آدم وقتله لأخيه، ثم قال تعالى في الآية التي تليها مباشرة (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل....).

والحقيقة ان هذا التتابع بين الآيتين لا يستلزم بالضرورة أن يكون إسرائيل هو (قابيل) فقابيل كان من الخاسرين، والقران يقول (أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل....)

فكيف يكون هو ممن أنعم الله عليهم وفي الوقت نفسه (من الخاسرين)؟ كذلك لاحظ الترتيب في الآية السابقة: آدم، ممن حملنا مع نوح، ذرية إبراهيم، إسرائيل... فكيف سيكون هو قابيل؟

اعتقد انكم وصلتم الان إلى استنباط أو اقتناع أن إسرائيل هو نفسه سيدنا يعقوب عليه السلام، وهذا ما تؤكده التوراة أيضاً فيعقوب في التوراة هو إسرائيل نفسه، ومع رفضنا القاطع للقصة التوراتية التي تقول إن يعقوب صارع الرب فتغلب عليه فسماه إسرائيل، إلّا أننا نأخذ فقط ما يؤكد ويتوافق مع القرآن الكريم وينسجم مع الآيات.

لكن يدور في أذهانكم سؤال وهو طالما هو نفسه فلماذا اختـار الله له اسمين بدلاً من اسم واحد (إسرائيل، يعقوب)؟

الراجح عندي أن إسرائيل هو لقب لسيدنا يعقوب بينما يعقـوب هو الاسم العلم، تمامـاً مثـل عيسـى والمسـيح وابن مـريم وكلهـا تشير إلى سيدنا عيسى.

ومن الأمثلة الأخرى للخطاب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122]، و ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]، و ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]، و ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]، و ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11]، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155]

سنلاحظ بوضـوح أن الخطـاب في الآيـات السـابقة موجـه إلى قوم النبي تحديـداً، ليس هـذا فحسـب وإنمـا لا تنطبـق علينـا في حياتنا العملية اليـوم فهي متعلقـة بقصـة وواقعـة تاريخيـة معينـة. صحيح أنها تتضمن حكمة عامة تصلح لكل زمان ومكـان ويُسـتفاد

منها في كل وقت وآن لكنها ومن سياقاتها وخطابها محلية، وحتى في التشريع ستجد الكثير من التشريعات المحلية، انظـر مثلاً في قولـه تعـالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: 25]، فهـذه الآيـة محليـة ليس في خطابها فقط وإنما في حكمها الشرعي فملك اليمين هي ظـاهرة كانت منتشـرة في الجاهليـة وصـدر الإسـلام، والآن لا وجـود لهـا، لذلك سنجد أن مصطلح (ملك اليمين) غائم اليـوم والخلاف عليـه محتدم، لسبب بسيط هي أنها ليست ظاهرة قائمة اليـوم، فمـاذا يفعل الشـاب ابن القـرن الحـادي والعشـرين حيـال قولـه تعـالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصـنات المؤمنـات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنت..) هل معناها أن يلجأ إلى خادمته في المنزل ويتخذها بمثابة الزوجة؟، هـذا غـير واقعي، ولا ننسى أن من يملك القدرة المادية في هذه الأيـام لتوفـير خادمـة في منزلـه فهـو قـادر على الـزواج أساسـاً – أقصـد من الناحيـة المادية، وبالتالي تنتفي العلة المذكورة في الآية (ومن لم يستطع منكم طولاً..)، فـالطول هـو الفضـل، لقولـه تعـالى (ذي الطـول) ويقال تطـاول للشـيء أي تناولـه، وأصـلها من الطـول الـذي هـو خلاف القِصَر، لأنه إذا كان طويلاً ففي ذلك كمـال وزيـادة، وعليـه يكـون معـنى (ومن لم يسـتطع منكم طـولاً..) أي لم يكن عنـده التفضـل المـادي والزيـادة. فكيـف أطبـق هـذه الآيـة في حيـاتي اليوم؟

وانظـر أيضـاً إلى قولـه تعـالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15]، فالملاحـظ هنـا أن الخطـاب محلي غـير أن الحكم

الشرعي يمكن أن يكون عاماً، لكن لو حاولنا تطبيق هذا الحكم الشرعي بحسب الفهم السائد للآية وهو استدعاء أربعة رجال شهدوا واقعة الزنا فإننا سنجد أن ذلك مستحيل عملياً، فلا توجد واقعة زنا يمكن أن يشهدها أربعة رجال إلا نادراً جداً، وهذا يقودنا إلى البحث مجدداً في الآية لنفهمهما بشكل دقيق، فالله تعالى لا يمكن أن يأمر بحكم يستحيل تطبيقه في الواقع، وهذا الذي قاد المفسرين للقول إن الشرط التعجيزي هنا وهو وجود أربعة رجال يهدف إلى تحقيق الستر بالأساس، لكنني أفهم القرآن من زاوية أخرى وهي أنه نص واقعي ولا يمكن أن يضع شرطاً مستحيل التحقق، ولو كان يهدف أساساً إلى الستر على الواقعة لطالب الزوج مباشرة بالستر على الواقعة، لذلك فمعنى الآية ربما يكون في الفاحشة العلنية وهي فاحشة دون الزنا كالتبذل واللباس الفاحش والجلوس مع الرجال في وضعيات مُخلّة في أماكن مشبوهة مثلاً، وربما يُقصد منه استشهاد أربعة على من اعترفت بوقوع الفاحشة فيشهدون على الاعتراف نفسه لا على مشاهدتهم للواقعة.

وانظر أيضاً قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]، حيث يتضح محلية الخطاب هنا بما تحمله الآية من مفردات محلية تتضمن الهدي والقلائد والصد عن المسجد الحرام، فهي مرتبطة بظروف كانت سائدة وقت البعثة النبوية.

ومن الأدلة كذلك على محلية ووقتية وتاريخية الخطاب القرآني الآية التالية: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]، فلو سألنا السؤال البديهي: هذه الأشهر معلومات

لمن؟ لكـان الجـواب أنهـا معلومـات لأهـل مكـة، وهـذا يعـني أن الخطـاب نـزل موجهـاً إلى أهـل مكـة، ولا يعنيـه أن يعـرف أهـل تشيلي والكاميرون هذه الأشـهر، وسـيقول قائـل لكن بيـان هـذه الأشهر معلوم بالسُنّة فما أجمله القرآن فصلته السُنّة، لكن يظـل السـؤال قائمـاً، لمـاذا وردت الآيـة بهـذه الصـيغة (الحج أشـهر معلومات..)، ألا توحي الآية بأن الخطاب موجه إلى قوم يعرفـون أصلاً هذه الأشهر وأن هـذه الأشـهر (أوقـات الحج) كـانت سـائدة ومعروفة حتى قبل البعثة النبوية، وعندما جاء الإسلام أقرهـا على ما هي عليه ولم يغير فيها شيئاً؟

من الواضح أن الخطاب هنا مع أنه نزل تبياناً لكل شـيء، كفى نفسه مؤونة التوضيح لأن من نزل عليهم يخاطبهم يعرفـون هـذه المعلومة، ولا يعنيه أن يعرف ذلك أهل الكـاميرون، ولـو أراد أحـد مسلمي تشيلي أن يعرف ما هي هذه الأشـهر المعلومـات فعليـه أن يفتح أحد كتب التفسير ليقرأ ما قاله أهل مكة عنها.

والأمر نفسه ينطبق على الآية: ﴿لِيَشْـهَدُوا مَنَـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَـاتٍ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَـةِ الْأَنْعَـامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: 28]، فأهـل مكـة هم من يعلمون ما هي هذه الأيام المعلومات.

4. الآبائية:

يدعو القرآن أتباعـه إلى التفكـير الحـر الناقـد، ويشـجعهم على ذلـك بسـرد قصـص السـابقين لكي نأخـذ منهـا العـبرة والـدرس، فالتحدي الأكبر الذي كان يواجه الأنبياء السابقين هو كيفيـة إقنـاع

أممهم بالتوقف عن تقديس الآباء واعتبارهم مرجعية، وانظر قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]،

ولنا أن نتلمس الحكمة في اختيار الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم ليكون إماماً للأنبياء والبشر؟ هذه المكانة العظيمة التي نالها سيدنا إبراهيم لا شك أن وراءها سراً عظيماً فالجميع مطالب باتباع ملة إبراهيم حتى خاتم النبيين سيدنا محمد، ولو عدنا إلى القرآن الكريم لمعرفة السر في ذلك فإننا لن نجد سوى مجموعة من القصص البسيطة عن أبي الأنبياء والتي لا تساعد – للوهلة الأولى – على تشكيل انطباع دقيق عن هذا النبي العظيم.

خذ مثلاً سيدنا موسى الذي روى القرآن قصته من البداية إلى النهاية: ولادته وإقامته في بيت فرعون وقصة وكزه للرجل وهروبه ولجوئه إلى مدين وزواجه ولقائه بربه وعودته مرة أخرى إلى فرعون ومواجهته، وخروجه بقومه...الخ. هناك عشرات التفاصيل التي يمكن من خلالها معرفة شخصية سيدنا موسى.

لكن قصص سيدنا إبراهيم محدودة: تكسيره للأصنام، رميه في النار، محاولة التضحية بابنه إرضاء لربه، وتفكره وتأمله في الكون، وحواره مع ربه حول كيفية الخلق "قال رب أرني كيف تحيي الموتى"، وبناؤه للكعبة وإسكانه لذريته في وادي مكة.

عندما كان سيدنا إبراهيم شاباً صغيراً لم يكن له قيمة كبيرة في المجتمع الذي يعيش فيه، فهو ليس من أسياد القوم (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) أي أنهم لم يعرفوا اسمه، بمعنى أنه كان يعيش على هامش المجتمع آنذاك، ربما لصغر سنه وربما لفقره وضعف مكانة أهله اجتماعياً.

سيدنا إبراهيم بعقله الفذ الناقد الحر لم يتقبل فكرة وجود أصنام منصوبة كآلهة في شوارع بلدته فجال ببصره في هذا الكون الفسيح بحثاً عن ربه، وكان القمر ساطعاً متجلياً فقال هذا ربي لكن عندما غاب هذا القمر توصل بعقله الخام وبدون مساعدة من أحد أن رب هذا الكون لا يمكن أن يكون ضعيفاً لدرجة أنه يظهر ويغيب، فهذه صفة بشرية أو كونية، لكن الذي خلق هذا الكون بأجرامه ونجومه لا يُعقل أن يأفل، والشيء ذاته تكرر مع الشمس حين غابت، وحينها وجد نفسه أمام الغيب وأمام أن الله سبحانه وتعالى خالق الكون لا تحيطه الأبصار وأعظم من أن يتجسد في جرم مرئي وقابل للإدراك بالحواس البشرية العادية. قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]

هذا هو التفكير الناقد الذي استحق سيدنا إبراهيم من خلاله مكانته إماماً للأنبياء والبشر.

لكن مهلاً فهذه المعلومات حول الشمس والقمر وأن الله سبحانه وتعالى أعظم من أن تدركه الأبصار يعرفها اليوم طفل في العاشرة من عمره فليست سراً عظيماً. هذا صحيح، لكن علينا أن نعرف أن سيدنا إبراهيم عاش في فترة بدائية موغلة في القدم، وعلينا أن نعرف أن البشرية كانت لا تزال تحبو والسقف المعرفي البشري كان لا يزال غراً وساذجاً جداً، ولا يؤمن إلا بالمحسوس ولا قيمة للغيب فالغيب (المُجرّد) غير قابل للإدراك، والبشرية مثل الإنسان تتطور وتنمو وتكبر، وفي فترة إبراهيم كانت ما تزال في مرحلة الطفولة، لذلك أن ينجح إنسان في ذلك العصر وبدون وسيط من عند الله وبدون كتاب سماوي أو وحي في **أن يكتشف ربه بنفسه** باستخدام العقل الخام والفطرة هو أمر عظيم.

سيدنا إبراهيم استطاع الاهتداء إلى ربه بدون وحي أو كتاب.

ويُلفت النظر في سرد القرآن الكريم لسير الأنبياء عليهم السلام أن أغلبهم قد اصطفّ حولهم جماعة من المؤمنين، شاركوهم المحنة والرسالة، وكانوا امتدادًا لدعوتهم في الناس. نرى ذلك

في قصة نوح عليه السلام، حيث حمل معه من آمن في السفينة، ونراه مع موسى وقد تبعه بنو إسرائيل في رحلة التيه والخلاص من فرعون، ومع عيسى حين التفّ حوله الحواريون، ومع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث كانت الجماعة المؤمنة ركنًا أصيلاً في مسيرته منذ البعثة وحتى التمكين. إلا أن قصة إبراهيم عليه السلام تكاد تكون استثناءً في هذا السياق، إذ لا يُذكر في القرآن جماعة آمنت به أو سارت خلفه كما هو الحال مع غيره من الرسل، وكأن دعوته قامت على الكفاح الفردي منذ اللحظة الأولى.

لقد بُعث إبراهيم في بيئة غارقة في الشرك، حتى إن أقرب الناس إليه كان من صنّاعها ودعاتها. واجه قريته وقومه وحده، لا يسانده إلا إيمانه العميق ويقينه الصافي. فما إن جاهر بدعوته حتى قوبل بالإنكار والعداء، وبلغت الخصومة ذروتها حين أُلقِي في النار، لا لشيء سوى لأنه قال ربي الله. في هذا المشهد، لا نجد صفًا من المؤمنين يحيط به، ولا جماعة تذود عنه، بل كان وحده في وجه أمة كاملة. ومع ذلك، لم تضعف له عزيمة، بل خرج من المحنة أشد يقينًا وأعمق توكلًا.

ومع هذا الانفراد، لا يخلو المشهد من نفحات إيمانية تلوح في بعض الوجوه القليلة التي آمنت به، وأولهم لوط عليه السلام، الذي جاء التصريح بصفائه الإيماني في قول الحق سبحانه "فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم"، وكان لوط في موقع التابع الوفي، ثم النبي المرسل في قوم آخرين. كما تظهر زوجته سارة في مشهد التجلّي الإيماني في بيت النبوة، والتي كانت له نعم الرفيقة في رحلة الإيمان والمغتربات المتكررة. ومعهما تبدأ ملامح النواة الإيمانية الأولى، وإن كانت صغيرة العدد، عظيمة في مغزاها الرمزي.

لقد أراد القرآن لقصة إبراهيم أن تتجاوز السرد التاريخي إلى صناعة النموذج، فجاء وصفه الجامع "إن إبراهيم كان أمةً قانتًا

لله حنيفًا ولم يكن من المشركين". وهذه العبارة القرآنية تحمل من العمق ما يجعل إبراهيم لا يُقاس بعدد من تبعه، بل بقوة من وقف وحده، فكان وحده أمة، يحمل في قلبه التوحيد الخالص، ويجهر به بين جموع الشرك، لا يأبه لوحدة ولا لوحشة. فإبراهيم ليس نبي الجماعة، بل نبي المواجهة، نبي التحدي الفردي، الذي تتجلى فيه قيمة الإنسان المؤمن حين يقف في وجه الجموع.

ثم لا ننسى أن مسيرة إبراهيم امتدت زمنيًا وجغرافيًا، فتنقّل بين مواضع عدة، من العراق إلى الشام إلى مصر ثم إلى مكة، وفي كل مقام كانت دعوته تسلك مسلكًا مختلفًا، ولم يكن الاستقرار الدعوي متاحًا له كما كان لبعض الأنبياء، بل كانت الهجرة رفيقة طريقه، وكانت التنقلات جزءًا من البلاغ. وفي هذه الرحلة الطويلة كانت الثمار تتفتح متأخرة، لكنه غرسها بإيمان من يرى ما لا يُرى، وبصبر من يعلم أن البذور قد تتأخر لكنها لا تموت.

إن قصة إبراهيم عليه السلام لا تُقرأ على أنها قصة نبي يدعو قومًا، بل قصة إنسان يقف وحده أمام باطل العالم، ليصنع من وحدته أمة، ومن غربته هداية، ومن ابتلائه سبيلًا لليقين. في صمته حكمة، وفي نطقه برهان، وفي سيرته عبرة للعابرين إلى الله، ممن يجدون أنفسهم وحدهم في الطريق، لكنهم يستمدون العزم من قوله تعالى: "إن إبراهيم كان أمة".

واتباع ملّة إبراهيم معناها اتباع للفطرة السليمة والعقل الناقد ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123]، غير أن اتباع الفطرة السليمة قد يؤدي بنا في دراستنا للنص القرآني إلى بعض المصادمات مع ظاهر النص، وعليك حينها أن تتبع فطرتك، وتسعى في الوقت نفسه إلى فهم أفضل وأعمق للآيات، لأنه يستحيل للنص القرآني بعمقه أن يصادم الفطرة، وهذه قد تكون فكرة استفزازية لكل "مؤمن" بكتاب الله تعالى، لكن لكي نزيل شبهة هذا الادعاء نقول إن الفطرة ينبغي أن تكون المعيار الذي ندرس به القرآن لا

لنقص فيه - حاشا لله - وإنما لاختلاف الأفهام والرؤى والتأويلات للنص الواحد، فها نحن نقتل استناداً إلى آيات ونسلب استناداً إلى آيات ونغتصب استناداً إلى آيات، بينما لو درست النصوص القرآنية بعمق ووقفت عند دلالاتها وسياقاتها لوجدت أن القرآن دائماً يقف صفاً إلى صف مع الفطرة السليمة، والتي يسميها جورج طرابيشي "المنطق الأخلاقي" عندما يقول: (بل إن المنطق نفسه يتجرد من وظيفته المعرفية النظرية ليتحول بدوره إلى منطق أخلاقي بوصفه قوة أخرى من القوى التي ركبها الله في النفس البشرية، هي "قوة التمييز التي سماها الأوائل المنطق وجعل لها "للنفس) خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه عز وجل).[1]

راجع نفسك وفطرتك دائماً ولا تتعبد بظاهر النص، ولك أن تسأل نفسك فتجيب:

- هل حققت الصلاة التي نؤديها يومياً خمس مرات أي فرق في حياتك وحياة مليار مسلم؟ هل صرنا أحسن أخلاقاً وأكثر تسامحاً؟

الجواب: لا. إذاً هناك خلل كبير في فهمنا لهذه الشعيرة، فهي ليست مجرد حركات نؤديها، ولا ندعوك لهجرها وإنما ندعو إلى فهم أعمق للصلاة الواردة في كتاب الله تعالى، فالشعيرة ما هي إلا تمثل حركي لهذه العبادة التي ينبغي أن تتجسد في حسن الخلق والصلة المباركة مع الله سبحانه وتعالى.

- هل يُعقل أن يرسل الله ملايين الناس إلى بقعة صغيرة في أيام محدودة يطوفون حول كوم حجارة فيموت منهم نفر كثير دوساً بالأقدام؟

الجواب: لا. إذاً هناك خلل كبير في فهمنا للحج، ومجدداً فهذه ليست دعوة لهجر شعيرة الحج، ولكن لإعادة دراسته على ضوء القرآن بما يتوافق مع الفطرة، خاصة أن الآيات تشفع لفهم آخر تؤدى فيه شعيرة الحج على مدار شهور وليس أيام، لذا علينا إعادة النظر في آيات الحج.

هل يُعقل أن يشم جارك الفقير روائح الشواء الشهية الصادرة

[1] جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، ص 365

عن بيتك لعام كامل بانتظار أن تذبح وتطعمه في عيد الأضحى؟ وجارك الآخر المريض أعليه أن ينتظر حولاً كاملاً حتى تحسب رأس مالك ونصاب زكاتك وترمي إليه بثمن الدواء؟

الجواب: لا. إذاً هناك خلل كبير في فهمنا للزكاة والصدقة.

- هل يُعقل أن ندعو الله عشرات السنين كي يمحق اليهود ويعيد إلينا فلسطين وهو القائل " ادعوني استجب لكم،" ولا يعيدها؟

أيعقل أن نكون أكثر الأمم دعاءً وتضرعاً وفي الوقت نفسه أكثر الأمم تخلفاً وجوعاً ومرضاً وطائفيةً وجهلاً؟

الجواب: لا، إذا فهناك خلل كبير في فهمنا للدعاء.

- هل يُعقل أن نستغفر الله سبعين مرة في اليوم طلباً للغيث امتثالاً لقوله تعالى: " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً" وبلادنا تعاني من التصحر والجفاف؟ كيف نستغفر ليلاً ونهاراً والله يمطر على النرويج والدنمارك؟

إذاً هناك خلل كبير في فهمنا للاستغفار.

- هل يعقل أن نسمي أنفسنا مسلمين لمجرد أننا ولدنا في بيئة تظن نفسها مسلمة؟ وهل يعقل أن نمنح أنفسنا الحصانة الربانية والشفاعة العظمى لمجرد كوننا ولدنا في هذه البيئة التي تظن نفسها مسلمة والتي لا تتوقف عن تفريخ الإرهابيين والصعاليك والمتخلفين والمتأبطين الشر والموقوذين والنطائح والمتردين وما أكلت السباع؟

الجواب: لا. إذاً هناك خلل كبير في فهمنا للإسلام، وماهية الإسلام، فهو مظلة واسعة تستظل تحتها كافة الملل بشرط الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والعمل الصالح.

ارجع إلى فطرتك فهي رسول من نفسك أقرب إليك من سادن المعبد ومن ظاهر النص، وكن متصلاً بالله العظيم بفطرتك لا بتعبدك بالنص، فالنص مهما كان مقدساً فما وُجد إلا لخدمة الإنسان وليس العكس، وللأسف فإن الواقع الفقهي القديم والمعاصر على حد سواء يدعو دوماً إلى خدمة النص على حساب

الإنسان وقيمته وحريته وكرامته، ضمن فهم ضيق لهذا النص سواء كان القرآن الكريم، أو ما صح عن النبي عليه السلام من أحاديث.

ولك أن تنظر في نهج الجماعات الإسلامية المختلفة ليتضح عندك مدى حرص الذهنية المسلمة على تقديس النص على حساب الإنسان.

ولنتعلم من سيدنا إبراهيم فقد كان ينطلق دوماً من الشك وصولاً إلى الإيمان بعكس المشركين في كل مكان وزمان فهم ينطلقون دوماً من الثبات والإيمان، والكل يرى الصواب فيما ولد عليه وتربى عليه من ثوابت، وهذا ما جاء الأنبياء للتصدي له: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78]، بالمقابل سنجد أن سيدنا إبراهيم بحث في الماهيات والكيفيات، وحتى بعد إيمانه بالله تعالى طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]، فهو هنا مؤمن لكنه يريد أن يتعرف على الكيفية بعدما استأنس وتوصل إلى فكرة الماهية.

هذا ما فعله سيدنا إبراهيم بعقليته الفريدة المستقلة مبتعداً عن الوقوع في شَرَك الآبائية واتباع ما كان عليه الآباء، فمن السهل ملاحظة الربط القرآني في الكثير من المناسبات بين الشرك وبين الوالدين. انظر الآيات التالية:

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

وَأَقِيمُــوا الصَّــلَاةَ وَآتُــوا الزَّكَــاةَ ثُمَّ تَــوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ [البقرة: 83]

- وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـانًا وَبِـذِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَـارِ ذِي الْقُـرْبَى وَالْجَـارِ الْجُنُبِ وَالصَّـاحِبِ بِـالْجَنْبِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَمَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [النساء: 36]

- وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَـا وَقُـلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا [الإسراء: 23]

من الواضح أن هناك علاقة ما بين علاقة الابن بوالديه وطاعتــه العمياء لهما والشرك بالله لذا أوجب علينـا القـران الإحسـان إلى الوالدين كلما حذرنا من الشرك، وهذه العلاقة سببها التالي: كلما ارتقى الانسان في سلم الوعي الإيماني والديني كـان أكـثر بعـداً عن الشرك ولتحقيق التطور المطلوب في هذه الرحلـة المضـنية وجب التحـرر من قيـود كثـيرة ومنهـا الآبائيـة المذمومـة، وهـذا الجـانب صـعب لأنـه قـد يسـتلزم الصـدام مـع الوالـدين بسـبب عقليتهمـا الماضـوية لـذا أوصـى اللـه بالإحسـان اليهمـا في هـذه المرحلة ولم يوص أو يأمر بوجوب طاعتهما، ولا يوجد في القرآن كاملاً أمر بطاعة الوالـدين. هنـاك أمـر بالإحسـان إليهمـا والفـرق كبير بين الاحسان والطاعة، فالإحسان أعظم من الطاعة لكنــه لا يتضـمنها بالضـرورة. الـدين تقـدمٌ إلى الأمـام والطاعـة العميـاء للوالدين قد يترتب عليها نكـوص إلى الخلـف لـذا لم يجعلهـا اللـه واجبـاً وإنمـا دعـا إلى الإحسـان إليهمـا والرحمـة بهمـا، فـالأمر المباشر بالطاعة وجعلها فرضـاً فيـه الكثـير من التعسـير فلـو أن والدتك طلبت منك تطليق زوجتك فعليك التنفيذ، ولـو طلب منـك والدك أن تتوقف عن دراسة الفيزياء النووية وتعمل كسائق أجرة فعليك التنفيذ، وهذا فيه ما فيـه من المشـقة والتضـييق والتكلس والنكوص.

وقد كانت الآبائية من أبرز المظاهر التي انتقدها المفكر الجزائري محمد أركون باعتبارها من أهم معيقات انطلاق "العقل

الإسلامي النقدي"، ففي كتابه **نقد العقل الإسلامي"** (*Pour une critique de la raison islamique*) الصادر سنة 1984، تناول أركون فكرة "التراث المغلق" بوصفه تعبيرًا عن "إرادة المحافظة على ما قاله الأوائل". وقد ربط بين هذه الظاهرة وبين ما أسماه "سلطة النص المؤسس"، حيث يتم التعامل مع النصوص التأسيسية لا بوصفها مفتوحة للتأويل التاريخي، بل بوصفها مغلقة، غير قابلة للنقد. يقول أركون[1]:
"إن الموروث التفسيري الذي تحوّل إلى سلطة، قد فرض على المسلمين طريقة واحدة في التفكير، جعلتهم أسرى لما أنتجه العقل في القرون الثلاثة الأولى"، ففي هذا السياق، يربط أركون بين الآبائية وبين إغلاق باب الاجتهاد، حيث يرى أن العقل الديني أغلق الباب منذ القرن الرابع الهجري، مما حوّل المعرفة الدينية إلى نمط "إعادة إنتاج" بدلًا من "الإبداع والاجتهاد".

وفي كتابه **"النزعة الإنسانية والإسلام: نضالات ومقترحات"** (*Humanisme et Islam: combats et propositions*)، يناقش أركون بشكل موسع ما يسميه بـ"الثقافة السائدة" (la culture dominante) التي تُقصي كل ما هو هامشي، وتفرض قراءة واحدة للموروث، حيث يشير إلى أن:[2]
"التقليد، كمنظومة أُحادية، يسعى إلى الهيمنة عبر استبعاد كل أشكال الوعي المحلي أو المختلف، ويستند في شرعيته إلى سلطة الأوائل"، وهذا المنظور لا ينتقد فقط "الآبائية" في بُعدها الاجتماعي أو الفقهي، بل يتناولها كآلية ذهنية **لإعادة إنتاج السلطة المعرفية والدينية** عبر الأجيال.
كذلك في طرحه لمفهوم "اللامفكر فيه " (l’impensé) يرى أركون أن الآبائية قد نجحت في ترسيخ ما يجب التفكير فيه وما لا ينبغي التفكير فيه، من خلال خطاب ديني يمنح الشرعية لما هو موجود، ويقصي كل ما هو مغاير، فمفهوم "ا**للامفكر فيه"**

[1] محمد أركون، نقد العقل الإسلامي، دار الساقي، الطبعة العربية، ص88
[2] محمد أركون، النزعة الإنسانية والإسلام: نضالات ومقترحات، ص302

يُشير إلى تلك **المناطق المعرفية أو الأسئلة التي أُقصيت من مجال التفكير أو النقاش** في الوعي الإسلامي التقليدي، ليس لأنها غير مهمة أو غير موجودة، بل لأنها **تمّ إقصاؤها بفعل سلطات معرفية ودينية واجتماعية** كرّست نمطًا وحيدًا للتفكير، و"اللامفكر فيه" لا يعني المستحيل التفكير فيه، بل هو ما **تمّ منعه أو تجاهله** بفعل آليات فكرية وثقافية، ويربط أركون هذا المفهوم بمصطلح **"الآبائية"**، أي **اتباع السلف دون مساءلة أو مراجعة،** فبفضل هذه الآبائية، تم تثبيت حدود لما يمكن التفكير فيه وما لا يجوز، **وتم شرعنة الموجود باعتباره هو "الحق"، وإقصاء أي اجتهاد أو تأويل مغاير** على أنه بدعة أو ضلال، ويؤكد أركون ذلك بالقول[1]: " كل ما هو خارج الأطر المألوفة للتفسير التقليدي، يتم إخراجه من حقل التداول الفكري".
إذن الخطاب الديني التقليدي، بحسب أركون، لم يكن بريئًا أو محايدًا، بل كان فاعلًا في إنتاج "اللامفكر فيه" من خلال **آليات التقديس والتكفير والتصنيف الثنائي (حق/باطل، سنّة/بدعة)، و**هذا جعل التفكير خارج الأطر المعروفة **أمرًا شبه مستحيل**، مما عطّل الإبداع والتجديد في الفكر الإسلامي لقرون، وما يزال.

ومن أمثلة اللامفكر فيه فكرة **تاريخية النص القرآني**، أو **إعادة قراءة السيرة النبوية قراءة إنسانية عقلانية**، أو حتى طرح أسئلة فلسفية حول طبيعة الوحي، فكلّها مواضيع تم تصنيفها ضمن "اللامفكر فيه" داخل الثقافة الإسلامية الموروثة، رغم أنها أسئلة مشروعة في أي حقل معرفي إنساني.

لم يكتفِ أركون بالنقد، بل دعا إلى[2] ما سماه بـ"التفكيك الرمزي" للموروث الديني، لذا طرح فكرة "إعادة كتابة تاريخ الفكر الإسلامي" بوصفه ضرورة لإنقاذ التراث من "الأبوة

---

[1] محمد أركون، نقد العقل الإسلامي، ص134
[2] محمد أركون، *Pour une critique de la raison islamique*. Maisonneuve & Larose، ص21-22

المطلقة"، ويرى أن إعادة التفكير في التراث – بما فيه من علوم القرآن، والفقه، والكلام – لا تتم إلا بتحريره من سلطة "الآباء المؤسسين" وإخضاعه لمناهج علمية حديثة (أنثروبولوجيا، لسانية، تأويلية).

5. وحي أم وحيان؟

يتخذ الوحي في الأدبيات الإسلامية صوراً عديدة، غير أن الشكل الأبرز للوحي هو ما تلقاه النبي الكريم عن طريق جبريل، فهذا يمكن تسميته بالوحي التشريعي الرسمي في الإسلام، وذلك لأنه كان الوسيلة التي نزل فيها القرآن الكريم على نبيه، غير أن هذه الصورة شابها ما شابها من اختلافات في ماهية الدور المُناط بجبريل في المسألة وفيما هل كان مجرد ناقل حرفي لكلام الله تعالى أو أنه صائغ لمراد الله تعالى، بمعنى أن يكون المراد من عند الله والصياغة من جبريل وبالتالي يترتب على هذه النتيجة- إن آمنا بها- القول إن القرآن هو كلام أو تعبير جبريل. هذه فرضية قائمة يمكن دراستها وبحثها في مقام آخر، أما فيما يتعلق بصور الوحي فهناك روايات في التراث تُخبرنا أن جبريل أحياناً كان يأتي النبي في صورة رجل، وأحياناً بصوت يشبه صلصلة الجرس[1]، وكذلك فهناك الرؤيا الصادقة والتي يعدها المفسرون تمهيداً للوحي، واستمرت كنوع من أنواع الوحي بعد ثبوت النبوة، إذ ورد في رواية منسوبة إلى النبي الكريم قوله:

---

[1] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث رقم 2، وكذلك انظر الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*، ج1، ص16

"الرؤيا الصـالحة جـزء من سـتة وأربعين جـزءًا من النبـوة"[1] ومـا يعزز ذلك أيضاً رؤيا سيدنا إبراهيم[2] وتحديداً في قوله تعالى: "إني أرى في المنـام أني أذبحـك" (الصـافات: 102)، وهنـاك أيضـاً الوحي الذي كان يلقيه الله تعـالى في نفس النـبي دون وسـاطة، كمـا ورد في حـديث رواه ابن حبـان "إن روح القـدس نفث في روعي أن نفساً لن تمـوت حـتى تسـتكمل رزقهـا"[3] وهنـاك أيضـاً الوحي الخاص بغير الأنبياء والـذي لا يكـون إلا في صـورة الإلهـام كما حدث مع أم موسى في قوله تعالى "وأوحينـا إلى أم موسـى أن أرضعيه" (القصص: 7)، وهناك وحي اللـه تعـالى إلى الملائكـة "إذ يــوحي ربــك إلى الملائكــة أني معكم فثبتــوا الــذين آمنــوا" (الأنفال: 12)، وهناك نوع خاص من الوحي قد يكـون على شـكل برمجة أو هداية فطرية توجيهية يختص بالمخلوقـات غـير العاقلـة مثل قوله تعالى "وأوحى ربـك إلى النحـل أن اتخـذي من الجبـال بيوتاً" (النحل: 68)، وهـذا التنـوع في الـوحي في الإسـلام يعكس غنى المفهوم الإسلامي للوحي وأبعاده المختلفـة، غـير أننـا لسـنا بصدد مناقشة هذه الأنـواع، بقـدر مـا يعنينـا تسـليط الضـوء على وحي الله تعالى إلى نبيه الكريم محمد عبر جبريل، وهي الصـورة التي تم نقل القرآن الكـريم من خلالهـا إلينـا، والـتي سـعى بعض المستشـــرقين إلى نفيهـــا، ومن أبـــرز ذلـــك مـــا تناولـــه شـــيخ المستشرقين الألمـان تيـودود نولدكـه (1836-1930) في كتابـه (تاريخ القرآن) الذي عُد مرجعـاً لمـا بعـده من المستشـرقين لـذا وجب التنويـه إليـه هنـا، فالمُستشـرق -بشـكل عـام- كمـا يقـول محمود محمـد شـاكر[4] : *"مـأمون عنـد كـل أوروبي من أول طبقـة الرهبان والساسة إلى آخر رجل من جماهير الناس، مـأمون على ما يقوله، مُصدّق فيمـا يقولـه في أمـور لا سـبيل لأحـد منهم إلى معرفتها لأنها تتعلق بأقوام لسانهم غـير لسـانهم ولا يقـوم بهـا إلا دارس صابر ذو معرفة بهذا اللسان الغريب"*. وقـد قضـى نولدكـه عقـوداً من حياتـه في محاولـة للوصـول إلى فهم شـامل للقـرآن

---

[1] صحيح البخاري، كتاب التعبير، حديث رقم 6989

[2] السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، ج1، ص108

[3] صحيح ابن حبان، حديث رقم 361، وانظر أيضاً الزرقاني، مناهل العرفان، ج1، ص56

[4] رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص 57

والتعرف عليه بشكل وثيق، مُعتمداً على المنهج التاريخي النقـدي السائد في الدراسـات الكتابيـة والغربيـة، فـافترض أن النصـوص الدينية ليست وحياً إلهياً بالمعنى التقليدي، بل نتاج تفاعل تاريخي وثقـافي وسياسـي ونفسـي، ولـذلك قسـم السـور القرآنيـة إلى مراحل نزول مستنداً إلى التحليل الأسـلوبي (من ناحيـة الشـكل والـوزن والقافيـة)، والمواضـيع والمضـامين (من ناحيـة العقيـدة والتشريع والقصص)، والسياق التاريخي (من ناحية مكان الـنزول وتغير الظروف السياسية)، وانتهى إلى أن النـبي الكـريم لم يكن غير صادق، بل كان مخلصاً ومقتنعاً برسالته، لكنه –أي نولدكـه- لا يقر بكون القرآن وحيا إلهياً بل يعده تعبيراً عن وعي ديـني داخلي للنبي الكريم وأن النبي تأثر بالبيئة الدينية (اليهوديـة والمسـيحية) في جزيرة العرب، كما زعم نولدكه بوجود تـأثيرات خارجيـة مثـل التوراة، والإنجيل، والأساطير، وكل هـذا من خلال قـراءة نولدكـه للتراث الإسلامي برواياته المنسوبة إلى النـبي الكـريم وبقصصـه المنتشرة في بطون الكتب.

تتمثل قوة كتاب نولدكه في منهجه المنظم وتحليله الأسلوبي، ممـا جعلـه مرجعـاً تاريخيـاُ مبكـراً في الغـرب، لكن يكمن ضـعفه الأساسـي في الاعتمـاد على فرضـيات غـير مثبتـة حـول مصـادر القرآن، فمن خلال قراءتك لكتابه (تاريخ القرآن) ستلحظ اعتماده على الروايـات والقصـص هنـا وهنـاك وكأنمـا هي مراجـع ثابتـة وموثقـة ومصـدرها السـماء، وهـذه مثلبـة استشـراقية عامـة في تناولهـا للقـرآن الكـريم، إذ دائمـاً يقـدم المستشـرقون صـورة منقوصة، وهذا ما عبر عنه إدوارد سعيد أصدق تعبـير حين قـال[1]: *"ليس في وسع إنسـان -في الغـرب- يكتب عن الشـرق أو يفكـر فيه أو يمارس فعلاً متعلقاً بـه أن يقـوم بـذلك دون أن يأخـذ بعين الاعتبـار الحـدود المعوقـة الـتي فرضـها الاستشـراق على الفكـر والفعل، وبكلمات أخرى فإن الشرق بسـبب الاستشـراق لم يكن موضوعاً حرّاً للفكر أو للفعل"*.

[1] الاستشراق، إدوارد سعيد، ص39

ونولدكه في كتابه اعترف بوحي رسول الله عليه السلام لكن على نحو شكلي فقط، إذ صنفه مرة كنوع من أنواع المرض النفسي، ومرة أخرى على أنه ليس سوى صوت داخلي للنبي ظنه –أي النبي- وحياً قادماً له من الله[1]، ومشكلة الاستشراق أنه لم يقتصر التأثير على بيئته الغربية لكنه تعدى ذلك ليؤثر في البيئة العربية والإسلامية، فقلّ ألا تسمع فكرة مارقة عن الإسلام في الغرب دون أن يكون لها صدى يتراوح مداه بين الخفوت والإعلان في بلادنا، *"فلقد ذهبت الأيام التي كان يكتب فيها المستشرقون غالب كتاباتهم ليقرأها مستشرقون مثلهم. ونحن ننحي جانباً الدراسات الفرعية المتخصصة لنجد معظم الإنتاج الحاضر يقرؤه ويقدره أعداد ضخمة من الباحثين والمثقفين واسعي الأفق في الغرب، ومن هؤلاء أعداد قد تكون أكبر في العالم الإسلامي"* [2]، ويظهر تأثير نولدكه في الفكر العربي في كتاب (الحداثة والقرآن) للمفكر المغربي سعيد ناشيد [3] الذي يفرق بين ثلاث ظواهر متباينة للوحي: (الوحي الرباني، وهو يحيل على الصور الوحيانية التي استشعرها الرسول وتمثلها عبر قوة خياله، كما يقول كل من الفارابي وابن عربي وسبينوزا عن تجارب النبوة؛ والقرآن المحمدي، وهو ثمرة جهد الرسول في تأويل الوحي وترجمته الاشارات الإلهية إلى عبارات بشرية؛ والمصحف العثماني، وهو ثمرة جهد المسلمين في تحويل القرآن المحمدي ـ خلال مرحلة أولى ـ من آيات شفهية متناثرة إلى مصاحف متعددة، ثم خلال مرحلة ثانية من مصاحف متعددة إلى مصحف واحد وجامع)، ما يدل على حجم تأثير الفكر الاستشراقي في هذه المسألة على المفكرين في الغرب والشرق.

ويقول د. محمود محمد شاكر[4] في كتابه (مداخل إعجاز القرآن): *"هم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المعلم،*

---

[1] كتاب الوحي إلى محمد بين الانكار والتفسير النفسي، د. رضا محمد الدقيقي، ص 87

[2] طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، مقال بمجلة The Muslim World عدد يوليو 1963، ونشره د. محمد البهي في كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص484.

[3] الحداثة والقرآن، سعيد ناشيد، ص18-19

[4] محمود محمد شاكر، مداخل اعجاز القرآن، ص148

وثقافة تتشربها النفوس، ونظر تقتفيه العقول، حتى كان كما قال مالك بن نبي (إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة من الإشعاع لا نكاد نتصورها)".

وما ساعد على تبني الفكر الاستشراقي في هذه المسألة هو اختلاف المسلمين أنفسهم في ماهيات الوحي وتجلياته، وأي من هذه الماهيات أو التجليات هو التشريع الإسلامي الرسمي، ففي الروايات نجد أمثلة لجبريل يخاطب سيدنا محمد مباشرة في مواقف هي خارج القرآن الكريم، ومثال ذلك أن جبريل جاءه فقال: (يا محمد، كن عجّاجاً ثجّاجاً بالتلبية)[1]، وبالمقابل عمد نولدكه إلى الخلاف بين العلماء المسلمين فيما إذا كان النبي قد رأى ربه أم لا، فاستثمره ووظّفه في تعليل رفضه معظم تلك الأنواع من الوحي، مُركزاً حديثه في أكثر من موضع من كتابه على قول النبي "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس" ليثبت من خلال ذلك أن الوحي نوع من الإلهام النفسي الداخلي الذي يحس به النبي سواء نتيجة اعتلال نفسي أو إلهام عبقري، لكن نولدكه الذي استدل برواية (صلصلة الجرس) تغافل عن تكملة هذه الرواية (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).[2]

أوجزنا جداً في تبيان صور وتجليات الوحي المتنوعة واختلافات أفهامها لنقف عند النقطة الأهم وهي: الإلزام والتشريع، إذ يؤمن المسلمون –وتحديداً السُنّة- بوجود وحيين تشريعيين معتبرين وملزِمين هما وحي القرآن ووحي السنة، ومن ينكر أحد المصدرين وحجيتهما في الدين يقع مباشرةً في دائرة التكفير والمساءلة والاستهداف والاستعداء، تحت مظلة جملة من التهم أشهرها إنكار السنة، ومنكر السنة كافر، الخ.

والحقيقة أن مسألة الوحي الثاني ينبغي أن توضع في إطارها التاريخي وألا يتم تناولها كحقيقة مُسلّمة، فهي فكرة مستجدة على المسلمين أنفسهم ولم يكن مسلمو الجيل الأول يرددونها

---

[1] السنن الكبرى ج5 ص 200 رقم (8662)، وسنن الترمذي: حسن غريب وقال الشيخ الألباني صحيح. كما صححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الإرناؤوط، إسناده قوي: راجع صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج11 ص118 رقم (4795)

[2] كتاب الوحي إلى محمد بين الانكار والتفسير النفسي، د. رضا محمد الدقيقي، ص 103

ويؤمنون بها، وإنما جـاءت متـأخرة في زمن الشـافعي، ولن نجـد في كتاب الله تعالى آيات مباشرة وواضـحة وقاطعـة تشـفع لهـذا الفهم، فكتـاب اللـه تعـالى يؤكـد دومـاً على أنـه المصـدر الوحيـد للتشريع، وهذا لا يعني أن نرمي بالتراث كاملاً فهو مهم جداً لفهم الخلفيـة والبيئـة والظـروف الـتي نـزل فيهـا كتـاب اللـه تعـالى، فـالقرآن الكـريم لم يتـنزل في فـراغ وإنمـا هنـاك حاضـنة بيئيـة وثقافية نزل فيها، وعلينا دراسـتها، حـتى لـو طالهـا التحريـف هنـا وهنــاك لكنهــا تعطينــا فكــرة واضــحة عن الظــروف التاريخيــة والاجتماعية التي نزل فيها كتاب الله تعالى.

وهناك آيات كثيرة في كتاب الله تعـالى تؤكـد غيـاب وحي ثـان غـير القـرآن الكـريم، فـالقرآن هـو وحي السـماء الوحيـد لسـيدنا محمد وللمؤمنين كافة، وإثبات ذلك سهل ويمكن تناولـه من عـدة زوايا ومحاور، ولنأخذ مثلاً زاوية الخطاب الإلهي للنبي الكريم.

المثال الأول نجده في قولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَـرُوا لَـهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْـعُرُونَ﴾ [الحجـرات: 2]

هذه الآية دعوة قرآنية للمؤمنين (أيام النبي الكريم) تطالبهم بــألا يرفعـوا أصـواتهم فـوق صـوت النـبي، ولـو دققنـا في الآيـة جيـداً لوجدنا أنها لا تشكل أهمية شرعية بالنسبة إلينا اليـوم في القـرن الحادي والعشرين فالنبي الكريم قـد تـوفي وأنـا بصـفتي مسـلماً اليوم لستُ مطالباً بفعل شيء حيـال هـذه الآيـة، ولـذا فلـو كـان هناك وحي ثان فكـان الأجـدر أن يتم الأمـر هـذا من خلالـه لا من خلال القرآن الكريم.

والمؤمنون يثقون بالنبي الكريم ثقة مطلقة فلـو قـال لهم إن الله يأمركم ألا ترفعوا صوتكم فوق صوتي لأطاعوا ونفذوا الأمــر، ولا حاجة هناك لآيـة قرآنيـة، ولكن نجـد هنـا أن الأمـر جـاءهم من السـماء مباشـرة عن طريـق الـوحي لأنـه ببسـاطة هـو الطريـق الوحيد للتشريع سواء كـان هـذا التشـريع آنيـاً لمناسـبة معينـة (لا

ترفعـوا أصـواتكم فـوق صـوت النـبي) أو تشـريعاً دائمـاً وأبـدياً (حُرمت عليكم أمهاتكم).

المثال الثاني نجـده في قولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53]

هذه الآية أيضاً تطلب من المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النـبي إلا بعـد أن يسـتأذنوا، وبعـد أن يتنـاولوا الطعـام هنـاك عليهم ألا يطيلـوا الجلوس لما في ذلك من أذى للنبي وانتهـاك لخصوصـيته ووقتـه، وأنا اليوم لستُ مطالباً بشـيء حيـال هـذه الآيـة، فلا أسـتطيع أن أطبق هذه الآية في حياتي لأن النـبي قـد مـات، وطالمـا أن الآيـة مرتبطة بتشريع أو نهي وقتي مؤقت فلو كـان هنـاك وحي آخـر – كما يقولون – لكان الأجدر أن يتولى هو إخبار النـبي بـذلك خـارج القرآن، والنبي سيبلغهم الرسالة فيقول لهم: إن اللـه يـأمركم ألا تدخلوا بيوتي بدون استئذان وألا تطيلوا الجلوس بعد أن تتنـاولون الطعام.

وحينها كان سينفذ الصحابة هذا الأمر طواعية ولثقتهم المطلقة بالنبي الكريم، لكن ذلك تم مباشرة بأمر من السماء في القـرآن الكريم ليؤكد لنا القرآن مرة بعد أخرى أنـه وحي السـماء الأوحـد إلى النبي والمؤمنين على حد سواء.

المثـال الثـالث نجـده في قولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59]

فلو كان هناك وحي آخر لهمس في أذن النبي خارج القـرآن بهـذا الكلام، وجاء النبي بعدها ليقول لهم: يا أزواجي وبنـاتي ويـا نسـاء

المؤمـنين إن اللـه يـأمركن أن تـدنين عليكن من جلابيبكن فـذلك أدنى أن تُعرفن فلا تؤذين، فكما سيتبين لنا في موقع آخر من هذا الكتاب فإن هذا التشـريع أو النهي مجـرد تشـريع خـاص وخطـاب خاص وليس تشريعاً عاماً أزلياً.

ويمكن بسهولة رصد التأثير العُرفي والاجتماعي على تفسيرات السابقين وفهمهم للآيات بشكل عام ولهـذه الآيـة بشـكل خـاص، فقـال ابن عبـاس وأبـو عبيـدة: أمـر نسـاء المؤمـنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بـالجلابيب إلا عينـا واحـدة ليعلم أنهن حرائـر، وفسروا (ذلك أدنى أن يعرفن) أي يعرفن أنهن حرائر فلا يـؤذين، وقال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاهـا بالـدرة، وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر، ألقي القناع.[1]

فطالمـا أن المقصـد من اللبـاس هـو السـتر ودرء الشـبهات والفتنة فلماذا كانوا يستثنون الإماء من ذلك؟ أليسـت الأمـة أنـثى وتشـكل مصـدراً للشـهوة ولفت النظـر مثلهـا مثـل الحُـرّة؟

المثال الرابع نجده في قوله تعالى:

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ وَالْمُنَـافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1]

فلماذا لم يهمس جبريل في أذن النبي ويقول له يا محمـد اتـق الله ولا تطع الكافرين؟ أليس ذلك أكثر ستراً للنبي؟

المثال الخامس نجـده في قولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ حَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْـرُونَ صَـابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65]

فلماذا لا يخبره بذلك خارج القرآن؟ لمـاذا لم تكن تلـك رسـالة خاصة من الله تعالى إلى نبيه والنبي سيتكفل بنقلها إلى الصحابة فيقول لهم هلموا إلى القتال بأمر من الله تعـالى فـإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين...الخ.

المثال السادس نجده في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَزِينَتَهَـا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28]

[1] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، الجزء 3، تفسير الآية 183 من سورة البقرة

فما الداعي لوجود آية طالما أن النبي بإمكانه أن يقول لهن ذلك مباشرة من خلال الوحي الثاني؟ هذا لو افترضنا وجود هذا الوحي الثاني.

المثال السابع نجده في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1]

لماذا لم يخاطبه الوحي بذلك خارج القرآن الكريم، أليس ذلك أكثر ستراً للنبي؟

المثال الثامن - وهو برأيي أكثر الأمثلة وضوحاً على ما ذهبنا إليه من عدم وجود وحي ثانٍ، فالآية التالية هي خطاب لغير المؤمنين، وهذه مسألة مهمة جداً فلو قال أحدهم إنّ الآيات السابقة خطاب للمؤمنين وتعزيز لمصداقية النبي أمام قومه، فالخطاب هنا في الآية التالية موجّه لغير المؤمنين وهم غير مصدّقين أساساً بالنبي داخل القرآن وخارجه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ - [الأنفال: 70]

فهنا يأمر القرآن الكريم النبي أن يخاطب الأسرى، والأسرى كما هو معروف من كفار قريش وليسوا مؤمنين أصلاً، فلماذا نزلت آية تأمر النبي أن يخاطب هؤلاء الكفار، ولماذا لم يكن ذلك من خلال الوحي الثاني؟

الجواب ببساطة: لأنه لا يوجد هناك سوى وحي تشريعي مُلزم ووحيد وهو القرآن الكريم، ونحن بشكل عام لا ننكر فكرة وجود وحي آخر في حياة النبي من ناحية المبدأ، لكنه وحي ارشادي خاص وليس وحيا تشريعياً موازياً لكتاب الله، هذا طبعاً مع إقرارنا باختلاف صور الوحي وتجلياته، فالوحي له صور وتجليات متعددة ولا ينحصر في صورة ملاك عظيم الخلقة يهبط من السماء ينقل رسالة إلى النبي، وانظر مثلاً إلى وحي الله تعالى إلى النحل في قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْــلِ أَنِ اتَّخِــذِي مِنَ الْجِبَــالِ بُيُوتًــا وَمِنَ الشَّـــــــــجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـــــــــونَ﴾ [النحـــــــــل: 68]
فقد أوحى الله تعـالى إلى النحـل بطريقـة لا نعلمهـا، فقـد يكـون الوحي هنا هو الغريزة التي تحرك هذه الحيوانات بلا وعي وإدراك منها، أو ضمن وعي وإدراك لا نعلم أبعاده.

وكذلك وحي الله تعالى إلى أم موسى في قوله تعالى:
﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]
فهذا لا يشترط بالضرورة أن يكون وحياً بالصورة التقليدية التي نعرف عن الوحي، وإنما هو إلهام إلهي يقيني واجب الاعتقاد والنفاذ لأم موسى، وعليها امتثالاً لوحي الله تعالى أن ترضع موسى رضعة مشبعة لأنه مقبل على رحلة طويلة لا رضاعة فيها (وحرمنا عليه المراضع من قبل)، والدليل على يقينية الوحي في نفس أم موسى أنها ألقت برضيعها في النهر، وهذا مخالف لطبيعة الأم وطبيعة البشر بشكل عام.

هذا الوحي بصوره المختلفـة كـان اسـتحقاقاً إلهيـاً للنحـل ولأم موسى، فما المانع أن يستحقه نبينا الكريم في حياته؟

إذن نحن لا ننكر وجـود وحي إرشـادي في حيـاة النـبي، ولكننـا نرفض قبول فكرة وجود وحي تشريعي ملزم وموجه للأمة خـارج كتاب الله تعالى، فما أراد اللـه أن يوثقـه للأمـة تشـريعاً وعقيـدة فقد وثقه في القرآن الكريم.

وفي الكثير من الحوارات التي تتعلق بإنكار الوحي الثـاني نجـد التراثــيين يتمســكون ببعض الآيــات للتــدليل على وجــود الــوحي الثاني، ومنها مثلاً قوله تعالى:
﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِـهِ وَأَظْهَـرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَـا بِـهِ قَـالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3]

يستدل التراثيون على وجود الوحي الثاني بهذه الآية ويؤكدون أن هذا الوحي هو الذي أفشى له السر بدليل قوله تعالى (نبأني العليم الخبير).

والحقيقة أنه حتى لو صح فهمنا لهذه الآية بهذا الشكل، فلا مانع من ناحية المبدأ أن يكون هناك وحي ثان في حياة النبي الكريم، لكن هل هذا الوحي جزء من الدين والتشريع أم أنه مجرد وحي إرشادي خاص بالنبي وليس عاماً للأُمّة؟ الحقيقة أن هذا الوحي مجرد وحي إرشادي خاص بالنبي ولا علاقة له بالتشريع والدين، فما الذي يعنيني في ديني إن عرفتُ سر النبي مع أزواجه في بيته أم لم أعرف؟

كذلك يستدل التراثيون بآية:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]

فقد كان النبي على قبلة أولى هي بيت المقدس، ثم جاءه الأمر الإلهي الرسمي بالتوجه إلى البيت الحرام في صلاته، وهذا دليل – بحسب التراثيين – على وجود الوحي الثاني، وهنا نتساءل مجدداً، هل القبلة الأولى التي أُلغيت لاحقاً جزء لا يتجزأ من ديننا؟ أم أنها كانت اجتهاداً نبوياً؟ لاحظ أنه عندما جاء الأمر الإلهي بالتوجه إلى القبلة الرسمية الثابتة فقد تم توثيق ذلك في كتاب الله تعالى، في الآية التي تليها:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]

والآن نأتي إلى الآية الأكثر استدلالاً من جانب التراثيين باعتبارها "دليلاً قاطعاً" على وجود الوحي الثاني، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:4]، والحقيقة

فإن ظاهر الآية قد يوحي بذلك للوهلة الأولى، لكن المسألة تحتاج إلى وقفة، فكما أسلفنا فالقرآن الكريم في المقام الأول هو سياقات، ولا يجوز قراءته وتدبره وكأنما هبط بلهجة محايدة خالية من السياق، فما هو السياق في سورة النجم؟
سورة النجم هي سورة مكية بإجماع العلماء والمفسرين، كما ذكر ابن عطية وغيره. نزلت في مكة في السنة الخامسة من البعثة النبوية، أي في خضم عداء المشركين للنبي الكريم، وهي السورة الثالثة والعشرون حسب ترتيب النزول، والثالثة والخمسون في ترتيب المصحف العثماني، والجو العام الذي نزلت فيه السورة هو جو العداء والرفض من جانب قريش للنبي الكريم.

لم يكن رفض قريش لدعوة النبي محمد عليه السلام بسبب عدم اقتناعهم بمحتوى الرسالة نفسها، إذ أن رسالة القرآن كانت تدعو إلى أخلاق وقيم هم يألفونها بالفطرة ولا ترفضها النفس السوية، كذلك لم يكن رفضهم لدعوته نابعاً من رفضهم لشخصه بذاته، ولصفات فيه، فالنبي الكريم كان في نظر قريش الصادق الأمين، وحتى في أشد لحظاتهم عداءً لم يكونوا لينكروا صفات النبل والخُلُق الحسن التي كانت يتصف بها سيدنا محمد عليه السلام، ولم يكن رفضهم نابعاً مما كان يصدر عنه من أقوال خارج القرآن، فلا مانع عندهم إن قال (خيركم خيركم لأهله...)، أو (تبسمك في وجه أخيك صدقة). كل هذا بنظرهم جميل، لكن رفضهم كان ناجماً عن سبب وحيد وهو ادعاؤه بأن قرآناً يتنزل عليه وأنه نبي هذه الأمة، وهذا الرفض كان له أسبابه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فظهور دعوة محمد عليه السلام وانتشارها معناه سيادة بني هاشم باعتبارهم أهل النبي الكريم على حساب العشائر والعائلات الأخرى في مكة، حتى أن أبا جهل عمرو بن هشام قالها صراحة: "تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا

نصدقه"[1]، وكذلك سيكون لانتشار دعوته أثر سلبي على تجارتهم المتعلقة بالحج حيث كان الحج مصدراً من مصادر دخل الوجهاء منهم، ولا شك أن النبي الجديد سيحطم أوثانهم المحيطة بمكة، والتي كانت مصدراً من مصادر وجاهتهم ومركزيتهم في المنطقة.

وبسبب هذا فقد اتهمته قريش بعدة تهم منها السحر والشعر والجنون والضلال واتباع الهوى، فنزلت سورة النجم لتدافع عنه في هذا.

يقول تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:]

هذا هو الجو العام الذي نزلت فيه سورة النجم، فهي تدافع عن النبي الكريم وتذب عنه تهمة الضلال والغواية التي اتهمته بها قريش في ادعائه أن قرآناً يتنزل عليه، لتؤكد السورة أن ما يصدر عن النبي من قرآن ليس من عنده ولا يقوله تبعاً لهواه وإنما هو -بكل حرف فيه- وحي من عند الله تعالى، والسورة لا علاقة لها بما كان يقوله خارج كتاب الله تعالى، إذ كما أسلفنا فقريش لا يعنيها إن قال النبي (خيركم خيركم لأهله...) ولا اعتراض عندهم على ذلك، إنما كان اعتراضهم الوحيد على الآيات التي كان يتلوها عليهم ويقول إنها من عند الله تعالى وللأسباب التي ذكرناها سابقاً.

ولو قال قائل إن هذا مجرد استنباط شخصي وإنه يفضل أن يتناول الآية بظاهرها والآية لا تحصر الوحي هنا بالقرآن فقط، فسنقول له لا بأس في هذا، ولنمش سوياً في هذا الظاهر اللغوي لنرى مدى تناسقه وانسجامه مع المنطق من عدمه، فالآية تقول (إن هو إلا وحي يوحى..) ولو افترضنا أن المقصود أن كل ما كان يصدر عن النبي الكريم في حياته سواء آيات أو روايات هو وحي من عند الله تعالى لوقعنا في عدة إشكالات، ومنها أن النبي الكريم هنا صار مجرد ساعي بريد أو آلة تسجيل لا حول له ولا عقل ولا قوة، ومهمته الوحيدة هي بث ما كان يدب في نفسه من وحي، وهذه مهمة سهلة كان يمكن لأي من عقلاء

[1] تفسير ابن كثير، سورة الإسراء، الآية 48 1

قريش أن يؤديها، وكان يمكن لله تعالى أن يختار لهذه المهمة أي من زعماء قريش مثل أمية بن خلف أو أبا جهل أو أبا سفيان، فما على هذا النبي إلا أن يردد ما كان يمليه عليه الوحي في حياته سواء قرآناً أو غير قرآن، ولا ميزة للنبي محمد هنا عن غيره من الناس.

وكذلك من الإشكالات أن القرآن عاتب نبينا في أكثر من موضع، ومنها قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: 1-3]، و ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: 1]، و ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43]، و ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 37]، و ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 23-24]، و ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 67-68]، و ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 73-74]، و ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَى﴾ [الأحزاب: 37]

فلو افترضنا هنا أن كل ما كان يصدر عن النبي الكريم هو وحي من عند الله تعالى، فهذا يعني أنه وفي كل المواقف التي استلزمت العتاب كان يخالف الوحي، إذ طالما أن هناك وحي يملي عليه أن يقول ما يقول ويفعل ما يفعل فتلقيه للعتاب بعد هذا الموقف أو ذاك معناه أن النبي الكريم كان يخالف هذا الوحي عن سبق إصرار وترصد، وهذا يستحيل، إنما الصواب أن ما كان يصدر عن النبي خارج كتاب الله تعالى كان من اجتهاده بصفته نبياً، لذا استلزم العتاب أحياناً.

لاحظنا هنا عدم انسجام الفهم التقليدي المُفترض لقوله تعالى (إن هو إلا وحي يوحى) وانسجامه بشكل أكثر مع فكرة أن هذه

الآية تتحدث تحديداً عن القرآن الكريم، ليصير معنى الآيات أن صاحبكم (محمد عليه السلام) لم يضل ويتبع هواه فيما يتلوه عليكم من قرآن فكل ما يصدر عنه في هذا القرآن هو وحي من عند الله تعالى.

هذه هي أهمية السياقات في فهم كتاب الله تعالى، إذ لا يجوز قراءة الآيات بشكل منفصل وسلخها عن واقعها وحاضنتها التاريخية والبيئة المحيطة، لذا من المهم قراءة السيرة النبوية وقراءة كتب الحديث والتي توفر لنا صورة مجملة عن الجو العام الذي نزلت فيه السور، وإن شاب هذه السيرة وهذه الروايات ما شابها من تحريف في التفاصيل إلا أنها تساعدنا بالمجمل على فهم الجو العام الذي نزلت فيه سور القرآن الكريم.

ولو قرأنا سورة التوبة مثلاً وسلخناها عن واقعها وظروفها وسياقاتها التاريخية لوقعنا في إشكالات كثيرة، وهذا ما حدث فعلاً في واقعنا المعاصر إذ أن السورة بفهمها خارج السياقات صارت مسؤولة عن الكثير من أعمال التشدد والتطرف.

خذ مثلاً قوله تعالى:

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: 5]، فخارج السياقات تدعونا الآية إلى قتل المشركين بعد انتهاء الأشهر الحرم، لكن بالعودة إلى السورة نجد أن السياقات كلها دفاعية، وأنها لا تدعو إلى قتل المشرك لمجرد اختلافنا معه في العقيدة، وإنما تتحدث عن قوم نكثوا العهد مع المسلمين في فترة البعثة النبوية، وكذلك الأمر في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة: 28]، وغيرها من الآيات التي لا يجوز قراءتها دون الاطلاع على سياقاتها التاريخية والسياسية.

في تتبعنا لكتاب الله تعالى لن نجد أثـراً حقيقيـاً ملموسـاً لهـذا الوحي الثاني التشريعي المزعوم، فلماذا حرص كتاب الله تعـالى على توثيـق وحيـه إلى النحـل وإلى أم موسـى، وفاتـه أن يوثـق الـوحي الأعظم وهـو وحي السُـنّة أو مـا يسـمونه الـوحي الثـاني التشريعي طالما أن كتاب الله تعالى نزل تبياناً لكل شيء؟

ولـو تتبعنـا ألفـاظ الـوحي والتنزيـل في كامـل مسـاحة النص القـرآني (وحي، أوحينـا، وحيـاً، نـوحي، أنـزل، إنـزالاً، تـنزيلاً، الخ) وعددها قد يزيد عن 100 لفظة لما وجدنا أثراً لهذا الوحي الثـاني المسمى السنة.

يقول تعالى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْـقَى [طـه: 2] " ولم يقل ما أنزلنا إليك الكتاب والسُنّة لتشقى"

ويقول تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنْـزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ [آل عمـران: 3]. ولم يقـل نـزل عليـك الكتاب والسُنّة بالحق

ويقول تعـالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ أَحْسَـنَ الْقَصَـص بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ [يوسف: 3]

ولم يقل بما أوحينا إليـك هـذا القـرآن والسـنة، أو هـذا القـرآن ومثله معه.

فلماذا لم يفعل ذلك لو كان هناك وحي تشريعي مُلزم وأبـدي؟ لماذا يخجـل القـرآن ويُحجم عن ذكـر هـذا الـوحي الثـاني؟ لمـاذا أحتـاجُ أنـا كمسـلم إلى البحث بين السـطور وأتكلـف لأعـثر على تلميحات واهية حول هذا الوحي الثاني؟

لو كـان هنـاك وحي ثـان خـارج القـرآن الكـريم لوجـدنا صـداه مجلجلاً في آيـات كثـيرة بينـة واضـحة، فهـو –كمـا يُفـترض- أمـر عظيم وأساسي في الدين ويستحق عشرات الآيات، لكننا لا نجـد سوى تكلفات واستنتاجات خجولـة هنـا وهنـاك لفـك شـيفرة هـذا "الوحي الثاني".

وهنا فقد تنبه عدد من المدافعين عن السُنّة –كمصدر تشـريعي مُعتبر ووحي رسمي- لحراجة هـذا الموقـف، وعنـدما عجـزوا عن

إثباته من خلال الآيات المباشـرة فقـد نحتـوا لهـذا الـوحي الثـاني (السُنّة) اسماً آخر وهو الحكمة.

فقـالوا إن اللــه تعـالى سـماها الحكمـة، وأنـه لا مُشـاحة في الاصـطلاح، لـذا فـإن في قولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَـةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِـلُّوكَ وَمَـا يُضِـلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَـكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]

وفي قولـــــه تعـــــالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَــــاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَـابِ وَالْحِكْمَـةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقــرة: 231]

وفي قولـه تعـالى: ﴿لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولًا مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]

وفي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَـا يُتْلَى فِي بُيُـوتِكُنَّ مِنْ آيَـاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34]

وغيرها من الآيات – بحسب المـدافعين عن السـنة-دليـل كـاف على وجــود الــوحي الثــاني وإن ورد بتســمية مخالفــة لتســمية الصحابة والتابعين: السُنّة– الحكمـة، فلا مشـاحة – كمـا يقولـون- في الاصطلاح.

فالحكمـة –بنظـرهم- هي السُـنّة بعينهـا، وهنـا وجـد الـتراثيون المعاصــرون وبعض الأقــدمين مخرجــاً يتصــالحون فيــه أولاً مــع أنفسـهم ليتقبلـوا فكـرة عـدم ورود السُـنّة في القـرآن كمصـدر تشـريعي ووحي ثـان، ويهـاجمون فيـه من ينكـر السُـنّة كمصـدر تشريعي إلهي. لكن هذا الاسـتنتاج لم يكن نتيجـة تأمـل عميـق أو بحث متأن في معاني النصوص، بل هو أقرب إلى محاولة التفاف ذهنية، تبريرية، تروم الحفـاظ على مـوروث متـوارث بلا مسـاءلة حقيقية.

وهنا نتساءل وحق لنا أن نتساءل: إن كانت السُنّة هي الحكمة، وأن هذه هي اللفظة التي استخدمها القـرآن الكـريم للتعبـير عن "السُنّة"، فلماذا لا تتبعون لفظة القـرآن وتسـمونها الحكمـة بـدلاً من السُنّة؟ إن كان التفسير الـذي تعتمدونـه صـادقًا في جـوهره، فلمَ لا يكون الالتزام به كاملًا دون انتقائية؟ لماذا تُبقي المصـطلح كما هو وتُجـري عليـه تـأويلًا يخـدم منظومتـك العقائديـة، دون أن يكون لهـذا التأويـل انعكـاس في الخطـاب الـدعوي والعلمي؟ إن كانت السُنّة هي الحكمة، فلماذا لا نرى العلماء والدعاة والخطباء يُطلقون عليها هذا الاسم في بحوثهم ومقالاتهم ومنابرهم؟ لمــاذا لم يُنظَّر لهذه المسألة بما يليق بأهميتهـا؟ أين هي النـدوات الـتي تُعيد الاعتبار لهذا المصطلح القرآني، وتُصـر على اسـتعماله بـديلًا عن السُنّة؟ لا أحد يفعل ذلك، والسبب ببساطة أن الأمـر ليس إلا تبريرًا لحاجة ظرفية، وليس قناعة راسخة.

وصحيح أنه لا مشاحة في الاصطلاح عنـدما يكـون الاختلاف في التسمية نابعًا من تنوع التعبير بين البشر، كأن تسمي قبيلة معينة شيئًا باسم وتطلق عليه قبيلة أخرى اسمًا مختلفًا لكنه يـؤدي ذات المعـنى. لكن الأمـر هنـا مختلـف تمامًـا، فـالقرآن الكـريم – وهـو مصدر التشـريع الأعلى – هـو من اختـار هـذه التسـمية، وهـو من حددها بدقة، فكيف يُقال عندها إنه لا مشـاحة في الاصـطلاح؟ إن المشاحة هنـا قائمـة، بـل وجوهريـة، لأن التسـمية ليسـت مجـرد لفظ، بل دلالة على طبيعة المفهوم وحقيقته. فإذا كان الله تعالى قد سمّاها حكمة، أفلا يكون الأدق والأوجب اتباع اللفظ القـرآني؟ لمـاذا يتم القفـز على هـذا الاصـطلاح وفـرض مصـطلح آخـر لـه امتدادات مختلفة في التراث؟ إن التمسك بالسُنّة كمصطلح ليس عفويًا، بل هو جزء من بنية فكرية متكاملة، تحـرص على تكـريس المفاهيم السـائدة بغض النظـر عن مـدى اتسـاقها مـع النصـوص الأصلية.

والحقيقة أنهم لا يقولون بذلك عن قناعة حقيقيـة، وإنمـا فقـط للرد والانتصار في النقاش، فهم في الأساس مؤمنون بوحي ثــان إلى النبي، ولا يحتاجون القرآن ليثبت لهم وجـوده من عدمـه. هم

متصالحون مع هذه الفكرة لدرجة أن مخالفتها تبدو بالنسبة لهم خروجًا على المسلّمات، ولن يثنيهم النص القرآني ولا تسلسله ومنطقه عن قناعتهم هذه. ولذا، تراهم يتحدثون عن الحكمة باعتبارها مرادفًا للسُنّة حين يجدون في ذلك حجة ضد من ينكرها، لكنهم لا يعتمدون هذا التفسير في بنيتهم الفكرية الداخلية، ولا في خطابهم العلمي والمنهجي. فكيف يطلبون من الناس اتباع مصطلح معين ثم لا يستخدمونه هم أنفسهم؟ إن هذه الانتقائية تكشف عن خلل منهجي عميق.

وما ينبغي التأكيد عليه أن مفردة "الحكمة" لا علاقة لها بالسُنّة بمعناها المصطلحي المتداول، وإنما قد تتضمن أفعال الرسول وأقواله، لكن ليس باعتبارها وحيًا تشريعيًا موازيًا للقرآن، وإنما بوصفها اجتهادًا ونورًا في طريق الهداية. فالحكمة كما نفهمها وكما يوردها القرآن هي جوهر الفهم، وهي زبدة العقل الإنساني المستنير، وهي خلاصة التجربة الهادفة إلى الخير. الحكمة هي البصيرة التي تضع الأمور في نصابها، وهي القدرة على الحكم الصائب في المواقف المختلفة، وليست مجرد أقوال وأفعال تُنقل من غير تمحيص، ثم تُفرض كتشريع ملزم للأمة عبر الزمن.

وحين يرد ذكر الحكمة في القرآن الكريم، فإنها تأتي دومًا مقرونة بأمور تعزز من طبيعتها العقلية العميقة، لا بوصفها نصوصًا جامدة أو أقوالًا محصورة في سياق زمني معين. فحين يقول الله تعالى: "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"، فالمقصود هنا تعليم جوهر الكتاب وروحه ومقاصده، لا مجرد تلقين نصوص دون إدراك حقيقي لمغزاها، والواو التي تربط بين الكتاب والحكمة ليست واو عطف حتى تقتضي المغايرة وإنما واو تمييز، فالحكمة عنصر مميز في كتاب الله تعالى، وذلك يشير إلى عمقها وتفرّدها كمعيار للتمييز بين الحق والباطل.

ومن هنا، يتجلى الفرق بين الحكمة والسُنّة كما تُطرح في الخطاب التقليدي؛ فالحكمة شيء أعمق وأشمل، وهي ليست مجرد نصوص تتوارثها الأجيال بلا مراجعة، بل هي قيمة عليا يسعى المؤمن إلى تحقيقها من خلال إعمال عقله واستنارة قلبه.

أما محاولة اختزالها في مفهوم السُـنّة وفـق الدلالـة المصـطلحية المتأخرة، فهو افتئات على معانيها الحقيقية التي يعززها القرآن.

وهكذا، فإنّ الإصرار على جعل الحكمة مرادفة للسُــنّة ليس إلا محاولة لحشر المصطلحات في قوالب جاهزة تخدم أطرًا فكريــة مسـبقة، لا تنبـع من النص القـرآني بقـدر مـا تنبـع من منظومـة تقليديـة أُريـد لهـا أن تظـل مهيمنـة. إن البحث عن الحكمـة هـو البحث عن النــور، بينمــا التمســك بالمصــطلحات دون مســاءلة حقيقية هو تكريس للجمود الفكري. فهل نحن نبحث عن الحكمــة كما جاءت في القرآن، أم أننا نريد فقط الانتصار لمفاهيم ســابقة دون فحص ولا تمحيص؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي لا بـد من طرحه بإلحاح، والإجابة عليه بصدق وتجـرد، وقـد آتى اللـه تعـالى نبيه الكريم الحكمة كما آتاها غيره، مثل لقمان وداوود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12]

وقال تعـالى- في الحـديث عن داوود-: ﴿وَشَـدَدْنَا مُلْكَـهُ وَآتَيْنَـاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: 20]

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269]

فهـل آتى اللـه تعـالى داوود ولقمـان (السُـنّة) أم آتـاه الحكمـة بمفهومها العام؟

وفوق كل هذا الوضوح فقد حرص القرآن أن يــبين أطرافــاً من الحكمة في قوله تعالى:

1. لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً
2. وَقَضَـى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُـدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَـا وَقُـل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا
3. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَـا كَمَـا رَبَّيَانِي صَغِيرًا
4. رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَـا فِي نُفُوسِـكُمْ إِن تَكُونُـواْ صَـالِحِينَ فَإِنَّهُ كَـانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا

5. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا
6. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا
7. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا
8. وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا
9. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا
10. وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئاً كَبِيرًا
11. وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً
12. وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا
13. وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً
14. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً
15. وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً
16. وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً
17. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا
18. **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا

سنلاحظ هنا بوضوح في الآية الخاتمة للآيات أعلاه أن ذلك من الحكمة التي آتاها الله تعالى لنبيه الكريم، ومن مقتضيات هذه الحكمة الإحسان إلى الوالدين وإيتاء ذي القربى والمساكين حقوقهم وعدم التبذير والقول الميسور وعدم البخل وعدم قتل الأولاد مخافة الفقر وعدم الاقتراب من الزنى وعدم قتل النفس

وعـدم الاقـتراب من مـال اليـتيم حـتى يبلـغ أشـده وإيفـاء الكيـل والوزن بالقسطاس المستقيم وألا نقـف مـا ليس لنـا بـه علم ولا نمش في الأرض مرحاً باختيال وغرور وتكبر.

هذا مما أوحاه الله تعالى إلى نبيه، سواء كان ذلـك في الكتـاب أو خـارج الكتـاب، لكنـه ليس تشـريعاً منفصـلاً كـوحي ثـان تحت مسـمى (السُـنّة)، فـالأوامر والنـواهي الـتي صـدرت عن النـبي الكريم خـارج كتـاب اللـه تعـالى وقتيـة ومرحليـة ومـا هي سـوى اجتهادات نبويـة نابعـة من فهم النـبي الكـريم لكتـاب اللـه تعـالى ودلالاته ومقاصده، وليست تشريعاً ثانياً موازياً لكتاب الله تعــالى، وينبغي علينا اليوم أن نجتهد فنبينا اليوم هو العقل والمنطــق، وألا نقف عند هذه الأوامر النبوية باعتبارها تشريعات سماوية أبدية.

خذ مثلاً قول النبي الكريم: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون"، بمعنى أن من يقوم برسم أو نحت أي كائن حي فهذا حرام، وهذا الحديث –إن صح- قد ورد للتحذير الشديد ممن ينحتون الأصنام في وقت كانت الأصنام ما تزال تشكل فتنة، فهي آلهتهم التي هجروها منذ زمن قصير، وقد تحن النفوس إليها لتعلق البشر وقتها بالحسّيات، ونلحظ هذه الفتنة في بني إسرائيل الذين خرجوا مع سيدنا موسى، وعندما مروا على قوم يعبدون الأصنام طلبوا من سيدنا موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهذا القوم إله من حجر.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]

لذلك فإن نهي النبي الكريم عن نحت الأصـنام كـان لعلـة وهي حماية من دخلوا في الدين الجديـد من النكـوص والوقـوع في فخ عبادة الأصنام مجـدداً، ولم يُقصـد منـه تحـريم التماثيـل والرسـم والتصوير كفن، وطالما انتفت العلّة اليوم كلياً فلا خوف عليك من فتنـة وجـود تماثيـل أو لوحـات في بيتـك، وهـذا مـا لم يسـتوعبه الفقهاء، فهم يتخذون من حديث النبي الكريم تشريعاً إلهياً مُلزماً سواء أدركنـا الحكمـة منـه أم لم نـدرك، ومـا تسـاهلوا في الأمـر

بعض الشـــيء إلا عنـــدما احتـــاجوا هم أنفســـهم للظهـــور في الفضائيات، فسكتوا عن فتاوى تحريم تصوير الكاميرات والفيديو.

وسـتلحظ من مجمـل الأمـر والنهي النبـوي أن هـذه الأحكـام مجرد اجتهادات نبوية تصلح لزمانها ومكانها ولا تسري عليها صفة التشريع السماوي أو يترتب عليها تحليل أو تحريم، وهنـاك الكثـير من الأمثلة على ذلك ففي رواية منسوبة إلى النـبي : "من أحيـا أرضاً ميتة فهي لـه"، وهـذا الحـديث اجتهـاد نبـوي يتعلـق بملكيـة الأراضي غير المستغلة، حيث يمنح من يحيي أرضًا مهجـورة حـق تملكها، وهو بلا شك اجتهاد وقتي ومرحلي نبوي اقتضته الظروف يهدف إلى تشـجيع النـاس على إحيـاء الأرض وزراعتهـا، في زمن لم تكن هناك ملكية رسمية لكل الأراضي المحيطة بالقرى ، ففي بدايــة الدولــة الإســلامية، كـانت هنـاك حاجــة ملحّـة لاستصـلاح الأراضي المهجورة وزيادة الإنتاج الـزراعي لتـأمين مـوارد العيش للمسلمين، خاصة مـع توسـع رقعـة الدولـة واحتياجهـا إلى تنظيم المـوارد بشـكل أكـثر فاعليـة، لـذلك، كـان من الضـروري تحفـيز الناس على استثمار الأراضي غير المستغلة عبر منحهم الحق في تملكها إذا قاموا بإحيائها، واليوم تغيرت الظـروف بشـكل جـذري، ولم يعــد منح الأراضــي بهــذه الطريقــة ممكنًــا أو منطقيًــا، لأن الأنظمة الحديثـة تعتمـد على قـوانين تملـك الأراضـي والتخطيـط العمـراني، الـتي تأخـذ بعين الاعتبـار اعتبـارات اقتصـادية وبيئيـة واجتماعية أوسع. فلو تم تطبيق هذا الحديث بحرفيته اليـوم، لأدى إلى فوضـــى في توزيـــع الأراضـــي وتعـــدٍّ على الأملاك العامـــة والخاصة، مما يدل على أن هذا الحكم كـان تـدبيرًا مرحليًـا يخـدم مصلحة المجتمع في ذلك الوقت وليس تشريعًا.

وهناك رواية أخرى منسوبة إلى النـبي : "من قتـل قـتيلاً فلـه سلبه"، بمعنى من يقتل عـدواً في المعركـة فـإن مـا يحملـه هـذا العــدو من متــاع أو مــال أو ســلاح هــو من حــق من قتلــه من المسلمين، وهذا الحديث ورد في سياق يتعلق بالغنائم في ساحة المعركة، وعند النظر إلى هـذا الحكم في سـياقه الزمـني، يتضـح

أنه لم يكن تشريعًا دائمًا، بل كان تدبيرًا عسـكريًا مرحليًـا فرضـته ظروف القتال في ذلك العصر.

في ذلك الـوقت، كـانت الدولـة الإسـلامية الناشـئة تعتمـد على جيوش غير نظامية، وغالبًا مـا كـان المقـاتلون يجهـزون أنفسـهم بأسـلحتهم الشخصـية دون دعم من خزينـة الدولـة، ممـا جعـل الحاجة إلى تحفيز الجنـود على القتـال أمـرًا ضـروريًا. وكـان منح الغنائم، بما في ذلك سلب القتيل، وسيلة لتعزيـز الـروح القتاليـة وتشجيع المقاتلين على مواجهة العدو بشجاعة.

اليوم، تغيّرت أنظمة القتال والحروب، حيث أصـبحت الجيـوش الحديثـة تعتمـد على تسـليح وتمويـل حكـومي منظم، ولم تعـد مسألة تحفيز المقاتلين بالغنائم قائمـة. كمـا أن القـوانين الدوليـة الحديثة تحظر نهب ممتلكات القتلى في الحروب، وتعتبره جريمة حرب، ولو تم تطبيق هذا الحـديث بحرفيتـه في العصـر الحـديث، لأدى إلى فوضى عسكرية وانتهاكات جسيمة للقوانين الإنسـانية.

وكذلك في الرواية: "من سبق إلى ما لم يسبق إليـه مسـلم فهـو له" التي تتناول مسألة تملك المـوارد غـير المسـتغلة، بمعـنى أن أي شخص يسبق غيره إلى امتلاك مورد غير مملوك سابقًا يصـبح من حقه. هـذا الحكم جـاء في سـياق تنظيم المـوارد في مجتمـع ناشئ يحتاج إلى تشجيع الأفراد على استثمار الأراضـي والمـوارد الطبيعية، خاصة أن الملكية في ذلك العصر لم تكن تُدار بقــوانين حديثة كمـا هـو الحـال اليـوم، وفي العصـر الحـديث، لم يعـد هـذا النظام مناسبًا، حيث أصبحت الملكيـات تخضـع للقـوانين المدنيـة والتشريعات الحكومية التي تنظم توزيع المـوارد لضـمان العدالـة ومنع الفوضى والاستغلال غير المشروع. فلو طُبـق هـذا الحـديث بحرفيته اليوم، لأدى إلى استيلاء الأفـراد على الممتلكـات العامـة والخاصة دون ضـوابط، ممـا يتعـارض مـع مبـادئ الإدارة الحديثـة والتنمية المستدامة.

ويتضـح لنـا وقتيـة الأمـر والنهي في الإرث النبـوي بجلاء في الرواية التي تقـول: ": "إذا ولـغ الكلب في إنـاء أحـدكم فليغسـله سبع مرات، إحداهن بالتراب"، فهذا الحديث يوجه المسلمين إلى

غسل الإناء الذي يلعقه الكلب سبع مرات، إحـداها بـالتراب، وقـد ورد في سياق النظافـة والطهـارة في بيئـة لم تكن فيهـا وسـائل التعقيم الحديثة متـوفرة. في ذلـك العصـر، كـانت الكلاب تتجـول بحريـة، وتعيش في أمـاكن مكشـوفة، وربمـا تحمـل أمراضًـا أو جراثيم تنتقل إلى الإناء، وكان الـتراب يُسـتخدم كوسـيلة طبيعيـة لتعقيم الأسطح بسـبب خصائصـه في امتصـاص المـواد العضـوية والبكتيريا ولكن اليـوم، ومـع التقـدم في علم الجـراثيم ووسـائل التنظيف الحديثة، أصبح من الممكن تطهير الأواني بمـواد معقمـة أكثر فاعلية من التراب، مثل الصابون والمطهرات الكيميائية. ولو كان الحديث تشريعًا ثابتًا مرتبطًا بالعبادة المحضة، لظـل الالـتزام بـه ضـروريًا رغم تـوفر وسـائل تعقيم أفضـل، لكن بمـا أن العلـة كانت الحفـاظ على النظافـة وتعقيم الأواني، فقـد انتفت الحاجـة إلى استخدام التراب مع توفر طرق أكثر فاعلية.

وكذلك في عهد النبي الكريم كان من الصـعب على المـرأة أن تسـافر لوحـدها وذلـك بسـبب صـعوبة الطريـق وانتشـار قطـاع الطرق وخلافه وكان تحذير النبي في الروايـة المنسـوبة إليـه: "لا تسافر المرأة مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم." بهـدف حمايـة المـرأة من مشـقة وخطـورة السـفر خاصـة في الصـحراء، حيث كانت القوافل تتعرض لقطاع الطرق والمخـاطر الطبيعيـة. وكـان وجود محرم مع المرأة ضرورة لضمان حمايتها وتأمين احتياجاتهـا أثناء السفر، أما اليوم فقد تغيرت ظروف السفر بشـكل جـذري، حيث أصـبحت وسـائل النقـل من طـائرات وقطـارات وسـيارات حديثـة أكـثر أمانـاً، وأصـبحت الـدول تـوفر أنظمـة أمنيـة لحمايـة المسـافرين، بغض النظـر عن جنسـهم. ولـو طُبـق هـذا الحـديث بحرفيته اليوم، لكان من غير المنطقي منع امرأة من السفر جـوًا لمسافات طويلة بمفردهـا، بينمـا يمكنهـا السـفر بأمـان أكـبر من رجل يسافر على ظهر جمل في العصور القديمة.

لا بـل امتـد الأمـر وتوسـع وصـارت ممارسـات النـبي الكـريم الحياتيـة جـزءاً من الـدين، وحـرص "المؤمنـون" على اتبـاع هـذه الممارسات حرفياً ظناً منهم أنها تشـريعات سـماوية أزليـة، ومن

ذلـك أمـور متعلقـة بالنظافـة والصـحة والعنايـة الشخصـية مثـل استخدام السواك، والذي حرص النبي الكـريم على الحض عليـه، وهذا مُبرر ومفهوم لصحة الفم في ذلك الـوقت، والآن مـع وجـود الكثير من البدائل مثـل فرشـاة ومعجـون الأسـنان صـار الاختيـار بيديك، واستخدام السواك لا علاقة له بالدين والأجر والإثم، كذلك ورد عن النبي الكريم أنه بال واقفاً وفي روايـات أنـه بـال قاعـداً، وهـذا لأنـه إنسـان فكـان يتصـرف بطبيعتـه البشـرية فقـد يبـول الإنسان واقفاً وقد يبول قاعداً فلا يعقل أن يتحـول هـذا إلى سُـنّة ودين، حـتى أنهم غـالوا في الأمـر فـذكروا أن النـبي الكـريم في قضـاء حاجتـه لم يكن يسـتقبل القبلـة أو يسـتدبرها وفي روايـة منسـوبة إليـه قـال: " لا تسـتقبلوا القبلـة بغائـط ولا بـول ولكن شرقوا أو غربوا ....."، والتي إن صحت نسبتها إلى النـبي الكـريم تكون قد صدرت عنـه في موضـع جغـرافي ربمـا قـريب جـداً من الكعبة، بينما في الواقـع الـراهن لا يُعقـل وأنـا في مركـز تسـوق مـــزدحم أن أبحث عن دورة ميـــاه تكـــون ضـــمن المواصـــفات الهندسية والفلكية الموافقة للروايـة وأن أتبحـر في علـوم الفلـك والبوصلة لأحرص على عدم استقبال القبلة أو استدبارها.

وكالعـادة تصـدت المدونـة الفقهيـة لهـذه الروايـة من أجـل تشـريعها وتبريرهـا والدندنـة حولهـا فصـدرت الفتـوى بتحـريم استقبال القبلة واسـتدبارها في قضـاء الحاجـة (البـول والغائـط)، وتلت ذلـك تفاصـيل كثـيرة ومنهـا ثبـات الحُرمـة في الخلاء، لكن هناك خلاف على قضاء الحاجة في البنيان فقد اختلـف "العلمـاء" في ذلك، فقال بعضهم بجواز قضاء الحاجة مسـتدبراً أو مسـتقبلاً القبلة في البناء وقـال آخـرون بعـدم جـواز ذلـك وأنـه يجب على المسلمين عدم الاستقبال وعدم الاستدبار حـتى في البنـاء، عملاً بالأحاديث العامة التي فيها التعميم وعدم التخصيص، بمعنى أنه لا يجوز الاستقبال والاستدبار مطلقاً في البناء والصـحراء، وتـرخص بعض الفقهـاء في الأبنيـة الـتي لا يوجـد فيهـا مـراحيض موافقـة للمعايير الفلكية فقالوا إن الإنسان معـذور لسـببين الأول متعلـق بكـون دورات الميـاه غـير مجهـزة لهـذا الحـدث الفلكي الـرهيب،

والثـاني لأنـه ثبت عن رسـول اللـه أنـه في بيت حفصـة قضـى حاجته مستقبل الشام مستدبر الكعبة كما رواه البخـاري ومسـلم في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قالوا: فهذا يدل على أنه لا بـأس باسـتقبالها واسـتدبارها في البنـاء، لأن الإنسان مستور بالأبنية، والأصل أنه يفعل ذلـك للتشـريع ويتأسـى بـه عليـه الصـلاة والسـلام في أفعالـه، فلمـا فعـل ذلـك دل على جوازه؛ لأنه قضـى حاجتـه على لبنـتين مسـتقبل الشـام مسـتدبر الكعبة، فهـذا يـدل على جـوازه في البنـاء لكن كونـه محرمـاً في البناء محل نظر؛ لأن الأصل عدم التخصـيص بـه ، ثم عـادوا إلى تعقيد المسألة مرة أخرى فقالوا يحتمل أن يكون هذا قبل النهي، ويحتمل أنه خاص به عليه الصلاة والسلام، فلهذا لا يكون التحريم فيه مثل التحريم في الصـحراء، فـالأولى بـالمؤمن أن لا يسـتقبل في الصــحراء ولا في البنــاء وألا يســتدبر، وهكــذا بين كــر وفــر سنقضـي أعمارنـا والمدونـة الفقهيـة هـذه تسـتهلك كـل أوقاتنـا وأعمارنا وتستنزف عقولنا بلا طائل يذكر.

بشكل عام علينا أن نعلم أن التراثيين بكافـة أطيـافهم يتكئـون دوماً على القرآن الكريم فقط لإثبـات قناعـات مترسـخة عنـدهم أصـلاً من الروايـات، فعقيـدتهم بشـكل كلي تقريبـاً قائمـة على الروايات، ودينهم دين روايات فعنـدما تطـالبهم مثلاً بـدليل واضـح من كتاب الله تعالى على وجود عذاب القبر، سيردون عليـك بآيـة آل فرعــون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُــونَ عَلَيْهَــا غُــدُوًّا وَعَشِــيًّا وَيَــوْمَ تَقُــومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]، ولسنا بصدد نقـاش وجـود عـذاب القـبر من عدمـه تفصـيلاً، لكنـه -أي عـذاب القــبر- لــو كــان حقيقــةً قائمــة فإنــك ســتجد عشــرات الآيــات الواضـحات المُحكمـات الـتي تتحـدث عنـه، إذ لا يُعقـل أن يغفـل الكتاب الكريم عن هذه الحياة البرزخية طويلـة الأمـد فلا يـذكرها إلا تلميحاً وخجلاً في آية مثل آية آل فرعون في سورة غافر، ولــو سألتهم عن صحة وجود المهدي سيقولون لك (ولكـل قـوم هـاد)، ولا أدري أين المهدي في الآية؟

ولو طلبت منهم دليلاً على وجود شفاعة خاصة لسيدنا محمد سيقولون لك: "ولسوف يعطيك ربك فترضى"

يؤمنون بالرواية فقط، وإياك أن يغرّك استشهادهم بالآيات، فالآيات هنا لا تخص الموضوع لكنهم يستدعونها لتقف شاهد زور- وحاشا لله- على أبواب محاكمهم.

والحقيقة أنه ينبغي على المسلم أن يأخذ عقيدته ومقتضيات إيمانه من القرآن الكريم فقط، الذي أنزله الله تعالى تبياناً لكل شيء، وهو وحي السماء التشريعي الوحيد إلى النبي الكريم، وخذ مثلاً عقوبة الزاني فهي الجلد في القرآن الكريم سواء كان الزاني أعزباً أو متزوجاً، ويظل تطبيقها منوطاً بالفهم الزمني والسقف المعرفي وهل هي تشريع أزلي أم خلافه، أما المدونة الفقهية فلها رأي وتفصيل آخر، فهناك عقوبة للزاني الأعزب وردت في كتاب الله تعالى وهي الجلد، وهناك عقوبة أخرى أشد وهي الرجم حتى الموت للزاني المتزوج، ولا أدري لماذا لم يوثق الله تعالى هذه العقوبة الأشد في كتابه وتركها لذمة الرواة والتاريخ؟ هل همس الوحي في أذن النبي اليمنى بآية الجلد وقال له هذه لكتاب الله تعالى، وهمس له في أذنه اليسرى برواية الرجم وقال له هذه لكتاب البخاري؟

ومع كل هذا نقول إنه لا بأس من توثيق الأحاديث والروايات النبوية والسعي إلى تدقيقها قدر الإمكان ولكن بشرط أن تكون زاوية النظر إليها على أنها تاريخ واجتهادات نبوية نتعلم منها الحكمة ونتعرف من خلالها على الحاضنة التي نزل فيها كتاب الله العظيم، لا أن نعتبرها تشريعات سماوية مُلزمة لنا، ومستقلة عن كتاب الله تعالى، بخلاف ما جرت عليه الحال تاريخياً من توثيق للحديث ليكون مصدراً تشريعياً مقارعاً لكتاب الله تعالى وموازياً له في القداسة والأهمية لا بل ومتفوقاً عليه.

هذه كانت جريمة كبرى والجريمة الأخرى هي تحريف هذه الأحاديث والروايات لتناسب الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لفترة التدوين، ولك أن تعود إلى التاريخ لتطلع على بعض القصص في هذا المجال، ومنها قصة مرسوم الخليفة

المتوكل الذي قضى بترك النظر والبحث في الجدال، وترك ما كان عليه الناس أيام المعتصم، وأمر الناس بالتقليد والاتباع والتسليم، كما أمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة، ووقتها كانت سلطة المتوكل مطلقة ومخيفة، ويتضح من المرسوم الأمر بالرواية والنقل والتحديث لتنصيب السنة والجماعة رسمياً في مواجهة العقل والاجتهاد والعقل والحرية، والهدف الأساسي من ذلك تحييد المعتزلة، وبالتالي إقصاء العقل والتدبر ليكون للنقل والحفظ الصدارة، لذلك استقدم المتوكل المحدّثين إلى سامراء وأجزل لهم العطايا وأمرهم أن يُحدّثوا بأحاديث الصفات والرؤية، وإزاء هذه العطايا والمغريات لم يتردد المحدّثون في تأليف وتوليف الروايات، حيث جلس أبو بكر بن أبي شيبه –كما ورد في كتب التاريخ- في جامع الرصافة أمام 30 ألف وأخوه في جامع المنصور وأمامه 30 ألف وبدأوا في الدعاء للمتوكل وبالغوا في الثناء عليه[1]، ووصف أهل الحديث المتوكل – وهو طاغية معروف – بأنه هو الذي أحيا السُنّة، لا بل شاهدوه في مناماتهم وقد غفر الله له كل ذنب بفضل إحياءه للسُنّة. قال علي بن إسماعيل رأيت جعفر المتوكل في النوم وهو في النور جالس، فقلت: المتوكل؟ قال: نعم المتوكل، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قلت بماذا؟ قال: بقليل من السُنّة أحييتها[2]. وأمر المتوكل نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاء في مصر لأنه معتزلي وأن يضربه ويطوف به على حمار[3]، في تلك الفترة تحديداً ظهرت كتب الحديث الستة الشهيرة للبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابي داود والنسائي.

وكذلك نستذكر ما حدث خلال عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (786-809م)، حيث لعبت الروايات والأحاديث دورًا أساسيًا في تثبيت شرعية الحكم وتعزيز سياسات السلطة

---

[1] جلال الدين السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، الجزء الأول، صـ252–253.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء 11، ص358.

[3] جلال الدين السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، الجزء الأول، ص 253.

القائمة.، حيث كان البرامكة، وهم أسرة فارسية قوية، يشغلون مناصب حساسة في الدولة العباسية، خاصة خلال حكم هارون الرشيد، إذ كانوا مسؤولين عن الإدارة المالية والسياسية والعسكرية للدولة. غير أن هذه القوة أثارت مخاوف الخليفة، فقرر التخلص منهم في ما عُرف بـ"نكبة البرامكة" عام 803م[1]
وحدّث بختيشوع الطبيب قال[2]: دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السّلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، قال: فنظر الرّشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد، فقال: جزى الله يحيي خيرا! تصدّى للأمور وأراحني من الكدّ، ووفّر أوقاتي على اللّذة، ثم دخلت إليه بعد أوقات وقد شرع يتغيّر عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: استبدّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلّا اسمها؟ قال: فعلمت أنّه سينكبهم ثمّ نكبهم عقيب ذلك.
لكن، لم يكن القضاء عليهم مجرد قرار سياسي أو إداري فقط، بل احتاج هارون الرشيد إلى غطاء ديني لتبرير ما فعله. هنا جاء دور المحدّثين ورواة الحديث، الذين وظّفوا الأحاديث والتفسيرات الدينية لتصوير البرامكة كخطر على الإسلام والدولة، وأطلقوا روايات تربطهم بالمجوسية والمؤامرات ضد الخليفة، حتى بدا للناس أن قتلهم كان ضرورة دينية وليس مجرد صراع سياسي.

على سبيل المثال، ظهرت أحاديث تحذر من الوثوق بالفرس، وتربطهم بالكفر والنفاق، وجرى توظيف حديث "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده" في هذا السياق، للإشارة إلى أن الفرس انتهى دورهم في الإسلام، وأن وجودهم في مناصب قيادية قد يكون تهديدًا للدولة الإسلامية. كما انتشرت قصص تشير إلى أن البرامكة كانوا يسعون للسيطرة على الخلافة، مما ساعد في تقبل العامة لإبادتهم دون اعتراض.

---

[1] حسين مؤنس، *تاريخ الخلفاء الراشدين والتابعين والدول الإسلامية المتعاقبة*، دار الفكر العربي، 1996، ج 3، ص 345.

[2] كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقي، ص207

هذه الحادثة توضح كيف أن الأحاديث لم تكن دائمًا نصوصًا دينية خالصة، بل تم استخدامها أيضاً كأداة سياسية لتصفية الخصوم وإعادة تشكيل الوعي الجماعي. وهنا تتجلى عدة دلالات:

1. توظيف الدين في السياسة: استخدمت السلطة الأحاديث لضرب أعدائها وإضفاء الشرعية على قراراتها، سواء بالقمع أو العزل أو حتى القتل.

2. إعادة تشكيل الفكر الشعبي: لعب المحدّثون دورًا مهمًا في الترويج للروايات التي تخدم السلطة، مما أدى إلى طمس الحقيقة التاريخية وتحريف النظرة إلى البرامكة من رجال دولة أكفاء إلى خونة ومتآمرين.

3. هيمنة الرواية الرسمية: كما حدث لاحقًا في عصر المتوكل، أدى توجيه التحديث والتدوين وفقًا لرغبات السلطة إلى تعزيز الرواية الرسمية وتغييب الأصوات الأخرى التي قد تروي الحقيقة بشكل مختلف.

4. القضاء على تيارات فكرية معينة: كانت نكبة البرامكة بداية لانحسار النفوذ الفارسي في الدولة الإسلامية، لكنها أيضًا مثلت ضربًا للتنوع الفكري والإداري، حيث تم تهميش الفئات غير العربية، وإعادة تركيز السلطة في يد العرب بشكل أكبر.

كما استُخدمت الأحاديث لاحقًا لترسيخ مذهب أهل الحديث وإقصاء المعتزلة في عصر المتوكل، فقد استُخدمت في عصر هارون الرشيد لضرب البرامكة، ما يؤكد أن التدوين والرواية لم يكونا مجرد عملية دينية بحتة، بل كانا في كثير من الأحيان انعكاسًا للصراعات السياسية والمصالح السلطوية.

والحقيقة أنه لا تشريع خارج كتاب الله تعالى، وحتى النص القرآني فينبغي التعامل معه بمرونة وفهم للمقاصد التي أرادها الشارع، فالخطاب القرآني في الأساس هو خطاب محلي والمرونة دوماً مطلوبة في التمييز بين التشريعات الثابتة التي لا تقبل التجديد مثل (حُرمت عليكم أمهاتكم)، (حُرمت عليكم الميتة)، فهذه أبدية لا نقاش فيها، ولاحظ أنها تُستهل بلفظة

التحريم، أما التشريعات الأخرى مثل جلد الزاني واللعان والظهار وقطـع يـد السـارق وأحكـام ملـك اليمين، الخ، فهي تشـريعات مرحلية محلية، فالدولة العصـرية الفاضـلة هي تلـك الـتي تسـعى دومـاً إلى التجديـد، اسـتناداً إلى حزمـة من الاخلاقيـات والأصـول الإنسانية الثابتة، مع الاستمرار في تعـديل التشـريعات والقـوانين بما يتفق مع مصالح الأفراد والمجتمع، وما يتناسب مـع الظـروف السياسية والاقتصادية للدولة.

أما نحن فَخَدمٌ للنص نَقتُل ونُقتل لأجله، متناسين أن هـذا النص نزل بالأساس لخدمة الإنسان ورفعته ورفاهيته، وما تناقض النص مع مصلحة الإنسان ورحلـة تقدمـه إلا في عقـل الفقيـه المـريب، وهي ليسـت دعـوة للتمـرد على النص بقـدر مـا هي دعـوة لفهم النص بمقاصده لا بحروفه، والخروج من حالة الوصـاية كمـا يـرى كانط في تعريفه للحداثة، وكما يرى المفكر كمـال أبـو ديب حيث يعتبر أن الحداثة هي وعي الزمن بوصفه حركة متغيرة.

وعلينا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال:

هل عندما فرض الله تعالى هـذه الأحكـام الشـرعية مثـل جلـد الزاني واللعان والظهار وقطع يد السارق قصدها لتكـون مرحليـة تناسب ظروف تنزيل الرسالة أم أن أحكامه هذه – اسـتغفر اللـه – لم تكن حداثيةً بما فيـه الكفايـة؟ هـل اللـه تعـالى مقاصـدي أم حرفي في أحكامه؟ هل فكرة قطع يد السارق –مثلاً- تتناسب مع قوانين زماننا اليوم؟

تخيل قيام مجتمع مسلم صغير داخل الدنمارك مثلاً، والحكومـة الدنماركيـة سـمحت لهم بممارسـة طقوسـهم وأحكـامهم، فهـل يصلح لهؤلاء المسلمين أن يقطعوا يد سـارق مسـلم أمـام مـرأى العامة في الدنمارك؟ ألن يعتبر المجتمع الدنماركي ذلك قمة في الوحشية والتحجر؟ فلماذا عجز النص الإلهي هنا عن المواكبة هنـا –هذا إن عجز؟

للخـروج من هـذا المـأزق رأى بعض اللسـانيين المعاصـرين أن القطع في آيـة قطـع يـد السـارق ليس المقصـود منهـا البـتر وأن هنـاك فـرق بين القطـع والبـتر ولـو أن اللـه تعـالى قصـد البـتر

لاستخدم لفظة البتر وليس القطع لأن القطع في القرآن يحمل معان ودلالات واسعة لا تنحصر في البتر، وعليه فإن العقوبة هي المنع هنا، فالقطع هو المنع وعقوبة السارق تكون في منعه من السرقة سواء كان ذلك بالحبس أو توفير فرصة العمل الشريف أو الصدقة.

وهذا الطرح إنساني وجميل وفيه مخرج من الاصطدام الذي وقع فيه ظاهر النص القرآني مع الفطرة الإنسانية والمنطق العقلي، فبتر يد السارق بالإضافة إلى كونها عقوبة قاسية فإنها لا تخدم المجتمع لأنها ستؤدي إلى إرباك وتعطيل وفوضى وتفكك أسري وعِول، إذ أن رب الأسرة السارق الفقير أصبح الآن كتلة معطلة وعبئاً على أسرته التي كانت تعتمد عليه في معيشتها، وهذا سيدفع بأطفاله إلى الانحراف والتيه والانجراف. هذا مخرج من الحرج الذي قد يقع في حال تطبيق الحكم، لكن في الوقت نفسه علينا أن نُقر ونعترف أن القطع –كمُفردة- تشمل معنى البتر، فمن فهم القطع بمعنى البتر لا نستطيع لغوياً أو دلالياً أن نقول إنه مُخطئ، ولكن نقول إن الآية نزلت بهذه المفردة الغنية لتترك للناس التحاكم بحسب ظروفهم وبيئاتهم فالكتاب نزل في بيئة موحشة وقاسية وكانت السرقة والغزو مصدراً من مصادر المعيشة الثابتة عند الكثيرين، وجاء القرآن الكريم ليمنع هذا السلوك بصرامة، ولكنه استخدم لفظة ثرية تنطوي على مدلول مرن فمن اختار القطع بمعنى المنع جاز ومن اختار القطع بمعنى البتر جاز في وقته.

إن فهمنا الحقيقي للقرآن لا يمكن أن يستقيم بدون أن نعرف أن هذا الكتاب نزل بخطاب محلي خالص ودلالات عالمية، وهذا الخطاب المحلي الموجه إلى قوم النبي في زمن النبي قد لا يتناسب مع معطيات عصرنا إن تناولناه بشكل حرفي مبتعدين عن المقاصد والمرامي العامة.

صحيح أننا لسانياً نجحنا في إيجاد مخرج لمأزق بتر اليد، لكننا في حالات أخرى لن نفلح لسانياً في ذلك، وخذ مثالاً على ذلك

جلد الزاني 100 جلدة، فهذا الحكم أيضاً لا فكاك منه في حال تمسكنا بالنص بحرفيته، ولا مناص من التهرب منه منعاً للحرج.

فهل يعقل أن النص الإلهي لم يدرك أننا يوماً سنتحرج من هذه العقوبة؟ أم أن هذا النص نزل فعلاً بأدوات محلية وخطاب محلي ودلالات عالمية وكأنما يقول لنا: هذا ما ينفعهم في زمانهم فاتخذوا لزمانكم ما ينفعكم؟

النص السماوي في ظاهر أحكامه وتشريعاته قد يقف كمانع أو حائل لتطور المعرفة الإنسانية، ولولا العقل المستقل الحر لما انتظمت المعرفة الإنسانية ولا تولدت الأفكار، لذلك لن تجد كاهناً مخترعاً على مر التاريخ، لأن الكاهن عابد للنص وخادم له، يقوم حيث يقوم ويقعد حيث يقعد ويشرق حيث يشرق ويغرب حيث يغرب، وعلى هذه الاحكام أن تتجدد لتتناسب مع تطور العقل الإنساني، فما يصلح كحكم شرعي لابن البادية قبل 1400 سنة لا يصلح لفرد مستقل يعيش في أمستردام في القرن الحادي والعشرين، وهنا فإنني أتحدث تحديداً عن الاحكام الشرعية وليس الاخلاق والقيم، فتلك فطرية وثابتة ومطلقة كالرياضيات، والصبر والحلم والعفو والتسامح والكرم والعدل والعقل فضائل حرص القرآن على ترسيخها وتعزيزها لتكون صالحة لكل الناس في كل زمان ومكان. وفي هذا الصدد يمكن الاستشهاد بما قاله عبدالجواد ياسين: (مؤدى ذلك أن النص الديني "الصحيح" يتضمن ما هو مطلق ثابت يمكن وصفه بأنه من "الدين في ذاته، أي لا يجوز القول بتأبيده، لأن طبيعته النسبية المتغيرة سوف تفرض ذاتها في أرض الواقع بقوة الاجتماع وقانون التطور. الأخلاق الكلية وحدها هي التشريع أو القانون المطلق في الدين، وحين يقوم النص بإنزالها تطبيقياً على الواقع متبنياً خيارات اجتماعية فهو يعلن أن شقاً من البنية الدينية اجتماعي، وبالتالي قابل للتطور. يمكن تسمية هذا الشق بـ"الاجتماع المنصوص" وإلحاقه مجازاً بمفهوم التدين، من حيث هو كحصيلة التدين ناتج عن التفاعل بين الدين والاجتماع. المشكل هنا في تغافل العقل الديني عن حقيقة التنوع داخل بنية النص، ومن ثم، ربطه بين

مفهوم "النصية" ومفهوم "الإطلاق"، بحيث يصير كل نص مطلق، مما يعني توسيع دائرة المطلق، وهي ذات النتيجة التي يؤدي إليها فعل التدين).[1]

عند نزول الوحي، كانت التشريعات التي أتى بها الإسلام تتناسب مع بيئة الجزيرة العربية حيث القبائل، والعلاقات القبلية، والنظام الاقتصادي البسيط القائم على الرعي والتجارة. ومع توسع الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، خاصة بعد فتح بلاد فارس والشام ومصر، وجد الفقهاء أنفسهم أمام مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية معقدة لم تكن موجودة في مكة أو المدينة.

على سبيل المثال، كان النظام الاقتصادي الفارسي والروماني يقوم على الإقطاع والضرائب المنظمة، بينما كان الاقتصاد في مكة والمدينة يقوم على التجارة والغنائم. عندما فتح المسلمون هذه البلاد، كان السؤال المطروح: هل تطبق نصوص الشريعة –كما فُهمت وقتها-، أم يتم تكييفها لتناسب الواقع الجديد؟

أحد أبرز الأمثلة هو نظام الخراج، وهو ضريبة على الأراضي المفتوحة. في الجزيرة العربية، لم يكن هناك خراج لأن الأراضي كانت ملكية فردية أو قبلية، ولكن عند فتح العراق وفارس، وجد المسلمون أن هذه الأراضي كانت مملوكة للدولة الساسانية سابقًا، وكان الفلاحون يعملون فيها مقابل دفع الضرائب. وهنا ظهر الخلاف: هل توزع هذه الأراضي على الفاتحين كغنائم، أم تبقى كما هي ويُفرض عليها الخراج لصالح الدولة الإسلامية؟

عمر بن الخطاب، الذي أدرك أن توزيع الأراضي سيؤدي إلى انهيار النظام الزراعي، قرر الإبقاء على نظام الخراج، رغم أنه لم يكن منصوصًا عليه في النصوص التشريعية بشكل مباشر، بل كان استجابة للواقع الجديد. وهكذا، تم تطوير التشريع الإسلامي بناءً على العقل والمصلحة العامة، وليس فقط بالنص الحرفي.

ودلالات ذلك أن:

1. التشريع يتكيف مع الواقع

---

[1] عبدالجواد ياسين، كتاب الدين والتدين – التشريع والنص والاجتماع، ص 8-9، مؤسسة مؤمنون بلا حدود

كما احتاج المسلمون إلى تطوير أنظمة جديدة مثل الخـراج، فإن الأحكام التشـريعية يجب أن تُفهم من حيث مقاصـدها وليس مجرد حرفيتها، وإلا فإنها قد تعيق التطور الاجتماعي والاقتصادي.

2. العقل الإنساني عنصر أساسي في التشريع

لو أخذنا نصوص الشريعة المتعلقة بالمال والتوزيع بحرفيتهـا فقط وكما فُهمت حينها، لكان علينا توزيع الأراضي المفتوحة على الفاتحين بدلًا من الحفاظ على نظام اقتصادي مستدام. لكن عمر بن الخطاب استخدم العقل والمصلحة العامة لتكـييف الحكم بمـا يناسب الظرف الجديد.

3. ما كان صالحًا للعرب الأوائل قد لا يكون صالحًا لغيرهم

كمـا لم يكن بالإمكـان فـرض الاقتصـاد القبلي المكي على العراق وفارس، فإن الأحكام التي كانت مناسـبة لقبائـل الجزيـرة قـد لا تكـون مناسـبة لإنسـان يعيش في مجتمعـات حديثـة مثـل أمستردام أو طوكيو اليوم.

4. الفصل بين الثوابت والمتغيرات

القيم الأخلاقيـة مثـل العـدل والكـرم والتسـامح بقيت ثابتـة، لكن الأنظمة الاقتصادية والإدارية تغـيرت. وهـذا يعكس فكـرة أن هناك فرقًا بين القيم الدينية المطلقة والأحكام الشرعية المتغيرة حسب الزمان والمكان.

مثال نظام الخراج في الفتوحات الإسلامية يوضح أن النصـوص التشريعية ليست قوالب جامدة، بل تتطلب قـراءة عقلانيـة مرنـة تتناسـب مـع كـل عصـر. ولـو أن المسـلمين تمسـكوا بالحرفيـة وحدها، لما اسـتطاعوا إدارة المجتمعـات الجديـدة الـتي فتحوهـا. وهذا يؤكد أن الخطـاب القـرآني كـان محليًـا في تشـريعاته لكنـه عالمي في مقاصده، مما يسمح لنا اليـوم بتطـوير أحكـام جديـدة تناسب العصر، دون الإخلال بالجوهر الأخلاقي للدين.

الباب الثاني:

في فقه التشريع

1. الحلال والحرام في القرآن:

لا تحريم خارج القـرآن. هـذه هي القاعـدة الـتي لـو الـتزم بهـا الفقهاء والمحدثون من مئات السـنين لاسـتراحوا وأراحـوا، لـذلك ستجد في السـنة أوامـر ونـواهي نبويـة كثـيرة، والـتي إن صـحت نسبة بعضها إلى النبي الكريم فإنها تظل مجرد أوامر ونواه وقتية واجتهادية وليست تشريعات من السماء.

وعلينا أن نفهم مصطلح الحرام أولاً لكي نميز بينه وبين الأوامر والنواهي والإرشادات وغيرهـا، فـالحرم الجـامعي مثلاً هـو مكـان معين لا يجـوز المس فيـه وانتهاكـه، فهـو المكـان المقـدس أو المحمي، وكذلك الحـرم المكي والمـدني فهي أمـاكن مقدسـة لا يجوز انتهاكها بأي حال.

فما ارتبـط بـالحرام في الكتـاب فلا مرونـة واجتهـاد فيـه، وفي قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) لن نحاول فهمهـا وتأويلهـا على أنهـا مجـرد إرشـاد وإنمـا هي نهي قـاطع لا مرونة فيه، وكما قال الكثير من المعاصرين فـإن الحـرام سـلطة إلهية مطلقة لا يجوز لأي بشر أن يضيف إليها أو يُنقص منهـا، أمـا ما ورد عن نبينا الكريم من أوامر أو نواه فهي لا تعدو كونها واحدا من اثنين: إما مـا كـان يحرمـه على قومـه اتباعـاً للقـرآن فيحـرم عليهم الخنزير مثلاً، لكن بصفته ناطقـاً للقـرآن لا بصـفته شـارعاً لأن الشارع الوحيد هو الله سبحانه وتعالى، وإمـا أن يكـون أوامـر ونواهي واجتهادات نبوية خارج القرآن تتناسـب والظـرف والبيئـة المحلية وقتها، ووجب على قومـه إطاعتـه في هـذا، وهـذا معـنى قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول...) فهي خطـاب لقـوم الرسول الكريم الذين عاصروه كما تم توضيحه سابقاً.

ويوضح عبد الجواد ياسين ذلك في كتابه (الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع) حيث يقول[1]: *"آيات الدين... هي الجديرة وحدها باسم الدين، وأنها ذات الطابع المطلق المقدس واللازماني. أما آيات التشريع فرغم أنها منصوصة؛ أي واردة في*

---

[1] ياسين، عبدالجواد (2014). *الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع*، دار الثقافة، القاهرة، ص45

النص، إلا أن فاعليتها لا استمرارية لها، بل هي محدودة الإلزام تخاطب المعاصرين للوحي فقط دون غيرهم"، وهذا يضيف إلى التأكيد على أن القرآن المصدر الوحيد للتشريع كمّاً واعياً من المرونة في التعامل مع هذا التشريع القرآني، فآيات التشريع – بحسب ياسين- ليست مطلقة وأزلية وإنما نزلت تعالج مشكلات محددة في وقتها وعلينا التعامل معها اليوم بحسب معطياتنا وظروفنا.

هذا السعار الفقهي الذي استهلك مجهودات العلماء في الماضي واستمر إلى يومنا هذا بتراكم مُرهق جداً له أسبابه السياسية والتاريخية كما يوضح ذلك عبدالجواد ياسين في كتابه (*السلطة في الإسلام)*، حيث يناقش مصادر التشريع الإسلامي التقليدية، مثل القرآن والسنة والإجماع والقياس، ويُظهر كيف أن هذه المصادر قد تأثرت بالظروف السياسية والاجتماعية التي سادت في العصور الإسلامية الأولى، كما يشير إلى أن العقل الفقهي التقليدي قد أسهم في تكريس هذه المصادر، مما أدى إلى تقييد الاجتهاد والتطور الفقهي[1]: "*طغيان الدور الذي أداه التاريخ السياسي في تكوين العقل المسلم لا يتمثل في مزاحمته للنص الشرعي الخالص فحسب، بل يتمثل أيضًا في تصنيعه لجزء من بنية هذا النص*".

---

[1] ياسين، عبدالجواد (2014) *السلطة في الإسلام*، دار الثقافة، القاهرة، ص 112

ويستدل ياسين بمفهوم النسخ في القرآن كدليل على تاريخية التشريع الإسلامي، ووجوب تطور التشريعات وعدم الوقوف عليها كنصوص ثابتة مطلقة، حيث يرى أن النسخ يُظهر كيف أن الأحكام الشرعية قد تغيرت بتغير الظروف، مما يُؤكد على ضرورة إعادة قراءة النصوص الشرعية في ضوء الواقع المعاصر، ففي كتابه (*الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع)*، يقول[1]:

"حضور النسخ في القرآن في آيات التشريع والأحكام دليل على الإقرار الإلهي بتطور البنى الاجتماعية للمجتمع".

ناهيك طبعاً عن سطوة الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع العربي قبل الإسلام، حيث يُشير ياسين إلى أن التشريع الإسلامي لم يكن منفصلًا عن هذه الأعراف والتقاليد، وفي كتابه (*السلطة في الإسلام)*، يُظهر التوافق بين العديد من الأحكام الشرعية مع الأعراف القبلية[2]: *"الاتصال الوثيق بين التشريعات القرآنية وتشريعات شبه الجزيرة العربية يدل على أن التشريع ليس جزءًا من بنية الدين، بل جزءًا من التدين".*

وفي مواجهة التحديات المعاصرة، يدعو ياسين إلى إعادة قراءة التشريع الإسلامي بما يتناسب مع متطلبات العصر، حيث يرى أن الفكر الإسلامي التقليدي قد عجز عن تقديم حلول فعّالة للمشكلات المعاصرة، مما يستدعي تجديدًا فكريًا وفقهيًا، ويؤكد ذلك في كتابه *الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع*، بالقول[3]:

"الواقع الاجتماعي في بيئة معينة كان دائمًا هو الذي ينتج القانون، ثم يعود فيفرض عليه أن يتغير كي يعكس التطور في

---

[1] ياسين، عبدالجواد (2014) *الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع*، دار الثقافة، القاهرة، ص50

[2] ياسين، عبدالجواد (2014). *السلطة في الإسلام*، دار الثقافة، القاهرة، ص118

[3] ياسين، عبدالجواد (2014). *الدين والتدين: التشريع والنص والاجتماع*، دار الثقافة، القاهرة، ص60

حاجات وعلاقات البشر تبعًا للتغير الدوري في الظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والعقلية".

والأمر نفسه ينطبق على التحليل –عكس التحريم- فلو أحلّ النبي شيئاً فإنما فعل ذلك استناداً إلى كتاب الله تعالى، وليس استناداً إلى وحي ثان مستقل عن القرآن، فرب الحلال والحرام واحد، ووحيهما واحد، وكتابهما واحد وهو القرآن العظيم.

المنطق في هذا بسيط، وهو أن الله تعالى لا يمكن أن يترك تشريعاً يتضمن تحريماً خارج حدود القرآن الكريم، بل حفظ هذه الحدود وصانها بتوثيقها في كتابه الكريم، وما سوى ذلك مساحة واسعة من الحلال والحرية، التي يقننها المنطق والعدل والقانون واجتناب الطاغوت.

وسيدنا محمد بلا شك إنسان عظيم وإلا لما اختاره الله تعالى ليكون خاتم الأنبياء وليحمل رسالة تتسم بخواص تميزها عما سبقها وهي العالمية والتجريد وإحكام العقل، وهو ليس ساعي بريد كما أراد له دعاة (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)، وهو ليس معصوما من الزلل كما أراد له دعاة (اكتب فو الذي بعثني بالحق لا ينطق هذا إلا حقا).

سيدنا محمد عظيم ببشريته واجتهاده وتحكيمه لعقله واستنباطه من القرآن، سيدنا محمد عظيم بصبره على الأذى وحكمته في الدعوة ونجاحه في نقل بذرة رسالة الإسلام النقية إلينا، وعظمة رسالته هي في كونها بذرة تحتاج من ينميها ويبني عليها فهي ليست رسالة جاهزة منغلقة وإنما رسالة واعية وناضجة تقدم للناس أُطُراً يفكرون خلالها بمنتهى الحرية والرشد. إنها إيذان بنهاية عصر الأنبياء وانطلاق عصر العقل.

وهذا ما يجعلنا نتفهم حرص النص القرآني على ترشيد الحرام والنهي وفتح باب الحلال تاركاً إياه لقرار المؤسسة المدنية وهذه أول رسالة سماوية وآخر رسالة تمنح المؤسسة المدنية والعقل هذه الصلاحيات الكبرى ما يجعلنا نفهم سر بقاء النص القرآني بدون تفسير نبوي قاطع لأن النبي الكريم لو فسر القرآن لقضى عليه في مهده.

غـير أن عقليـة المتعبـد بالنصـوص لا تتوقـف عن السـؤال عن الحلال وما دليله، وهذا عجزٌ عن إدراكٍ رسـالة الإسـلام ومقصـده الأعظم الذي ترك مساحة واسعة جداً للفرد كي يمارس فردانيته واستقلاليته.

والأسلوب القرآني هو خطـاب للإنسـان الناضـج الـواعي الـذي يقدر الأمور بقدرها ويزنها بميزانها، لذا تجده غـير قـاطع ونهاياتـه مفتوحة، لاحظ مثلاً أن القرآن سكت عن أمور كثيرة، وما سـكت عنه فقد أقـره، وهـذه قاعـدة اكتشـفتها في القـرآن وهي قاعـدة مطردة لا استثناءات فيهـا: فأينمـا يـرد كلام في كتـاب اللـه على لسان أي شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً ولا يكون هناك تعقيب أو رفض إلهي فهو إقرار من الله لهذا الكلام.

لاحظ الأمثلة التالية ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَـا نَحْنُ مُصْـلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَـا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَـا آمَنَ السُّـفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّـفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُـونَ وَإِذَا لَقُـوا الَّذِينَ آمَنُـوا قَـالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَـوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طغيانهم يعمهون).

"قـــالوا إنمـــا نحن مصـــلحون"...فجـــاء الـــرد "ألا أنهم هم المفسدون"

"قـالوا أنـؤمن كمـا آمن السـفهاء"...فجـاء الـرد "ألا أنهم هم السفهاء"

"إنما نحن مستهزئون"...فجاء الرد..."الله يستهزئ بهم"

والأمثلة كثيرة ومنهـا قـول فرعـون..(أنـا ربكم الأعلى)...فجـاء الرد الإلهي المباشر...(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)..

كذلك امرأة فرعون

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتًـا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

فسكوت الله على طلبها دليلٌ على أنه بنى لها بيتاً في الجنة، فكيف عرفنا هذا؟ عرفناه من استقراء للنص القرآني، الذي يترك لك كقارئ ومتدبر مساحة تمارس فيها فهمك، فالقرآن مقاصد وغايات لا مجرد نصوص وأحكام وحدود حرفية.

وما زلت أذكر مناظرتي مع "أبي حسن" المرعب قبل سنوات طويلة، فهي تصلح مثالاً على الحرفية التي يتعبد من خلالها التراثيون بالنصوص، فقبل سنوات طويلة وعندما كنتُ حديث عهد بفكري التنويري هذا، كنتُ أُكثر من التحرش بالتراثيين من أجل مناقشتهم في خلافية حجة الروايات وتناقض بعض الروايات مع المنطق ومع الآيات، وكنت أعيش السيناريو نفسه المكرر في نقاشاتي معهم، فأنا أبدأ نقاشي أن الروايات تصطدم وتناقض القرآن الكريم، فيرد الطرف الآخر أن التناقض فقط في دماغي، وكان يطلب مني مثالاً على تناقض الرواية مع الآية، وعندما أعطيه رواية معينة كان يغيب قليلاً لينسخ لي من أحد المواقع كيف وفّق العلماء بين هذه الرواية مع الآية، وهذا التوفيق بين الروايات والآيات الذي تميز به علماء مثل ابن حجر هو جريمة لا تقل فداحتها عمن ألفوا روايات في المقام الأول ونسبوها إلى النبي الكريم.

المهم زادت تحرشاتي بهم، فقالوا لي بدلاً من فذلكاتك هنا وهناك ما رأيك بمناظرة علمية أكاديمية نتابعها جميعاً لنشهد سقوطك المريع؟ قلت لهم: مع من ستكون المناظرة؟

فكان الرد: مع العالم الجليل أبي حسن، وطبعاً هم يشتهرون بالكُنى، فبلعت ريقي بصعوبة لأني لم أتعرف على أبي حسن هذا وكنت جديد عهد بهذه المسألة ولا شك أن أبا حسن هذا حُجّة في اللغة والحديث وعلم السند، وسيفحمني بسهولة، لكن استعنت بالله ووافقت على المناظرة.

كل هذا ولم ألتق بعد بأبي حسن هذا أو أقرأ له، والشهادة لله أن تلاميذه أنفسهم كانوا علماء في مجالهم، فكيف لي أن أواجه شيخهم ومعلمهم أبا حسن؟

تحددت المناظرة على موقع فيس بوك الساعة الرابعة بتوقيت غـرينتش، وكنت جـاهزاً في الموعـد وأنـا أرتجـف خوفـاً وهلعـاً، وحياني تلامذة أبي حسن بأدب جم معتذرين عن تأخر أبي حسن، وكان أدبهم بالنسبة لي مرعباً، لا شـك أنـه فخ بهـدف أن أتمالـك نفسي ولا أنسحب من المناظرة حـتى يسـتمتعوا بهزيمـتي ولكي ينكشف أمري أمـام العشـرات من الحضـور المتعطشـين للنصـر على الفاسق الجاهل- أي أنا.

مرت دقـائق كالـدهر وجـاء أبـو حسـن معتـذراً ومرحبـاً بي في المنتدى.

أبو حسن: السلام عليكم ورحمة الله أخي الكريم

أنا (خائفاً وجلاً): وعليكم السلام أبا حسن

أبو حسن: اعتذر عن تأخري فقد كنت ألقي محاضرة وأسـهبت فيها.

أنا: لا بأس يا عزيزي تفضل.

أبـو حسـن: هـل تُفضـل أن تبـدأ أنت السـؤال وأنـا أجيب أم العكس؟

أنا بصراحة لم يكن عندي أي خبرة بالمنـاظرات ولا أعـرف أي الخيارين أفضل، لكني – وبدون تخطيط - اخترت الدفاع بــدلاً من الهجوم، طلبت منه أن يبدأ.

أبو حسن: هل تحب السمك؟

أي سؤال هذا؟ وأي فخ يعتزم أبو حسن توريطي فيه؟

قلت في نفســي فلأكن صــادقاً مــع نفســي وأجيب بصــدق، وحسبي الله ونعم الوكيل.

قلت: نعم أحب السمك.

أبو حسن: شوف يا طيب، أنا لن أناقشك بالأحاديث لأنك أصـلاً "منكر" للسنة، وسأناقشك بالقرآن والمنطق. (وهـذه هي التهمـة الجاهزة التي يكيلونها لكل من يخالف طريقهم).

أنا: أنا لست منكراً للسنة، ولكن تفضل كلامك منطقي.

أبو حسن: هات لي دليلاً من القرآن أن تناول السمك حلال.

في تلك اللحظة أصابني شعور بالاستغراب والدهشة، فكيف يطلب مني دليلاً على أمر واضح ومسطور في كتاب الله تعالى، تعلمناه أيام المدرسة؟

قلت له: يا مولانا السمك حلال لأن الله تعالى يقول: "أحل لكم صيد البحر وطعامه"، ولقوله تعالى "وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" ولقوله تعالى "وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون".

كان ينبغي لهذه الآيات أن تُسكت أبا حسن، أو على الأقل تلفت انتباهه، صحيح أن الآية الأولى وردت ضمن سياق خاص متعلق بالحجاج، لكن المنطقي أن الله قد أحل لهم شيئاً حلالاً بالأصل، إذ لا يعقل أن يحل لهم الخنزير مثلاً في فترة الإحرام.

تماسك أبو حسن رغم ذلك، وفكر قليل ثُمَّ نَظَر ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ومضى قائلاً: وكيف يا شاطر تأكل السمكة؟ هل تذبحها بالسكين ثم تأكلها أم تأكلها ميتة؟

طبعاً مرجعية أبي حسن في هذا هي الحديث النبوي المنسوب إلى النبي: أحلت لكم ميتتان ودمان، وإحدى الميتتين هي السمك، فهو يريد أن يقول بصريح العبارة إن السمك لا دليل على أنه حلال كميتة إلا من خلال الحديث أما القرآن فلم يُحله كميته.

قلت له: يا أخي الكريم السمك الذي تأكله في البيت لا يدخل ضمن تصنيف الميتة، والميتة حرام سواء كانت للسمك أو للكنغر.

قال كيف ذلك ونحن لا نذبحه بسكين؟

قلت له: بعيداً عن الدين كيف تأكل الشعوب غير الإسلامية السمك؟ هل تذبحه بالسكين؟ وهل نحن الأمة الوحيدة التي تتناوله بدون ذبح بالسكين لمجرد أن بين أيدينا حديثاً يقول أحلت لكم ميتتان؟

قـال: أنـا لا يعنيـني غـير المسـلمين فهـؤلاء لا يعرفـون الحلال والحرام، وإنما أسأل عنا كمسلمين. ألا نتناول السمك وهو ميتة؟ فمن أحل لنا تناوله بهذا الشكل؟

قلت لـه يـا عزيـزي أنت بحاجـة إلى فهم للأساسـيات. هـذا السمك لا يدخل في تصنيف الميتـة، وإنمـا هـو كـائن مختلـف عن البقـرة، فـالبقرة يتم ذبحهـا بالسـكين، أمـا السـمك فيكفي أن تخرجه من الماء وهذه هي طريقة تذكيتـه وذبحـه، لـذا فهـو ليس بميتة. ميتة السـمك هي الـتي تجـدها طافيـة على المـاء وهـذه لا يجوز أكلهـا لأنهـا لم تمت أثنـاء الصـيد بإخراجهـا من المـاء وإنمـا ماتت لوحدها بسبب الأمراض أو التسمم.

المهم امتدت المناظرة طويلاً حول السكين والسـمكة والخنـق والاكسجين، ولم يكن موقف أبي حسن يومها متماسكاً حتى أمام طلابه، فقد كان الشرط ألّا يتدخل أحد نهائيـاً لكن عنـدما لاحظـوا كفـة المـيزان تميـل لصـالحي- أو لنقـل لصـالح المنطـق العـادي البسيط- تدخل أبو مهيار وأبو قتادة وأبو القعقاع وكل يدلي بدلوه ويسألني -لإحراجي وإلصاق تهمـة الجهـل بي- مـا سـند الحـديث الفلاني وما الفرق بين الحديث الغريب والمشهور وما الفـرق بين الحـديث الحسـن والصـحيح..الخ؟ كـل ذلـك لتشـتيت النقـاش وانتصـاراً للروايـة وتقزيمـاً للقـرآن لإثبـات نقصـه وأن الروايـات تجبره.

لم ننجح في تجـاوز هـذه النقطـة وتيقنت يومهـا أن مناقشـة الأخوة التراثيين صعبة، فما قدمته من أدلة بسيطة ومنطقية كـان واضحاً وينبغي الالتفات إليه على الأقل.

وهذه القصة الطريفة تعكس عقلية الالتزام بالنصوص فهي قـد أعاقت أبا حسن مع علمه الكبير عن الانتباه إلى وجـود آيـات كنـا نحفظهـا في المدرسـة في دروس التربيـة الإسـلامية حـول حليّـة السـمك، وفي دروس العلـوم حـول طريقـة تنفس الأسـماك وأن اصطيادها وإخراجها من الماء يشابه تمامـاً ذبح الأنعـام بالسـكين، فلا نقول إن السمكة قد اختنقت وماتت خنقاً عنـدما نخرجهـا من

الماء وصارت بحكم "المَيتة"، وإنما نقول إن هذه هي طريقة ذبحها الشرعية.

فباختصار عندما ينتشل الصياد شبكة الصيد ويبيع السمك يكون السمك قد مات فعلاً وشبع موتاً، لكنه مات على الطريقة الشرعية، تماماً مثل ذبح الأنعام بالسكين، فالأسماك "نذبحها" بإخراجها من الماء، لذلك لا ينطبق عليها وصف الميتة، أما ما تلتقطه على الشاطئ وهو بلا حراك أو تجده طافياً على الماء فهذا هو الميتة ولا يجوز أكله.

وقد تساهل الفقهاء كثيرا في هذه المسألة قياساً على الرواية السالفة الذكر فكل من سألهم هل يجوز تناول السمك الميت الطافي فوق المياه أجابوهم نعم لأن السمك ميتته حلال بشرط ألا يكون قد تفسخ لحمه.

وهذا تلاعب بالنصوص وانسلاخ عن مقاصد القرآن الكريم، وتجد الكثير من بائعي الأسماك يدسون وسط السمك المُصطاد كمية لا بأس بها من السمك الميت (الذي مات بسبب التلوث مثلاً وليس الصيد) باعتبار أنه حلال ولكنهم لو علموا أنه من الميتة وأن الميتة حرام أكلها لربما ترددوا كثيراً أن يطعموه للناس.

2. الصلاة في القرآن:

هل وردت تفاصيل الصلاة في القرآن الكريم؟ إذ لا يمكن لك أن تناقش أحدهم في منهجك القرآني والخلاف حول حجية السُنّة

إلّا ويقول لك " كيـف تعلمنـا الصـلاة وهي لم تـرد في القـرآن؟"، وهذا السؤال محرج وسيتلقى السـائل إجابـات مختلفـة على هـذا السؤال الصعب وهذا يدل على أن " القرآنيين" لم يتصـالحوا مـع أنفسهم بشأن هذه النقطة ولم يتفقوا بعـد على الصـلاة: ماهيتهـا وأوقاتها.

وهـذا طبعـاً يعرضـهم لسـخرية أهـل السُـنّة الخـبراء، الـذين يتمتعـون بخـبرة تراكميـة لـ 1400 سـنة مـع تلقيهم التـدريب المستمر على يد مدربين أكفاء منذ أيـام المدرسـة وفي الشـارع وأيام الجمع وفي الباصات ومحلات العطـارة، فأينمـا ذهبت هنـاك من هو مستعد لتعليمك الدين على النهج السني السـائد، ولكن لا بـد لنـا أن نعـترف –بكـل أطيافنـا- بدايـةً أن عـدم ورود تفاصـيل الصلاة في القرآن أمر محير خاصة أن كتـاب اللـه تعـالى احتـوى على تفاصـيل لأمـور أقـل أهميـة مثـل التفسـح في المجـالس والوضوء نفسه الذي ورد تفصـيلاً في كتـاب اللـه تعـالى، فكيـف للقرآن أن يرصد ويوثق تفاصيل الوضوء وهي شـرط من شـروط الصلاة بينما تراه يتجنب الخوض في تفاصيل الصلاة نفسها؟

عدم ورود تفاصيل الصـلاة في كتـاب اللـه تعـالى لا يخـرج عن الاحتمـــــــــــــــالات التاليـــــــــــــــــة:

1. لم يذكر اللـه تفاصـيل الصـلاة في القـرآن لأنهـا تحتـوي على الكثير من الحركات العملية الدقيقة الـتي تتطلب شـرحاً عمليـاً لا مجـرد سـرد نصـي، لـذلك أوحى للرسـول بهيئـة الصـلاة وتعلمهـا الرسول من الوحي وعلمها للنـاس وانتقلت بـالتواتر العملي جيلاً بعـد جيـل، وهـذه الإجابـة مريحـة لكنهـا هشـة وغـير متماسـكة، فـالقرآن الكـريم حـرص على تفصـيل الوضـوء مثلاً مـع أن النـبي الكـريم كـان بإمكانـه تعليم النـاس الوضـوء عمليـاً مثـل الصـلاة، والصلاة لا تحتاج إلى صفحات أو سور طوال لوصف هيئتهـا وإنمـا فقـرة أو نصـف صـفحة كـانت لتكفي فالركعـة لا تحمـل تفاصـيل كثيرة سوى ركوع وسجود وقيام وقراءة الفاتحة.

2. لم يذكر الله تفاصيل الصلاة في القرآن الكريم لأنها كــانت معروفة أصـلاً من أيـام سـيدنا إبـراهيم – إمـام الأنبيـاء والبشـر -

وسيدنا محمد كان مطالباً بأن يتبع نهج سيدنا إبراهيم، لذلك صلى صلاة سيدنا إبـراهيم –والـتي كـانت العـرب تعرفهـا وتؤديهـا -مـع إضافات الأدعية والآيات والتسابيح سواء بوحي من الله أو اجتهـاد منه شخصياً.

3. لا توجد هناك صلاة ثابتة، والنـبي اجتهـد أو صـلى كمـا كـان يصلي الناس، فتبنى الهيئة العامة السائدة للصلاة وقتهـا وأضـاف إليهـا الأدعيـة والتسـابيح والآيـات لكنهـا ليسـت ملزمـة لنـا اليـوم بتفصيلها، ويمكنك أن تصلي أي صلاة تريدها بشرط الخشوع وأن تقصد وجه الله، وأفضل وأتم صـلاة طبعـا هي صـلاة النـبي لـذلك فالأفضل أن تتبع النبي في صلاتك، وإن لم تؤد هذه الصلاة النبوية أو الصلاة بالهيئة الـتي أنت تراهـا فهي مشـكلتك لأن الصـلاة لـك ولفائدتك أنت، تماماً كوصفة الطبيب الـتي تحتـوي الـدواء النـاجع لكنـــك لســـت ملزمـــاً بتنـــاول هـــذا الـــدواء.

4. لا توجد هناك صلاة حركية نهائياً في الدين الإسلامي، والصلاة في القرآن الكريم تعني الاتصال بالإنسانية والمبادئ السامية وأن تعمـــل صـــالحاً وتتصـــل باللـــه وبالإنســـان.

5. الصلاة مذكورة في القـرآن بأوقاتهـا وتفاصـيلها لكنهـا بحاجـة إلى بحث مكثف، وهناك –مثلاً- من سعى بكل جهـده لإثبـات عـدد الركعات والسجود والركوع اعتماداً على القيمة العددية للحروف، وهنـاك من شـرح وقـدم أدلتـه في أن أوقـات الصـلاة هي ثلاثـة أوقـات وليسـت خمسـة وهنـاك من يؤكـد أنهـا خمسـة وليسـت ثلاثـــة...الخ).

هـذه هي الاحتمـالات الـتي يمكن أن يتبناهـا الاخـوة المعاصـرون وربمـا هنـاك احتمـالات غيرهـا، ولسـنا هنـا بصـدد مناقشـة هـذه الاحتمالات بالتفصـيل فليس هـذا هـدفنا في هـذه المرحلـة وإنمـا يمكننا الجزم بالتالي:

لا يوجد أي دليل في كتاب الله تعالى على أن الله أوحى بهيئــة الصــلاة وكيفيتهــا لنبيــه الكــريم، وإن كنت مخطئــاً فــأرجو أن تصححوني، ولا يوجد هناك في التراث سـوى روايـة أو اثنـتين في تعليم جبريل النبي للصلاة، وبهذا نقول إن مصدرية الصلاة بشكل

عام أمر يلفه الغموض التام، أما الأمر الواضح لنا هو أن ما نصليه اليوم هو الصلاة التي صلاها النبي الكريم فعلاً والـتي انتقلت إلينـا جيلاً بعد جيل بتواتر عملي جمعي طبقي، فقد صلى النبي الكـريم وصلت الأمة كلها خلفه، وانتقل ذلك إلى التابعين فتابعي التـابعين حتى وصل إلينا اليـوم، تـواتراً عمليـاً جمعيـاً طبقيـاً، وهـذا يجعلنـا نجزم أن ما تواتر إلينا هو صلاة النبي الكريم فعلاً.

لكن هل كل ما تواتر ألزم؟ هل التواتر بحـد ذاتـه إلـزام ودليـل على وجوب الأمر أم هو مجرد دليل على صـحة نقـل الأمـر؟ فهـا قـد تـواترت الأمم كلهـا على عبـادات وشـعائر وطقـوس انتقلت إليهم جيلاً بعد جيل فهل معتقدهم وشعيرتهم صـواب بسـبب هـذا التواتر؟

نحن لا نقول هنا إنّ صلاة النبي الكريم غير صحيحة، وإنما نريد القول إن النبي قد صـلى هـذه الصـلاة فعلاً لكن مصـدريتها تظـل عالقة ومُحيّرة، فمن أين جاء النبي الكريم بهذه الصلاة؟

لا نجـد في كامـل هـذا الـتراث سـوى بعض الروايـات الخجولـة حول مصدرية هذه الصلاة ومنها هذه الرواية:

قال ابن إسـحاق : وحـدثني بعض أهـل العلم : أن الصـلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاه جبريل وهـو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ، ثم قام بـه جبريـل فصـلى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصـلاته، ثم انصـرف جبريـل عليـه السـلام.

وفي رواية أخرى:

قال ابن إسحاق : وحـدثني عتبـة بن مسـلم، مـولى بـني تميم، عن نـافع بن جبـير بن مطعم، وكـان نـافع كثـير الروايـة، عن ابن عباس قال : لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسـلم أتـاه جبريـل عليـه السـلام، فصـلى بـه الظهـر حين مـالت الشمس، ثم صلى به العصـر حين كـان ظلـه مثلـه، ثم صـلى بـه

المغرب حين غـابت الشـمس، ثم صـلى بـه العشـاء الآخـرة حين ذهب الشـفق، ثم صـلى بــه الصـبح حين طلـع الفجـر، ثم جـاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله، ثم صـلى بـه العصـر حين كان ظله مثليه، ثم صـلى بـه المغـرب حين غـابت الشـمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشـاء الآخـرة حين ذهب ثلث الليـل الأول، ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق، ثم قال : يا محمـد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .[1]

أما في القرآن فلا نجـد ذكـراً لمصـدرية الصلاة، ولا نجـد أمـراً إلهياً بأن نصلي كما صلى النبي الكريم، وهـذا القـرآن نـزل تبيانـاً لكل شيء، فلماذا لم يقل لنا على الأقـل صـلوا كمـا رأيتم نـبيكم يصلي؟

هذا لأن الله تعالى قد أراد لهذه الصـلاة أن تكـون مسـاحة من الحرية، وعلاقة فردية بين الفرد وربه، ولـو طـرح أحـدهم سـؤالاً فقال: هل يجوز للأوروبي إذن أن يصلي بلغتـه الأم؟ فنقـول: ومـا المانع من ذلك؟ أليس ذلك أفضل من أن يـردد كلمـات لا يعرفهـا ولا يجيد نطقها؟ فــ(سمع الله لمن حمده، سـبحان ربي العظيم)، ستتحول عنده إلى:

(سمأ الله لمن همده...سُبهان ربي الأزيم).

من يقـول إن هـذا الأوروبي عليـه بـأن يصـلي باللغـة العربيـة فسنطلب منه الدليل على ذلك، وسنسأله عن الحكمـة طالمـا أن الصلاة هي في بادئ الأمر صلة بين العبد وربه كما نردد يومياً في مساجدنا، فأي صلة هذه لا يفهم منها السـاعي إلى الصـلة حرفـاً واحداً؟

وهنا نفهم السر في أن الله أورد لنـا صـفة الوضـوء بالتفصـيل، ذلك لأن الوضوء يمكن توحيده على مستوى العالم كله، فالوضوء لا كلام فيـه، أمـا الصـلاة فمن الصـعب توحيـدها وذلـك لاختلاف ثقافات الناس وظروفهم، وهذا يقودنا إلى الاقتناع أن اللـه تعـالى ترك أمر الصلاة ليكون فعلاً صلة فردية بين العبد وربـه ولم يلـزم الناس بهيئة واحدة ثابتـة لأن في ذلـك سـيكون كثـير من التكلـف

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه برقم 149، وأحمد في مسنده برقم 3081، وأصله في صحيح مسـلم بـرقم 610

وانتفاء للصلة، وهذا لا ينفي أن يكون النبي الكريم قد أمـر قومـه أن يصلوا كما صلى، فهو يخاطب قومه بلسانهم ويـدعوهم لتأديـة الصلاة بالطريقة التي تتوحد فيها الأمة وتجتمـع صـفوفها ولنتـذكر دائما أن الإسلام رسالة عالمية بمدلولاتها لا بتشـريعاتها وهـذا مـا حرص القرآن على تعزيزه في كامل مساحة النص.

الصلاة في القرآن الكريم تحمل معنى واسعا وهو الصـلة باللـه تعـالى من خلال العمـل الصـالح والسـعي إلى الخـير والوفـاق وتحقيق الإنسـانية، وتتمثـل في معناهـا الضـيق بتطـبيق الشـعيرة المعروفة، وهذه الشعيرة هي وسيلة من الوسـائل تسـاعدنا على تحقيـق المعـنى الواسـع، ولـذا فـإن الصـلاة أمـر خـاص بنـا وهي لخدمتنا نحن وليس لخدمة الله تعالى.

وسـواء في الشـعائر وغيرهـا فعلينـا أن نعلم أن القـرآن تـرك مسـاحات واسـعة للفـرد كي يمـارس فردانيتـه واسـتقلاليته، وستلاحظ في القرآن أن التهديد بعقوبـة الآخـرة يكـون لمنظومـة طابعهـا الكفـر في المقـام الأول فهي معادلـة متكاملـة عنوانهـا الكفر بالله تعالى، لا التقصير في العبادات لأن هذه العبـادات في المقام الأول هي لك لتخـدمك في رحلتـك الإيمانيـة، فهي وسـيلة وليسـت هي معيـار الاختبـار نفسـه، وهـذا بُعـد ينبغي ألا نفوتـه، فـالكفر جحـود ورفض، وهـذا هـو المحـك الحقيقي، فـإن وصـلك الحق واتضح لديك فلماذا تتعمـد إخفـاء هـذا الحـق والتلاعب بـه؟ هذا هو المعنى الواسع والظاهر للكفر. إنه الجحـود والسـعي إلى طمس الحق من أجل المصالح الدنيوية وظلم الآخر.

لـذا لم يحـدد القـرآن عقوبـات أخرويـة متعلقـة بالتقصـير في الشعائر كالصلاة والصيام وغيرها، ذلك لأن الـدين بمجملـه علاقـة خاصـة يمـارس فيهـا الإنسـان اسـتقلاليته ليلاقي ربّـه فـرداً يـوم القيامة، والكثير من الآيات التي تتضمن أوامر ونواهي بشكل عام ونظنها أحكاماً شرعية صارمة، مـا هي إلا إرشـادات، أمّـا الفقهـاء على مر التاريخ فقـد حرصـوا على نحت آلاف الأحكـام والقـوانين والعقوبات واستنباطها مراعاة ومسايرة للذهنية الحديـة العربيـة،

والأمثلة على ذلـك كثـيرة فلـو نظرنـا مثلاً في الآيـات التاليـة من سورة البقرة:

1. ﴿وَلَا تَنْكِحُـوا الْمُشْـرِكَاتِ حَتَّى يُـؤْمِنَّ وَلَأَمَـةٌ مُؤْمِنَـةٌ خَيْـرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَـوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُـوا الْمُشْـرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُـوا وَلَعَبْـدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَـوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَـدْعُونَ إلى النَّارِ وَاللَّهُ يَـــدْعُو إلى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِـــرَةِ بِإِذْنِـــهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِـــهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221]
2. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُـلْ هُـوَ أَذًى فَـاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَـأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَـــرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقـــرة: 222]
3. ﴿نِسَـــاؤُكُمْ حَــرْثٌ لَكُمْ فَــأْتُوا حَــرْثَكُمْ أَنَّى شِــئْتُمْ وَقَــدِّمُوا لِأَنْفُسِــكُمْ وَاتَّقُــوا اللَّهَ وَاعْلَمُــوا أَنَّكُمْ مُلَاقُــوهُ وَبَشِّــرِ الْمُــؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]
4. وَلاَ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 224]
5. ﴿لَا يُؤَاخِـذُكُمُ اللَّهُ بِـاللَّغْوِ فِي أَيْمَـانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِـذُكُمْ بِمَـا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225]
6. ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 226]

سـنجد الحكم والخُلاصـة في خـواتيم الآيـات، ففي الآيـة الأولى هنـاك نهي عن نكـاح المشـركات، ولكننـا لا نجـد في ختـام الآيـة عقوبـة واضـحة، وإنمـا اكتفى القـرآن –باعتبـاره كتـاب هدايـة وإرشاد- بتوجيـه المؤمـنين إلى الأفضـل لأن المشـركين يـدعونك إلى النار فلا تقترن بهم بنكاح، وفي الآية الـتي تليهـا سـنجد أمـراً إلهياً باعتزال النساء في المحيض وعدم الاقتراب من النساء حتى يطهرن، لكن مـا العقوبـة لمن لم يفعـل ذلـك؟ لا توجـد. فخاتمـة الآية تؤكد على أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، ولم يقل مثلاً (إن الله شديد العقاب) أو ما شابه.

ثم في الآية التي تليها نهى القـرآن الكـريم عن أن نجعـل اللـه تعالى عرضـة لأيماننـا، مـع التأكيـد في خاتمـة الآيـة على أن اللـه سميع عليم، والآية التي تليها عن اللغو في الأيمان والتأكيد بعـدها أن اللـه غفـور رحيم، وفي الآيـة الـتي تليهـا حكم من يؤلـون من نسائهم والتأكيد مجدداً على أن الله غفور رحيم.

خواتيم الآيـات مفتـاح من مفـاتيح فهم القـرآن لـذلك علينـا أن نتتبعها ونرصدها ونحذر جداً من عواقب الآيات التي اختتمهـا اللـه بالعقاب والنار

- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَمَنْ يُشَـاقِقِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13]
- ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211]
- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: 11]
- ﴿وَيَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالسَّـيِّئَةِ قَبْـلَ الْحَسَـنَةِ وَقَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6]
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَـأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَكَفَـرُوا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: 22]

هذه آيات اختُتمت بالتأكيد على أن اللـه تعـالى شـديد العقـاب، ولك أن تنظر فيهـا بتمهـل وسـتلاحظ أن النـار عقوبـة لمن يبـدل نعمة الله والكفر، ولن نجد آية تهدد تارك الصلاة -مثلاً- بالعقاب.

وكذلك الأمر في خواتيم الآيات التي تهدد بالنار:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُـوهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا الْمُنْكَرَ يَكَـادُونَ يَسْـطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُـونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَـا قُـلْ أَفَـأُنَبِّئُكُمْ بِشَـرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَـدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ﴾ [الحج: 72]

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا أُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 39]
- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ﴾ [الملـك: 6]
- ﴿كَيْـفَ يَهْـدِي اللَّهُ قَوْمًـا كَفَـرُوا بَعْـدَ إِيمَـانِهِمْ وَشَـهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَـزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَـةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِـدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَـرُونَ﴾ [آل عمـران: 86 - 88]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَظَلَمُـوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْـدِيَهُمْ طَرِيقًـا إِلَّا طَرِيـقَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـدًا وَكَـانَ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 167 - 169]

وربما ستجد في كتاب الله آية تقرن عدم الصلاة بالعذاب لكنها تـأتي ضـمن منظومـة متكاملـة وليسـت مفـردة، وانظـر مثلاً إلى قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ (42) قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَـلِّينَ (43) وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَـذِّبُ بِيَـوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (47)

فهؤلاء استحقوا العذاب والنار لأنهم كـذبوا بيـوم الـدين وكـانوا يخوضون مع الخائضين ولم يكونوا يطعمون المسكين وفوق هـذا لم يكونوا من المصلين، هذا إن صـح الفهم السـائد ل(المصـلين) على أنهم الذين لا يؤدون شعيرة الصلاة الحركية.

والحديث عن الصلاة بشـكل عـام وعن حكمهـا سـيقودنا طبعـاً للحديث عن صلاة الجمعة، فما حكمها؟

صـلاة الجمعــة قضــيةٌ تشــغل بــال الكثــير من المعاصــرين والتنويريين، فمنهم من يرى أنها مجرد اختراع سياسـي ظهـر في فترة متأخرة كنوع من تنويخ الرأي العام لصـالح السـلطة، ومنهم

من يـرى أن صـلاة الجمعـة ينبغي أن تكـون فجـراً وليس ظهـراً ومنهم من يرى أنها واجبة كما هي سائدة الآن.

والحقيقة فيما أرى هي التالي:

صلاة الجمعة كمبدأ – تختلف عنها كتفاصـيل، فـإن صـح المبـدأ فالاختلاف على التفاصيل اختلاف فرع وليس أصل، فهـل هي من ناحية المبدأ واجبة؟

تعالوا ننظر في القرآن الكريم.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّـلَاةِ مِنْ يَـوْمِ الْجُمُعَـةِ فَاسْـعَوْا إلى ذِكْـــرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْـــعَ ذَلِكُمْ خَيْـــرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـــونَ﴾ [الجمعة: 9]

هـذه دعـوة إلهيـة للمؤمـنين أن يتجهـوا إلى ذكـر اللـه عنـدما يسمعون النداء لصلاة الجمعة ومن هذه الآيـة نسـتفيد الكثـير من الأحكام، وقبـل أن نتحـدث عنهـا أدعـوك للنظـر في خاتمـة الآيـة (ذلكم خير لكم) ولم يقل مجدداً إن الله شديد العقاب.

أول هذه الأحكام أو الإرشادات: الدعوة إلى أداء الجمعة صـلاة جماعة تحديداً، فلو كانت الصلاة بشكل عام كجماعة في المسجد واجبة لما خص الله تعالى الجمعة بحكم خاص وآية مستقلة.

وثانيها: في قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) فيه مساحة من المرونة أي أن الله ترك آلية أداء هـذه الصـلاة الجامعـة مفتوحـة، لذلك ففكرة أن خطبة الجمعة لم تكن موجـودة أيـام النـبي على الأرجح فكرة دقيقة لأنها لو كانت موجودة لوصلنا منهـا العشـرات من خلال الروايات، لكن النبي قضـى في المدينـة عشـر سـنوات المفروض أنه خطب في الناس أكـثر من 500 خطبـة جمعـة ولم يصلنا من ذلك شيء، وهـذا يـرجح عـدم وجودهـا – أي الخطبـة – في زمن النبي الكريم، والسبب في ذلك ربمـا أنـه لم تكن هنـاك حاجة إلى خطبة خاصة وقت الجمعـة، لأن النـبي كـان يعيش بين ظهرانيهم يخاطبهم في كل وقت وإنما كانت هناك حاجـة لقـراءة القـرآن على النـاس وهـذا مـا كـان يفعلـه النـبي على الأرجح، ثم استُحدثت الخطبة في وقت لاحق، وهـذا لا بـأس بـه بغض النظـر

عن النوايـا والمصـالح الـتي كـانت سـائدة في الفـترة الأمويـة والعباسية، المهم أن الدعوة الإلهية إلى الصلاة الجامعـة موجـودة ولكن الآليـة متروكـة لظـروف النـاس، بمعـنى ان الأمـويين والعباسيين استغلوا أمـراً قائمـاً وهـو صـلاة الجمعـة وجنحـوا عن قـراءة القـرآن – كمـا كـان يفعـل النـبي الكـريم- شـيئاً فشـيئاً واصـطنعوا عناصـر الخطبـة الـتي نعرفهـا اليـوم لتحقيـق أهـداف كثيرة ليس هنا محل الخوض فيها.

وثالثها: نجـده في قولـه تعـالى (من يـوم الجمعـة) و(من) هنـا تبعيضية، أي لبوا النداء في الوقت الذي تقام صلاة الجمعة، سواء كان ذلك ظهراً أو عصراً أو عشاءً، فهو مما سيتفق عليـه النـاس، وبما أن الناس التزمت بأدائها ظهراً فعليك الامتثال لأمر الجماعـة والأمـة.

ورابعها: نجده في قوله تعالى (فإذا قُضيت الصـلاة فانتشـروا في الأرض...) وهذا مـع أنـه فعـل أمـر مشـابه في تركيبـه القواعـدي لقوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله ..) إلا أنّه هنا لا يفيـد الوجـوب ولكن يفيد النصيحة، فلـو أنـني لم أنتشـر في الأرض بعـد الصـلاة فلن تبطل صلاتي، وكأنما الله تعالى هنا يعطينا ترجيحـه وتفضـيله لهذه الصلاة وهي أن تكـون ظهـراً لأنـه وقت الانتشـار والسـعي، لكنه لا يلزمنا بذلك تاركاً المسألة لأعراف الناس وظـروفهم، ولـو اختار الناس أن يكون التجمع عصراً، وخاصة في المناطق الحـارة فهذا لا بأس به.

وخامسها: نجده في قوله تعالى (يـا أيهـا الـذين آمنـوا..) فهـذه دعوة لاجتماع المؤمنين برسالة محمد، وليس دعوة لكـل النـاس، وكمـا نعلم فـإن كـل ملـة في الأرض لهـا شـعيرتها الجماعيـة وشعيرتنا الجماعية (نحن أتباع محمد) هي صلاة الجمعة.

وسادسها: نجده في قوله تعالى (إذا نودي للصـلاة...) وإذا هنـا شرطية واقعة مؤكدة وهذا جاء للتأكيـد على أهميتهـا فهي بمثابـة الملتقى الاجتماعي الذي تتجـدد فيـه القلـوب والأرواح، بالإضـافة إلى كونها شعيرة إيمانية، فليس هناك أجمل من أن ترتدي أفضل الثياب وتتجه بأولادك إلى المسجد وقت صلاة الجمعـة لأداء هـذه

الشعيرة الجميلة التي يجتمع فيها الناس ويتصافحون ويتعارفون ويتآلفون.

وسابعها: نجده في قوله تعالى (ذكر الله..) فهي دعوة إلى ذكر الله نقية من الشرك، ويترتب على هذا أن ينصب الحديث يوم الجمعة على القرآن الكريم وتدبره.

وربما سيقول لي قائل لقد منحتَ سلطة ومرونة كبيرة للناس في عبادات كان ينبغي أن تكون حدوداً ليس للمرء فيها رأي أو اجتهاد، فكيف جعلت الناس أصحاب قرار في وقت الجمعة وهيئتها، وهنا أقول ليست صلاة الجمعة فحسب وإنما طقوس العبادات كلها فيها سلطة بشرية بإقرار وتأطير وتوجيه إلهي، وانظر مثلاً إلى الحج، فقد كان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة، والناظر إلى تفاصيل حجهم سيلحظ التشابه الكبير بين الحج الإسلامي والحج الجاهلي، فكيف نعتبر الحج الجاهلي عادات وثنية بينما الحج الإسلامي عبادة توحيدية؟ سيجيب عن هذا السؤال شخصان متنافران في الاتجاه والتفكير:

الشخص الأول متصالح مع فكرة أن الحج عبادة وثنية، وأن الله تعالى لم يقصد بالحج والطواف والسعي والكعبة وعرفات ما فهمه الناس من السائد اللفظي، وإنما أراد رموزاً ودلالات أعظم، فالحج من المحاججة والحوار وعرفات من المعرفة، وغيرها.

أما الشخص الثاني فهو متصالح مع فكرة أن الحج عبادة توحيدية صحيحة.

فما هي الحقيقة؟

من الواضح أن الثقافة العربية قبل الإسلام أثرت كثيراً في الثقافة الإسلامية، فالدين الإسلامي أفاد من الثقافات والأديان والطقوس السابقة له، ومن تلك الثقافة أن العرب والعالم القديم عموما كانوا يؤمنون أن للآلهة بيوتاً[1]، فكانوا يقصدون هذه البيوت للحج والاستغفار، والحج في الجاهلية إلى الكعبة كان في موسم ثابت كل عام وهو فصل الربيع ففي كتاب الياباني أيو

---

[1] أندرو جورج، Andrew R. *House Most High: The Temples of Ancient Mesopotamia*. Eisenbrauns, 1993، ص3-5

هيديوكي نقرأ [1]: "كان العرب في الجاهلية يُحدّدون موسم الحج إلى الكعبة في فصل الربيع، وذلك تبعاً لنظام تقويم مشترك بين القمري والشمسي كان يعيد موسم نيسان (الشهر العبري/البابلي المقابل للربيع) إلى مواسم الحج، حيث كانوا يدخلون شهورًا كبيسة كلّ سنتين أو ثلاث لتثبيت موسم الحج في الربيع"، وكان الجاهليون يحجون إلى أمكنة مختلفة وينحرون عند أصنامها، إذ يورد ابن كثير[2] أن العرب كانوا يحجون إلى أصنامهم في مواقع محددة تشمل اللّات في الطائف، والعُزى عند النخلة (عرفات)، ومنى (منصة الحج) وذات الخلصة وغيرها، وقد كانوا يضحّون وينحرون قرب هذه الأماكن.

---

1 آيو هيديوكي، "The Calendar in Pre-Islamic Mecca." *Arabica*, Vol. 61, 2014، ص471-513

2 ابن كثير، الإمام. *تفسير القرآن العظيم*، ط. دار المنهاج، الطبعة الأولى، 1994، تفسير سورة النجم آية 20–23، ص 127–129.

ويذكر المـؤرخ جـواد علي[1] أن العـرب كـانوا يحجّـون إلى الكعبـة والأصـنام، ويطوفـون أيضـاً حـول الرجمـات—وهي أكـوام من الحجـارة تُبـنى كمنـارات—إضـافة إلى طـوافهم حـول الأصـنام والأنصاب، فالطواف كان عندهم مقدساً بغض النظر عن المكان، لذلك نصبوا الكثير من الأحجار والنصب ليـدوروا حولهـا 7 مـرات، وهذا الرقم كان مقدساً عند الحضارات القديمة، وورد في صـحيح مسـلم[2] أن: "العـرب كَـانَتِ العَـرَبُ تَطُـوفُ بِـالبَيْتِ عُـرَاةً، إلَّا الحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَما وَلَدَتْ، كَانُوا يَطُوفُونَ عُـرَاةً، إلَّا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الحُمْسُ ثِيَابًا، فيُعْطِي الرِّجَـالُ الرِّجَـالَ، وَالنِّسَـاءُ النِّسَاءَ، وَكَـانَتِ الحُمْسُ لا يَخْرُجُـونَ مِنَ المُزْدَلِفَـةِ، وَكَـانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ، قالَ هِشَامٌ: فَحدَّثَنِي أَبِي، عن عَائِشَـةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهَـا، قـالَتْ: الحُمْسُ هُمُ الَّذِينَ أَنْـزَلَ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ فيهم: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِن حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}[البقرة:199] قـالَتْ: كـانَ النَّاسُ يُفِيضُـونَ مِن عَرَفَـاتٍ، وَكـانَ الحُمْسُ يُفِيضُـونَ مِنَ المُزْدَلِفَـةِ يقولـونَ: لا نُفِيضُ إلَّا مِنَ الحَـرَمِ، فَلَمَّا نَـزَلَتْ: {أَفِيضُـوا مِن حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} رَجَعُوا إلى عَرَفَاتٍ.

وكانت لهم تلبياتهم المختلفة ومنها "نحن غرابا عك .. عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحجّ الثانية، على الشداد الناجية"، وكان هناك سعي بين الصفا والمروة، وهما صخرتان نصب عليهما صنمان: إساف ونائلة، فكان الناس يسعون ويتبركون بذينك الصنمين، حتى أن بعض الداخلين في الإسلام تحرجوا من السعي بينهما بعد الإسلام باعتبار أن ذلك من عادات الجاهلية، لكن القرآن الكريم أزال عنهم هذا الحرج بقوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي ط4، 2001، المجلد 11، الفصل 72 (الحج والعمرة)، ص 347.

[2] صحيح مسـلم رقم 1219، أخرجـه البخـاري (4520)، والنسـائي (2012)، والطحـاوي في (شـرح مشـكل الآثـار 1203(، جميعهم باختلاف يسير

أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ).
وكذلك كان الوقوف بعرفة منسكاً جاهلياً، حيث كان الناس يفيضون من عرفات عند غروب الشمس ويتركون المزدلفة عن الشروق، وكان من يعطيهم الرخصة أو الإشارة بذلك شخص اسمه "صوفة التميمي"، وتذكر الروايات التاريخية أن "قصي بن كلاب" كان يوقد النار على المزدلفة لكي يراها القادمون من عرفة، واستمر الناس على فعل ذلك بعد الإسلام[1] ، مع العلم أن تعظيم عرفة والمزدلفة والصفا والمروة كان بسبب الاصنام والنصب التي فيها، ويشير جواد علي[2] إلى أن العرب كانوا يضحّون خلال الحج قبل الإسلام بما يُسمّى بـ "العتائر" وكانوا بعد الذبح يسلخون الجلود ويعرضون اللحوم لأشعة الشمس لتجف، وهو ما أطلق عليه "التشريق"، نسبة لـ"الشروق" وذهاب الشمس، ومن ثم سُمّيت "أيام التشريق".

فمن الواضح حتى الآن أنه إذا اعتبرنا الحج عادة وثنية جاهلية قبل الإسلام فعلينا أن نعتبره كذلك بعد الإسلام، فهل هذا الاستنتاج دقيق؟

في الحقيقة لا، فهذا الاستنتاج غير دقيق وغير صحيح.

الحقيقة فيما أرى أن الإسلام قد حافظ على تفاصيل الحج كعبادة مراعياً فطرة الناس التي اهتدت إليها منذ أقدم الأزمان ولم يعارضها ويمنعها وإنّما هذبها، وجعل منها عبادة توحيدية خالصة، لأن العبادات هي للناس وليست لله والله غني عن عباده وعباداتهم لكنه صوّب لهم عباداتهم، فأزال الأصنام والأوثان وكل علامات الشرك وجعلها عبادة توحيدية خالصة. الأمر نفسه ينطبق على الصوم والصلاة فهناك من يشكك بطقوس الصلاة بسبب اكتشافه منحوتات قديمة قبل الإسلام وفيها صورة لشخص راكع أو ساجد، فيقول لك إن (الصلاة الإسلامية الحركية هي عبادة وثنية قديمة، انظر إلى هذا الشخص في الصورة يسجد للشمس أو للبقرة أو للشجرة نفس سجودكم

---

[1] ابن كثير- البداية والنهاية، ج2

[2] جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، دار الساقي، ط2، 1995، المجلد 11، ص 388–389

لله)، والحقيقة أن هذه العبادة (الصلاة) عبادة فطرية اهتدى إليها الإنسان منذ أقدم العصور بسجودها وركوعها، ولذلك لا يصح القول إن الإسلام سرقها من الأمم السابقة وإنما أقرها مراعاة لفطرة الإنسان ولكنه هذبها بما يتوافق مع رسالة التوحيد. ومن هذا نستنبط ان طقوس العبادات امتداد فطري كان للإنسان فيه سلطة كبيرة، ولكن كل ذلك بموافقة وإقرار وتهذيب رباني، وهذا لا ينقص من قيمة هذه العبادات أو فرضيتها، بل على العكس ففي ذلك تعظيم واحترام لفطرة الإنسان، لأن العبادة في نهاية المطاف هي للإنسان تخدمه وتفيده وتهذبه وتوفر له زاد التقوى في مشواره الدنيوي القصير.

وربما سيقول قائل إن الدين عند الله تعالى واحد والعبادات واحدة على مر التاريخ، لذلك كان العرب في الجاهلية يحجون ويصلون مما تعلموه من ملل سابقة، وأقول لهم نعم هذا ممكن، ولا مانع من ذلك منطقياً خاصة أن الله سبحانه وتعالى دعانا ودعا نبينا إلى اتباع ملة إبراهيم، لكن في الحالتين تشعر بتلك المساحة من الفردانية والحرية والسلطة التي منحها الله للناس في تفصيل عباداتهم بهذه الألفاظ والهيئات الدقيقة التي وردت فيها، فالعرب كانوا يحجّون إلى الكعبة بدون أمر أو إرشاد من نبي معين، وجاء الإسلام فواصل مسيرة الحج لكنه هذبها، ولا ندري أي من طقوس الحج منقول عن الملل السابقة وأيها إضافات بشرية لكن القرآن أقرّها جميعاً واعتمدها ولسان حاله يقول طالما ارتضيتموها لأنفسكم فهذا خير، لكنه في الوقت نفسه جنّبهم الشركيات التي كانوا يقعون فيها ومنها نحر الأنعام للأصنام، فجعلها نحراً لإطعام الفقراء، وهكذا.

3. لباس المرأة المسلمة في القرآن

وهناك أيضاً موضوع لباس المـرأة المسـلمة حيث نـأى القـرآن بنفسه عن وضع قوانين قاطعة وواضحة له، فكيـف هـذا والقـرآن قد نزل تبياناً لكل شيء؟ هذا ما سنحاول فهمه هنا.

في الحقيقـة لم أجـد في كتـاب اللـه تعـالى –بحسـب علمي- سوى آيتين تتضمنان حكمـاً شـرعياً (في ظاهرهمـا) حـول لبـاس المرأة، والآيتان هما:

1. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الـــدُّنْيَا وَزِينَتَهَـــا فَتَعَـــالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَـــرِّحْكُنَّ سَـــرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28]،
2. وقولـه تعـالى: ﴿وَقُـلْ لِلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ آبَـائِهِنَّ أَوْ آبَـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَـائِهِنَّ أَوْ أَبْنَـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَـوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَـائِهِنَّ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَـالِ أَوِ الطِّفْـلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلَى عَـوْرَاتِ النِّسَـاءِ وَلَا يَضْـرِبْنَ بِـأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَـا يُخْفِينَ مِنْ

زِينَتِهِنَّ وَتُوبُــوا إلى اللَّهِ جَمِيعًــا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُــونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُــونَ﴾ [النور: 31].

ومن السهل رصد ملمح مشـترك في الآيـتين أعلاه، هـذا بعيـداً عن معـنى المفـردات في الآيــتين والخلاف المحتــدم منــذ زمن طويل حول معـنى الجلبـاب والإدنـاء والضـرب والخمـار، والملمح المشترك هو أن الخطـاب في الآيـتين موجـه إلى النـبي الكـريم، تأمرانه أن يقول لنسـاء المؤمـنين كـذا وكـذا، فالخطـاب هنـا إذن خطـاب توسـطي لا خطـاب مباشـر، أي أن هنـاك النـبي الكـريم والذي يقف في الوسط بين النص القرآني (الشـارع) وبين نسـاء المؤمنين (المُشرّع له) لينقل بأداة حسية وهي "القول" أمر اللــه تعالى لهن: (يا أيها النبي قـل...) و (وقـل للمـؤمنت...)، فطالمـا أن اللبـاس اعتـبره علمـاء السـلف والخلـف حكمـاً شـرعياً يخص المرأة المسلمة فلماذا ورد بهذه الصيغة؟ لماذا لم يختصر القرآن المسألة فيوجه خطابه مباشرة إلى نسـاء المؤمـنين فيقـول: "يـا أزواج النـبي وبناتـه ونسـاء المؤمـنين ادنين عليكن من جلابيبكن، ذلــك أدنى أن تعــرفن فلا تــؤذين" ويقــول "يــا ايتهــا المؤمنــات اغضضن من أبصاركن واحفظن فروجكن، ولا تبدين زينتكن إلا مـا ظهـر منهـا واضـربن بخمـركن على جيـوبكن". أليس هـذا أكـثر وضوحاً لو كان المتضمن حكماً شرعياً عاماً؟ وأين هو النبي اليوم حتى يخاطب بنات القرن الحادي والعشـرين فيقـول لهن البسـن كذا ولا تلبسن كذا؟ أليس القران نصاً إلهيـاً في منتهى الدقـة؟ ألا تختلــف (يــا أيهــا النــبي قــل لأزواجــك....) مثلاً عن (واجتنبــوا الطاغوت...) أو (حرمت عليكم امهاتكم...)؟ لا شــك أن الاختلاف واضح ونتيجته واضحة وهي أن الآيتين اللتين تتحدثان عن اللبــاس في القرآن هما آيتان محليتان وقتيتان خاصتان وليستا حكماً عامـا وأبدياً. ليس هذا فحسـب بـل إن سـياق الآيـتين سـياق اجتمـاعي إرشادي وليس حكماً شرعياً ملزماً وقاطعاً، وهذا الفهم سيرفضه مباشرة الجميع تقريباً لأن المفكرين والعامـة يعتـبرون أن رسـالة القرآن بكل ما فيها رسالة عالميـة وصـالحة لكـل زمـان ومكـان، فهم يرون أن الخطاب حتى لو كان موجهاً إلى النبي لكنــه ملــزم

لنا، وهذا غير دقيق، فالخطاب المحلي الخاص في هـاتين الآيـتين واضح ولا يحتاج شرحاً.

وهذا يتركنا أمام حقيقة من الصـعب أن يتقبلهـا الكثـيرون وهي أن القـرآن لم يتـدخل نهائيـاً في لبـاس المـرأة المسـلمة لا من قـريب ولا من بعيـد، وتـرك المسـألة مفتوحـة لظـروف النـاس وثقافاتهم حاضاً إياهم على الستر ومرشـداً لهم دومـا إلى العفـة، والستر كما نعلم قضية نسبية فما يصلح لفتيـات ميـامي لا يصـلح لفتيات القصيم، إذ أن عادات هؤلاء وتقاليـدهم تختلـف تمامـاً عن عادات وتقاليد أولئك، وما يصلح لفتيات سـيبيريا لا يصـلح لفتيـات الخليج، فهناك الجو شديد البرودة وهنا الجو شديد الحـرارة، وقـد ارتكب د. محمد شحرور –رحمه الله- خطأً كبيراً في ذلـك فغـاص عميقـاً في شـرح الجيـوب ليخـرج بهيئـة معينـة للبـاس المـرأة الإسلامي، وفاته أن يلتفت إلى أن الخطاب في الآية أصلاً خطاب محلي لمن هم حول النـبي ووقـتي لا يعنينـا كحكم شـرعي ولكن نأخذ منه العبرة والـدرس والحكمـة الاجتماعيـة. ونؤكـد هنـا مـرة أخرى لا يوجد حكم شرعي خاص باللباس في القرآن لأن البيئات في العـالم متنوعـة ومتباينـة في عاداتهـا وتقاليـدها وطقوسـها وظروفها المناخية، وما يصلح لمنطقة جغرافية وبيئة ثقافية معينة لا يُشترط أن يصلح لغيرها، وإلزام المسلمات في العـالم بارتـداء زي موحد بهيئة موحدة فيه تعنت وجمود كبيران، وبـالطبع عنـدما نقول هذا سيخرج علينا الكثيرون ليقولون: إذن هـل لبـاس البحـر (المايوه) حلال أم حرام؟

هنا علينا أن ننتبه إلى نقطة مهمة وهي أن القرآن الكريم –بحد علمي- لم يحاسب في آية من آياتـه أحـداً على المقـدمات وإنمـا ترك لك المقدمات ووجه لك النصح والإرشاد وحاسبك بعدها على النتائج، واللبـاس ليس فاحشـة بحـد ذاتـه لكنـه مقدمـة قـد تقـود وتؤدي إلى فاحشة، حينها يكون الحساب والعقاب على الفاحشة، وهــذه مســاحة من الحريــة تمــارس فيهــا الأنــثى فردانيتهــا واسـتقلاليتها وتتحمـل بكـل نضـج مسـؤولية أفعالهـا، وكمـا قلنـا فالستر مسألة نسـبية، إذ أن لبـاس البحـر في ميـامي – مثلاً – لا

يثير غرائز أو يحركها بتاتاً، وعليه تنتفي علة أن يؤدي أصلاً إلى أي فاحشة من أي نوع، خاصة إن كانت الأنثى مثل كيس البطــاطس كلها تضـاريس وعـرة، غنيـة بالسـليوليت، حـتى أن الجـالس على الشاطئ سـيلفته منظـر فتـاة تلبس فسـتاناً قـد انحسـر عن رُبـع ساقها أكثر من أكوام "اللحم" المتناثرة على الشاطئ.

ولكن يظل لباس البحر في عرفنا وتقاليـدنا عيبـا اجتماعيـا، ولا بأس في هذا فكـل مجتمـع حُـر في فـرض عاداتـه وتقاليـده إنمـا الموضوع لا يتعلق بالـدين لا من قـريب ولا من بعيـد، أمـا جماعـة (أترضــاه لأختــك...أترضــاه لأمــك؟) فــالجواب لا نرضــاه، لأن مجتمعاتنـا محافظـة، وعلى المـرأة أن تلبس بحيث تنسـجم مـع مجتمعها ولا يُنظر إليها على أنها شاذة أو مصدر للإغراء، فـالمرأة نفسها قد تلبس تنـورة قصـيرة وتي شـيرت في مكـان مـا وتبـدو طبيعية جداً ولا تلفت أي نظر، وقد تكشف فقـط عن شـعرها في مجتمع آخر فتلفت الأنظار وتثير الغرائز.

هناك قبائل في افريقيا تحتفـل بمسـيرات تسـير فيهـا الفتيـات عاريـات الصـدور تمامـاً، ولا يلفت هـذا أحـداً لأن ذلـك جـزءٌ من ثقافتهم وعاداتهم، فلا يؤدي ذلـك إلى فـواحش نهائيـاً ولا أظن أن هـذه القبائـل تعـاني من أي نـوع من التحـرش والفتن الجنسـية، ونحن هنا لا ندعو إلى التعري، كما قـد يفهم البعض، وإنمـا نوضـح الفروقـات الثقافيـة والبيئيـة فيمـا يتعلـق باللبـاس حـول العـالم، وللتأكيد على أن مسألة الستر والحشمة نسبية.

والحقيقة أن توجهات المفكرين المعاصرين حول موضوع لباس المرأة في الإسلام دارت إما حول شرح الآيات في محاولة لإثبات عدم وجوب غطاء الشعر والوجه من خلال المفردات المتعلقة (خمار، حجاب، جلابيب...الخ)، أو تبرير اللباس السائد كما هو باعتباره خياراً تبنته النساء بمحض إرادتهن دون إكراه مجتمعي وديني، غير أن القليل جداً التفتوا إلى أن الخطاب المتعلق باللباس في القرآن كان خطاباً محلياً وإلزاميته خاصة بقومه وزمانه فقط، بغض النظر عن هيئته، فمثلاً قدمت عالمة الاجتماع مارنيه لاذرج في كتابها *Questioning the Veil: Open*

رؤيتها للآيات في سورتي النور *Letters to Muslim Women* والأحزاب وهما الآيتان اللتان غالبًا ما يتم اللجوء إليهما لتبرير فرض الحجاب كواجب ديني، ورأت أن هذه الآيات، عند قراءتها بعناية ومن دون وساطة تفسيرات ذكورية تاريخية، لا تطلب بوضوح تغطية الوجه أو حتى الرأس، فمصطلحات مثل *خمار وجلباب* خضعت لتأويلات متباينة على مر العصور والسياقات الثقافية، وتقول:[1] *" هذه السورة لا تأمر المرأة بتغطية وجهها... وبعبارة أخرى، في ضوء هذه السورة، فإن ما يُعتبر حشمة بوصفها حماية هو مسألة رأي واختيار للكلمات، وليس واجبًا دينيًا واضحاً"*، وتوضح في أكثر من موضع في الكتاب أن الحشمة باعتبارها وسيلة حماية ليست التزامًا دينيًا صريحًا، بل تأويلاً فرضته تفسيرات تقليدية أكثر من أن يكون نابعًا من وضوح النص، كما تنتقد لاذِرج الربط بين الحشمة والقيود المكانية والجندرية. وترى أن التركيز على الحجاب كحاجز وقائي غالبًا ما يشي بتوترات ثقافية أعمق تتعلق بالنوع الاجتماعي والجنسانية والسلطة، فما كانت فكرة الوقاية والحماية لتبرز لولا طبيعة المجتمع ونظرته إلى المرأة باعتبارها سلعة جنسية.

وكذلك أكدت صبا محمود، الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية من أصل باكستاني، في كتابها Politics of Piety والمترجم إلى (سياسة التقوى) أن ارتداء الحجاب، والالتزام الصارم باللباس الشرعي، لا ينبغي أن يُفهم فقط على أنه نتيجة لضغوط اجتماعية أو دينية، بل يمكن أن يكون فعلًا نابعًا من إرادة ذاتية تتشكل ضمن سياق ديني معين، في هذا الإطار، ترى محمود أن المرأة قد تستخدم هذه الممارسة لبناء ما تسميه " subjectivity" أي الذاتية الأخلاقية المؤمنة، وهي ذات تتشكل من خلال الطقوس والممارسات اليومية، لا عبر التمرد عليها فقط.

وفي كتابها تقدم صبا محمود دراسة إثنوغرافية لنساء شاركن في حركة الدعوة الإسلامية في مصر، وخصوصًا جماعات النساء المرتبطات بالتيارات السلفية أو المتأثرة بالإخوان المسلمين،

[1] مارنيه لاذرج، Questioning the Veil، جامعة برينستون، 2009، ص21-22

وما يميز هذا الكتاب هو أنه يعيد صياغة الطريقة التي ننظر بها إلى مفاهيم الطاعة، والتقيّد، والامتثال الديني من منظور نسوي لا يفترض مسبقًا أن هذه الممارسات تنبع فقط من القمع أو الإكراه، إذ ترى أن [1] *"الحجاب يظهر كتقنية مهمة لتكوين الذات، تسعى من خلالها النساء المتدينات إلى تنمية فضيلة الحياء — ليس كرمز يميز بين المجالين العام والخاص، بل كجزء من تكوين أخلاقي أوسع للذات"*، أي أن الحجاب ليس مجرد إشارة اجتماعية إلى الحشمة أو التديّن، بل هو *تقنية ذاتية تُمارَس* ضمن مشروع أوسع لتكوين الذات المسلمة المؤمنة. وبهذا، فإن المرأة المنضبطة في لباسها لا تؤدي طقوسًا خالية من المعنى الشخصي، بل تخوض مشروعًا أخلاقيًا متكاملًا لتشكيل نفسها في ضوء مرجعية دينية.
كما تقول في موضع آخر[2]: *"تنظيم السلوك الخارجي للفرد، بما في ذلك الملبس، يصبح وسيلة للتأثير على الحالة الداخلية للفرد —فالحشمة ليست مجرد فضيلة داخلية، بل يتم تعلمها من خلال الممارسة المنضبطة"*. وبهذا الطرح، تعارض صبا الطروحات الليبرالية الغربية التي تنظر إلى الحجاب باعتباره رمزًا حصريًا للقمع الذكوري. وبدلًا من ذلك، تدعو إلى فهم الممارسات الدينية داخل سياقها المحلي، حيث تُعاد صياغة الذات بطريقة مختلفة عن النموذج الغربي للتحرر، وفي المجمل، يشكل هذا التحليل تحديًا للنموذج النسوي الكلاسيكي الذي يربط دائمًا بين الحجاب والاضطهاد، ويوسّع أفق فهمنا لدور اللباس في تشكيل الهوية النسوية الإسلامية.

وقــد حــرص القــرآن كمــا أســلفنا على الحض على الحشــمة والستر بأسلوبٍ راقٍ خالٍ من الأوامر والنــواهي القامعــة مراعيــاً خصوصــيات النــاس وثقافــاتهم وظــروفهم فمثلاً ســنلحظ هــذا الأسلوب السلس الخفي من خلال التفريــق القــرآني بين اللبــاس والثياب، حيث نلاحظ أن كلمة الثياب اقترنت بالوضع في القــرآن

---

[1] صبا محمود، Politics of Piety، ص158

[2] صبا محمود، Politics of Piety، ص136، 158

"تضعون ثيابكم"، "يضعن ثيابهن" بينما اقترن اللباس بالنزع "ينزع عنهما لباسهما"؟

(يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ)

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ...)

الثوب مشتق من الفعل ثاب بمعنى رجع فهو الذي تثوب وترجع إليه فتلبسه وتخلعه ثم تلبسه وتخلعه وهكذا، وعندما يتخفف الانسان مما يرتديه عند الظهيرة في فترة الحر والقيلولة فإنه هنا قد خلع ثيابه الخارجية التي يخرج بها إلى العمل وليس ملابس البيت الخفيفة التي تستر السوأة، لان اللباس يستر السوأة (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما – أي الأعضاء الحساسة genital parts)، لذلك وصف بالنزع لأنه يترتب عليه جهد ومقاومة.

أما وضع الثياب فلا يؤدي إلى كشف الأعضاء الجنسية الحساسة، ومن هذا نخلص إلى أن الثياب هي الملابس الخارجية واللباس هي الملابس الداخلية وخاصة بالنسبة للرجل أما المرأة فهي الملابس البيتية.

وهذا يقودنا إلى تذوق دقة الآية في قوله تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

فاللباس يواري سوآتكم، إذن هو الحد الأدنى من الملابس الذي يستر السوءات.

ولا تنتهي الروعة والدقة هنا، وانظر إلى قوله تعالى:

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)، وهذا فيه حميمية وستر.

وهذا يفسر قوله تعالى:

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)، فهذان الخصمان سيتسربلان بثياب من نار وليس مجرد ملابس داخلية وبوكسر x1020 سم.

أما المؤمنون فسينعمون بملابس داخلية من الحرير غاية في النعومة، ونحن نعرف أن الأعضاء التناسلية هي أكثر المناطق حساسية في الجسم لذلك اختصت بهذه النعمة.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ).

وعندما تتنعم الأعضاء الداخلية بنعومة الحرير فلا بأس لو إخشوشنت الثياب فوقها

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا.

ويا لجمال الآية ودقتها:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)

فالليل حالة من الهدوء والدعة والسكون تتلبس الانسان استعداداً للعمل والنشاط والنشور في الصباح التالي.

وستر العورات يكون حسياً ومعنوياً، وخير لباس لستر الإنسان معنوياً هو التقوى لذلك وصفه الله ب "لباس التقوى"، فالتقوى ينبغي أن تلابس الانسان ولا تفارقه فهي هنا أدق طبعا من كلمة ثياب.

أمّا القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فلا بأس عليهن لو وضعن ثيابهن.

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

فهن يضعن ثيابهن الخارجية ويكتفين بالملابس التي تغطي الجسد مثل ثوب بيتي خفيف، أو ما شابه، بشرط ألا يكون استغلال لهذه الرخصة فيتزينّ ويبالغن في الزينة لتعويض كبر السن.

ولاحظ قوله تعالى:

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)، فهنا يدعوهم سيدنا نوح في مجالسهم أو في الشارع وهم يلبسون ثياباً وليس ملابس.

لذا من الواضح أن القرآن الكريم قد سكت عن لباس المرأة المسلمة، وفي الوقت نفسه دعا إلى الحشمة والستر وتجنُّب الوقوع في الفواحش، بينما الفقهاء كتبوا آلاف المجلدات في اللباس، انطلاقاً من أعراف المجتمعات التي يعيشون فيها، فتجد غطاء الوجه واجبا في المجتمعات التي بالأصل تمنع المرأة اجتماعياً من كشف وجهها، بينما تجده غير واجب في المجتمعات التي تسمح بكشف الوجه، والطرفان يبحثان عن الأدلة التي تدعم نزعتهما الاجتماعية، ويستدعيان الروايات والآيات لكي تكون شاهداً لهم على صدق ما يدّعون، والأمر نفسه ينطبق على الزينة حيث نجد – مثلاً- استدعاء لروايات نبوية تنهى عن ارتداء الرجال للمصوغات الذهبية كالسلاسل وغيرها، مع أن النهي النبوي – إن حصل – قد وقع لظرف معين ومناسبة خاصة، وليس تشريعاً سماوياً مطلقاً، والحقيقية أن الذهب حلال على النساء والرجال، وإن صح أن سيدنا محمد نهى عن لبسه للرجال فهذا إنما نهي اجتماعي وعُرفي وليس تشريعاً دينياً، فربما كانت الناس تعاني من المجاعة وكانت دعوة لهم كي يتصدقوا به بدل أن يلبسوه، وربما كان فيه مدعاة للتكبر والغرور فنهاهم عنه، ولم يحرّمه عليهم، والفرق بين النهي والتحريم شاسع وبيّن.

وما لم يرد فيه تحريم في كتاب الله فعلينا الحذر أن نتولى مهمة التحريم بأنفسنا لأنها سلطة خاصة للعزيز الجبار فقط.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116]

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]

والحقيقة أن التراثيين يدافعون عن الروايات بكل الوسائل، ابتداء من الدفاع عن السند، ومروراً بتبرير المتن، وانتهاء بربط هذه الروايات بالقرآن، وهذا يذكرنا بالقصة الطريفة للرجل الذي أضاع جمله ولما يأس من العثور عليه أقسم إن وجد هذا الجمل أن يبيعه بدينار واحد فقط، وبعد أيام عثر عليه فاحتار ماذا يفعل، وبعد تفكير لجأ إلى حيلة فقهية وهي أنه ربط الجمل بقط وخرج إلى السوق وصار يصيح: الجمل بدينار، والقط بألف دينار، ولا أبيعهما إلا معاً.

والأمر نفسه يتكرر مع التراثيين فلما تعييهم الحيلة يقولون لك إن من نقلوا لنا الحديث هم أنفسهم الذين نقلوا القرآن، وطالما قبلنا بفكرة تواتر القرآن، فعلينا أن نقبل بتواتر الحديث سواء بسواء تماماً مثل قصة الجمل والقط.

ليس هذا فحسب فبما أن التواتر لا يشمل الحديث كله فقد حاولوا إثبات أن القرآن انتقل بالشهرة وليس بالتواتر وهو أمر شبيه بحديث الآحاد لذلك فعلينا القبول بحديث الآحاد كما قبلنا القران وإلا فإنّنا نسقط في بئر التناقض.

والحقيقة أن هناك فروقات كبيرة بين تواتر القرآن وتواتر الحديث.

الفرق الأول يكمن في الكتابة، فالقرآن تم تدوينه وكتابته وقت التنزيل بخلاف الروايات، ولا يمنع كون رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه طبعاً من أن يكون الصحابة أو بعضهم كتبه أيضاً وتعد كتاباتهم نسخة من الأصل، وفي عهد أبي بكر استنسخوا عدة نسخ عن النسخة الأصل، وبعدها أحرق عثمان هذه النسخ وأبقى على نسخة واحدة برسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو

بإشرافه المباشر وكتابة كُتّاب الوحي، ونسخ من هذه النسخة عدة نسخ ووزعها على الأمصار على أن ينسخ النساخون نسخا مماثلة عنها بحيث تكون طبق الأصل من النسخة الأصلية.

أما الحديث فقد نهى النبي الكريم عن كتابته فلم يُكتب ولم يُنسخ، ونهى الصحابة الناس عن كتابته من بعد النبي، لذا فالفرق بين تواتر مبني على الكتابة منذ لحظة نزوله، وبين نقل مبني على الظن والتخمين والمسافة الزمنية بين كتابته وبين عصر الرسالة أكثر من مائتي سنة فرق كبير، كالفرق بين المشرق والمغرب.

والفرق الثاني يكمن في حفظ الناس للقرآن غيباً، فحاجة المسلمين إلى التعبد بالقرآن في صلاتهم جعلت الكثير منهم يحفظونه غيباً، وقد تعارف على تسميتهم بالحُفاظ، وحتى الآن تجد حفظة القرآن الكريم من كل بلد والعجيب أنك ترى أناس لا ينطقون العربية ولا يعرفونها مطلقاً ولا يمكنهم الحديث بها، ولكنهم يحفظون القرآن كله عن ظهر قلب، فالتواتر هنا ليس تواتر إسناد ولكنه تواتر قائم على الفعل (فعل الحفظ) ، فالقرآن لا يحتاج أن تقول عن فلان أخبرنا فلان حدثنا فلان ، ولكن يكفيك أن تبدأ بالاستعاذة والبسملة ثم تتلو الآية تلو الآية وهكذا.

أما الحديث فلم تكن له حاجة تعبدية وعلى فرض سماع الصحابة لبعض أحاديث رسول الله وأقواله فهم ليسوا في حاجة لترديدها إلا على نطاق ضيق جداً لاختلاف الزمان واختلاف المكان وكان يكفيهم القرآن، ولكن بعد قرنين ونصف من الزمان ولأسباب سياسية واقتصادية ومحاولة كل طرف الانتصار على الطرف الآخر بالبحث عن دليل يساعده وطبعاً لا يمكن لكلا المتخاصمين الأخذ بالدليل من القرآن وحده ، فبدأوا بالبحث عن الحديث وتدوينه ، وأيضاً دون التعبد به اللهم إلا استخراج أحكام فقهية منه، حتى سبق القرآن فأصبح الحديث ناسخاً لأحكام القرآن ولكنهم ظلوا على قولهم (الحكم منسوخ والنص باقٍ للتعبد).

والفرق الثالث بين القرآن والرواية هو اتفاق الجميع من كافة الأطياف والمذاهب على كتاب الله تعالى رغم الخلافات العقائدية والسياسية، فما هي إلا بضع سنين بعد وفاة النبي الكريم حتى انقسمت الأُمة إلى فرق ثلاث: فريق معاوية وفريق علي وفريق الخوارج، ثم انقسمت كل فرقة إلى طوائف عديدة ، ففريق معاوية وهم عصب أهل السنة انقسموا فيما بينهم إلى فرق كثيرة: أشعرية ومعتزلة وماتريدية وكرامية ثم صوفية، الخ.، وفريق علي وهم عصب الشيعة انقسموا إلى إثني عشرية وزيدية وجعفرية وموسوية واسماعيلية وسبعوية وعلوية وفاطميه، الخ، والخوارج انقسموا إلى أزارقة وأباضية، الخ. ولكن رغم كل هذه الانقسامات والاختلافات تعبد الجميع بكتاب واحد.

أما بالنسبة للأحاديث فالأمر مختلف فكل فرقة لديها أحاديثها ورواتها وكل فريق بما لديهم فرحون، فمثلاً حديث الثقلين تقول السنة إن نصه (كتاب الله وسنتي) وتقول الشيعة إن نصه (كتاب الله وعترتي).

والقرآن كله متواتر من أول البسملة في فاتحة الكتاب إلى كلمة الناس في خاتمة الكتاب، أما الحديث فالمتواتر منه قليل، وزادوه بأن أضافوا ما يسمى بالتواتر المعنوي كحديث إنما الأعمال بالنيات، والذي قالوا إنه تواتر معنوياً رغم كونه في الحقيقة رواية آحاد لم تروَ إلا عن طريق عمر بن الخطاب.

فهل يقاس هذا التواتر بتواتر كتاب الله؟

والفرق الذي يليه يكمن في الإعجاز الذاتي، وهذا جانب مهم فالنص القرآني يتحدى بنفسه ولا يتحدى بسنده والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]

أما الأحاديث فليست معجزة في ذاتها ولا نستطيع التمييز فيما بينها إلا بالإسناد فهذا حديث صحيح، وهذا حديث حسن، وهذا حديث ضعيف، الخ.، ولو ردوها كلها لكتاب الله لوجدوا فيها

اختلافاً كثيراً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]

ناهيك طبعاً عن الاختلالات التي وقعت في السند والمتن معاً عبر التاريخ، وما طال هذا التراث النبوي من تحيزات وانحرافات ومصالح واعتلالات وتشوهات، وهذا ما عكف عليه باحثون كبار لنقده بطريقة منهجية، ومن هؤلاء توماس ج. هـ. أ. يوينبول (1930–1982)، وهو من العلماء الهولنديين الرائدين في الدراسات الإسلامية، وخصوصًا في دراسة وتحليل كتب الحديث بشكل نقدي، وتُعد أبحاثه أساسية لفهم أصول الحديث ونقله وموثوقيته، إذ يجمع منهجه بين النقد التاريخي الدقيق والتحليل اللغوي، ويستعرض طريقته المفصلة بشكل واسع في كتابه (*دراسات حول أصول واستخدامات الحديث الإسلامي* (روليتدج، 1996)، حيث يطبق يوينبول[1] تقنياته التحليلية على أحاديث مثيرة للجدل، موضحًا كيف يمكن أن تتجسد التحيزات الاجتماعية (مثل التمييز ضد المرأة) في بعض الأحاديث.

من خلال فحص أنماط الإسناد المتكررة وتطابقها عبر روايات متعددة، يستنتج يوينبول أن بعض هذه الأحاديث لم تُنقل حرفيًا عن النبي محمد، بل تم تشكيلها أو تعديلها في مراحل لاحقة لتعكس المواقف الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الإسلامي المبكر، ويبرز كيف يمكن أن تتجسد التحيزات الاجتماعية، مثل التمييز ضد المرأة، بشكل غير مباشر في هذه الأحاديث، مما يعكس محاولات بعض الفئات أو الأفراد لترسيخ مواقف معينة من خلال بناء أحاديث تدعم تلك الرؤية. هذا التحليل لا يقتصر فقط على كشف تزوير أو إضافات لاحقة، بل يسلط الضوء على العلاقة الوثيقة بين الدين والمجتمع في تكوين النصوص الدينية، مما يجعل الحديث الإسلامي مرآة تعكس التغيرات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها المجتمعات

[1] توماس ج. هـ. أ. يوينبول، (روليتدج، 1996)، *دراسات حول أصول واستخدامات الحديث الإسلامي (ص42-56)*

الإسلامية الأولى، غير أن وقد يكون لنا وقفة موسعة في كتاب أو دراسة أخرى حول الحديث النبوي كمصدر تشريعي موازي في الدين الإسلامي.

4. النباتيون وبهيمة الأنعام

النباتيون كائنات لطيفة، وخاصة منهم من امتنع عن تناول اللحوم حُزناً وشفقة على هذه الحيوانات الوادعة التي تُساق إلى الذبح ودموعها تنهمر، لكن هل هؤلاء النباتيون اللطفاء أرحم من الله تعالى بمخلوقاته؟ لماذا أحل الله تعالى لنا ذبح هذه الأنعام بينما يرى النباتيون أن ذلك في غاية القسوة؟

وللإجابة عن هذا السؤال الصعب علينا أن نفهم الفروقات الادراكية بين الإنسان والحيوان، فعندما يقف المجرم أمام كتيبة الإعدام فإن اللحظات التي تسبق إطلاق الرصاص عليه هي العذاب الحقيقي ولا يريحه وينقذه من هذا العذاب سوى سماع صوت الرصاص وبعدها ينتهي كل شيء.

الموت نفسه ليس عملية مؤلمة، وإنّما اللحظات التي تسبق الموت هي المؤلمة، وفي هذا يختلف الانسان عن الحيوان لأن الحيوان لا يدرك ما لم يجربه ولا يملك قدرة على القياس أو الشك، فنحن نخاف من شخص يحمل السكين ويجري باتجاهنا لأننا نملك القدرة على القياس والتذكر والربط والشك، أما الحيوان فلن يُميّز إن حملت سكيناً أو قطعة شوكولاته، لأنه لا

يعلم فيزيائياً أن السكين تُستخدم للذبح إلّا إن رأى الموقف أمامه في نفس اللحظـــة.
لكن ماذا عن عملية ذبح الحيوان نفسها؟ هل هي مؤلمة؟
بالنسبة للحيوان فهناك طريقتان للذبح:
1. الطريقة غير التقليدية ويتم فيها صعق الحيوانات قبل ذبحها والفكرة منهـا تخـدير الحيـوان حـتى لا يشـعر بـألم الـذبح، وهـذه العملية غـير مضـمونة العـواقب، فقـد تفشـل عمليـة الصـعق مـا يضطرهم إلى إعادتها وهذا يصاحبه الكثير من الألم.
2. الطريقة التقليدية ويتزعمها أتباع الدين الإسلامي واليهودي وتتم بــذبح الحيــوان باســتخدام ســكين حــادة من قبــل شــخص محــترف، حيث يتم قطــع الشــرايين والاوردة والقصــبة الهوائيــة والمريء بسرعة كبيرة، ينجم عنها فقدان تام للوعي وتوقف ضخ الدم إلى الدماغ، وهذا يعني ان فقدان الوعي يسبق المـوت عنـد الحيوان، واستنزاف الدم من الشرايين يـؤدي إلى تنقيـة الذبيحـة من السموم لأن القلب يستمر بضخ الدم لثوانٍ بعد هذه العمليـة، وبهذا يكون اللحم الحلال أجود من غيره.
في دراسة بعنوان **"Animal Welfare and Halal and Kosher Slaughter Methods"**[1] نُشرت في مجلة *Meat Science* (مجلة علم اللحوم) عام 2013، قام الباحثون بتحليل التأثيرات الفسيولوجية والسلوكية على الحيوانات عند الذبح بالطرق الإسلامية واليهودية مقارنة بطرق الذبح التقليدية التي تتضمن الصعق الكهربائي أو الطرق الأخرى.

- أظهرت الدراسة أن الذبح بالقطع السريع للأوردة الدموية الرئيسية (طريقة الحلال والكوشر) يسبب فقدان الوعي السريع إذا تم تنفيذه بشكل صحيح وبأدوات حادة، مما يقلل من المعاناة والألم.
- الدراسة أشارت إلى أن الذبح الشرعي، عند مراعاة شروطه، يتوافق مع مبادئ الرفق بالحيوان، حيث يتم قطع

[1] Raj, A.B.M., & Gregory, N.G. (2013). Animal welfare and Halal and Kosher slaughter methods. *Meat Science*, ص 355-358

الشرايين والوريدين الرئيسية في الرقبة، ما يؤدي إلى هبوط ضغط الدم بسرعة في الدماغ، وفقدان الوعي خلال ثوانٍ معدودة.

- كما ناقشت الدراسة ضرورة تدريب الجزارين وضرورة استخدام سكاكين حادة لتقليل الألم وتجنب المعاناة.

هذه الحيوانات هيأها الله تعالى لتكـون طعامـاً للإنسـان، وهـو الأرحم والأعلم بها، ولا يجوز اتهام من يـأكلون اللحـوم بالقسـوة، فالذبح –مثلاً- بهذه الطريقـة أرحم بكثيـر من افـتراس الحيوانـات لبعضـها، ومـع هـذا لم يتّهم أحـدٌ الأُسـود والنمـور بالشراسـة والقسوة، وكلنـا يعلم أن هـذا مـا جُبلت عليـه المملكـة الحيوانيـة والتي خلقها اللـه تعـالى على هـذه الجِبلِـة ويعلم أن الأسـد لاحم ولن يهـدأ بالـه حـتى يمـزق الغـزال إربـاً، فهـل يجـوز أن ننسـب القسوة إلى الله تعالى في أنه جعلها على هـذه الجبلـة؟ إذ لمـاذا لم يخلقهـا جميعـاً حيوانـات نباتيـة يـرعى فيهـا الأسـد الهصـور الأعشاب بقرب الخروف الوديع؟

إن من رحمة الله أنه جعـل المـوت والـذبح على الانعـام سـهلاً ميسراً فالبلاء موكـل بـالمنطق والألم والمعانـاة يرتبطـان طرديـاً بالإدراك، وهذا من رحمة الله بهـذه الحيوانـات المُذللـة فلـو أنـك حاولت ذبح نمر مثلاً -وهو أعلى في الإدراك- فإنك ستلاحظ مـدى المعانـاة الـتي سـيعانيها ...(أو الـتي سـتعانيها أنت إن أفلت من رباطه).

ولنا هنا بشـكل عـام أن نتسـاءل عمـا هـو الحلال والحـرام في الأطعمة؟ وفي هذا المقام يبرز واجب التفريق بين الأنعام وبهيمة الأنعـام، ولمعرفـة الفـرق علينـا أولاً أن نتعـرف على شخصـية الحيوانات وما يميزها، فالحمار مثلاً يتمتع بذكاء وحضور وكاريزمـا أكثر من البقرة والخروف والمـاعز والإبـل والخـنزير، الـتي تُعتـبر حيوانــات "قطيعيــة" لا إدراك لهــا، وتعتمــد على الانســان في معيشتها اعتمـاداً كـاملاً، وهـذه الحيوانـات أقـل ذكـاء من الحمـار والغزال ولا تمتلك نهجا حياتيـاً معينـاً لأنهـا في الغـالب تعيش في المزارع ولا تملك خططاً ومهارات للدفاع عن نفسها، لــذلك فهي "أنعــام" مســخرة بالكامــل لخدمــة الإنســان كمصــدر للطعــام والحليب. هـذا التفريـق مهم لأنـه يسـاعدنا على معرفـة الفـرق الدقيق بين الأنعام وبهيمة الانعام، والحقيقة أنـه لا فـرق جـوهري بينهما ولكن بهيمة الأنعـام تشـمل الانعـام، فبهيمـة الأنعـام عامـة والانعام جزء منها، والأنعـام هي تلـك الفئـة الـتي ليس لهـا نظـام حياتي يذكر، فقط أكل ونوم وتكاثر (كالكثير منّا)، وتتشـابه جـداً- بــل وتتطــابق في تصــرفاتها ورد فعلهــا ومعيشــتها، ومن أمثلتهــا الأبقــار والمــاعز، فهي مخلوقــات غــير عاقلــة أو مدركــة لــذلك ســخرها اللــه تعــالى لنــا لنســتفيد من لحومهــا ولبنهــا وجلودهــا وأصوافها، وشجعنا على تناولها، مـع توسـيع لـدائرة الحلال بقولـه تعالى (أُحلّت لكم بهيمة الأنعام)؟

إذن وصلنا حتى الان إلى أن بهيمة الانعام هي مجموعة حيوانية متدنيـة في الإدراك لكنهـا على درجـتين: الأكـثر تعقلاً واسـتقلالية وهي الحمير والبغال والأقل إدراكاً وهي الانعام كالخروف والبقرة والجاموس. قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَـا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ".

قــال تعــالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ ثُمَّ جَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَـامِ ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6]، فاللـه أنـزل لنـا- أي سـخر

لنا- من الأنعام ثمانية أزواج، والتي تشكل الطعام الرئيسي لكل أهل الأرض، وهذه المجموعة (الأنعام) حيوانات عاشبة جزء من حيوانات عاشبة أخرى هي (بهيمة الأنعام) وكلها حلال.

والخلاصة –فيما أرى- أن بهيمة الأنعام – آكلات العشب – كلها حلال وهذا يشمل الانعام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، وقال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: 28]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: 34].

القاعدة الفقهية العامة هي أن الأصل في الأمور هو الحلال والحلال لا يحتاج إلى حكم أو تشريع خاص، لكن في حالة إراقة الدماء فالأصل هو الحرام إلا ما ورد فيه استثناء، لذلك جاءت الآية لتحل لنا بهيمة الأنعام (...أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم...)، وهذا استثناء من حكم (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير..) والمقصود بالدم هنا هو الحيوانات اللاحمة.

كما استثني الخنزير من الحلال فهو –كتصنيف علمي- من بهيمة الانعام، يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ((إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)) غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ". فقوله تعالى (إلا ما يتلى عليكم) هي الاستثناء، فهذه المجموعة حلال باستثناء ما سيُتلى عليكم، فما الذي تلاه الله علينا؟ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، إذن ما يحرم هو الخنزير بعينه والميتة بصفتها والدم (أي قتل الحيوان بشكل عام وتحديداً الحيوانات اللاحمة لأن العاشبة مُدرجة في فئة بهيمة الأنعام والأنعام) وهذا هو الاستثناء الوارد في قوله تعالى (إلا ما يتلى عليكم).

وأمـا الهـدي في الحج، وهـو مـا ينبغي على الـذي اختـار حج القِران، أي قرن بين الحج والعمـرة في قولـه تعـالى: "فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إلى الْحَجِّ فَمَـا اسْتَيْسَـرَ مِنَ الْهَـدْيِ" [البقـرة:196] فهـو إرشاد محلي ووقتي خاص بقوم النـبي في زمـانهم، فـاليوم تُـذبح مئات الألوف من الأنعـام في فـترة محـدودة جـداً، مـا يـؤدي إلى تراكمها وتلفها، وفي السـنوات الأخـيرة اضـطرت السـلطات إلى تجميعهـا في بـرّادات خاصـة وإرسـالها إلى الفقـراء، وهـذا ليس الحل الأمثل اليوم، مع أنهـا في وقتهـا – أي وقت البعثـة النبويـة- كـانت تـؤدي دوراً حيويـاً حيث كـان عـدد الحجـاج قليلاً، وكـانت مناسبة يتناول فيها أهل مكة الفقراء والمساكين الطعـام، واليـوم انتفت هذه العلّة.

وهذا يقودنا إلى محاولة فهم الفرق بين الفقير والمسـكين في القـرآن الكـريم. يقـول تعـالى: أَمَّا السَّـفِينَةُ فَكَـانَتْ لِمَسَـاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِـكٌ يَأْخُـذُ كُـلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا [الكهف: 79]، مـا يـدلنا على أن هـؤلاء المسـاكين عنـدهم حرفـة يعتاشـون منهـا، أي أن هنـاك دخلاً فهم ليسـوا معدمين، ومن ذلك نستنتج أن المسكين في الحقيقة هو الانسـان الذي يقدر على قوت يومـه بصـعوبة لكنـه لا يقـدر على مـا فـوق ذلـك، لـذا فـان حاجاتـه الأساسـية متـوفرة من طعـام وشـراب ومسكن لكنه لا يسـتطيع أن يشـتري لأولاده ملابس في العيـد أو أن يصطحب عائلتـه إلى مطعم أو مدينـة ملاهي، لـذلك لن تجـده في مراكـز التسـوق أو الانديـة أو المسـابح العامـة فقـد أقعدتـه (أسكنته)ظروفـه الاقتصـادية عن الخـروج، وهـذا يكـون نشـاطه قليلاً جداً فهو يذهب إلى العمل، وغالباً فإنه يعمل بنظام المياومة ويعود ليسكن في بيته المتواضع فهـو بـذلك مسـكين، تجـد أولاده بأسـمالهم الباليـة يتوسـلون إليـه أن يصـحبهم إلى الملاهي والمطاعم والأنديـة لكن وضـعه الاقتصـادي أسـكنه عن الخـروج، وهذا هو المسكين.

ودليلنا في ذلك أننا نجد أن الله تعالى وضع الفقراء دائمـاً قبـل المسـاكين في كتابـه تعـالى لأن الفقـير غـير قـادر على الإيفـاء بمتطلبـات الحيـاة الأساسـية ويمكن لـه أن يمـوت جوعـاً، أمـا المسكين فقادر على العيش لكن لا شيء أبعد من هذا.

5. هل يجوز ضرب الزوجة؟

يقـف المسـلمون اليـوم بمجملهم جهـة اليمين أو اليسـار إزاء قضية ضرب الزوجة، وتعتريهم الحيرة والخجل بسـبب وجـود نص قرآني صريح يذكر ذلك في قوله تعـالى: ﴿الرِّجَـالُ قَوَّامُـونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُـوا مِنْ أَمْـوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُـوزَهُنَّ فَعِظُـوهُنَّ وَاهْجُـرُوهُنَّ فِي الْمَضَـاجِعِ وَاضْـرِبُوهُنَّ فَـإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيًّا كَبِـيرًا﴾ [النسـاء: 34]، وللهـرب من مـأزق الألفـاظ في الآيـة مـال التنويريـون إلى نفي الضرب بمعناه الحرفي وبحثوا في المفردة (ضرب) فوجـدوا

أن من معانيها الهجران والابتعاد فاختاروا هذا الحل بدون مواربة، وذلك هرباً من نص ظاهره لا يليق بـالقيم المعاصـرة اليـوم، ولـو أنهم فهموا الخطاب القرآني على محليته ووقتيته وظروفه البيئية لما احتاجوا إلى هذا التأويل. صحيح أن الضرب في القـرآن يعـني ضـمن مـا يعنيـه الهجـران أو الابتعـاد لكن المعـنى السـائد وهـو الضرب الفيزيائي مُتضمن أيضـاً في اللفظـة ولا يمكن تجاهلـه، لا بل فهو الخيار الأول الذي سـيخطر على بالـك عنـد قـراءة الآيـة، خاصة أن الآية ذكرت الهجـران فلا يعقـل أن يتم تكـراره (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُـرُوهُنَّ فِي الْمَضَـاجِعِ...)، فكيـف ستعاقب زوجتك بهجرانين اثنين؟ هرباً من هذا قـالوا إن الهجـران الأولى خاص بالفراش والمضـجع والثـاني خـاص بـالهجران خـارج البيت، بمعنى أن حل المرأة الناشز المتعالية على زوجهـا هـو أن يترك زوجها البيت حتى تتأدب، وهذا كلام غير منطقي، والحقيقــة فيما أرى أن الضرب هنا هو الضـرب بمعنـاه الجسـدي وعلينـا أن نتقبل الآية بهذا السياق فقد نزلت في بيئة كانت النساء تتعرضــن للوأد ويخاطب ثقافة موغلة في القساوة والذكورية فالضرب هــو حل أخير لامرأة تتعالى على زوجها في تلك البيئة وتلك الظروف، وهذه التأويلات التلطيفية هنا وهناك ناجمة عن ظاهرة واحدة هي تحنيط النص ومنحه صفة الأزلية والعالمية والحقيقة هي أن كتاب الله نصوص وسياقات تفاعلية ولا يستوي أي فهم لنا لهذا الكتـاب دون الاطلاع على سـياقاته في النص نفســه ومن الواقــع الــذي نزلت فيه السـور والآيـات، لـذلك لـو فهمنـا الآيـة ضـمن سـياقها التـاريخي والبيـئي لمـا اضـطررنا إلى تحريفهـا وتأويلهـا بشـكل متعسف بغية عصرنتها وتجميلها.

التراثيون كانوا أقرب إلى فهم الآية من التنويريين المعاصـرين، ومـع تصـالح التراثـيين مـع ظـاهر الآيـة إلا أنهم حـاولوا تلطيـف المسألة فقالوا إن للضرب شروطاً ومنها ألا يكون مبرحاً ومؤذيـاً، وبهذا فهم متصالحون مع فكرة الضـرب الجسـدي للمـرأة، لكنهم قولبوه ضمن شروط وآداب معينة.

وعلينا عموماً أن نعرف أن التوجيهات الواردة في الآية ليست تشريعات وأوامر حتى وإن وردت بصيغة الأمر وإنما هي إرشادات اجتماعية، بمعنى لو أن زوجة ناشز لم يعاقبها زوجها بالهجر في المضجع فلن يحاسبه الله على ذلك.
وكما قلنا فهذه الآيات نزلت تخاطب قوماً كان ينتشر بينهم وأد الإناث، في بيئة صحراوية قاسية، فلو فهم هؤلاء القوم الضرب بمعناه الظاهر وهو الضرب الجسدي فهذا يتناسب مع بيئتهم وأعرافهم هم، وليس بالضرورة أن يتناسب معنا، فتوجيه (واضربوهن) في سورة النساء، جاء ليضبط شيئًا كان موجودًا بالفعل، ولم تأتِ لتؤسّس لسلوك جديد. لقد حدّت من العنف ولم تشرّعه، فبدلاً من القتل أو الطرد، جاءت الآية لتقيّد هذا السلوك بثلاث مراحل تبدأ بالموعظة ثم الهجر ثم الضرب غير المبرّح.

لكن المشكلة تكمن في حرفية الفهم وتجميده خارج سياقه، فكم من الناس اليوم يتمسكون بهذه الآية لإثبات "حقهم" في ضرب النساء، دون أن يسألوا أنفسهم: هل نعيش في البيئة نفسها التي نزلت فيها هذه الآية؟ وهل ما كان يُناسب مجتمعًا قاسيًا تُنتهك فيه كرامة المرأة يصلح أن يُطبّق اليوم بنفس الأسلوب في زمن تغيّرت فيه مفاهيم العدالة والكرامة الإنسانية وحقوق المرأة؟

الحقيقة أن هذا النوع من الآيات يجب أن يُفهم بوصفه توصيفًا لمرحلة زمنية معينة، وليس تشريعًا أزليًا ملزمًا في كل وقت ومكان، وعدم تطبيق هذه الآية اليوم لا يعني تعطيلًا للقرآن، وإنما يعني فهمًا أعمق للمراد الإلهي، فالله لا يريد للإنسان أن يكرر نصوصًا بقدر ما يريد له أن يفهم مقاصدها. والقرآن، كما قلنا، لم ينزل على مجتمع مثالي، بل نزل على مجتمع مليء بالتشوهات الأخلاقية والاجتماعية، فجاء ليهذب ويقوّم ويقرب الناس خطوة بخطوة نحو العدالة.

وهنـا قاعـدة مهمـة يجب التوقـف عنـدها: أي نصّ تخجـل من تطبيقه أمام الناس، وتحديداً في سياق حضاري معاصـر كأوروبـا، فهو إما نص خاطئ بذاته (وهذا مستبعد في حالة القــرآن)، أو أن فهمك له خاطئ، أو أنه ورد في سـياقات بيئيـة فخاطبهـا بأدواتهـا وهو لا يقصـد اسـتدامتها وتعميمهـا على كـل مكـان وزمـان. فـإذا وجدت في نفسك حرجًا من ضرب زوجتك في بلد أوروبي، فتذكر جيدًا أن هذا الحرج ناتج عن تعارض الفعل مـع فطرتـك السـليمة ووعيـك الأخلاقي، وليس مـع "القـرآن". فـالحرج هنـا دليـل على ضرورة مراجعة الفهم، لا تعطيل النص.

التشريعات القرآنية بشكل عام إصلاحية لوقتها لا تأسيسية لكل العصور، مثل التدرّج في النهي عن الخمر، أو تقنين الرق، أو أحكام المواريث، أو حتى تعدد الزوجات، فهي تتعلق بمجتمع وبيئة واحتياجات معينة، وبالتالي فإن التعامل معها يتطلب وعيًا بالمقاصد، لا جمودًا على الألفاظ، وقريب من هذا يقول الإمام الغزالي في كتابه *"إحياء علوم الدين"* عن القرآن[1]:
"القرآن كلام الله، وهو محفوظ من التحريف والزلل في معناه، ولكن فهم الإنسان له قد يختلف باختلاف العصور والبيئات". فهذا يشير إلى أن النص ذاته ثابت، ولكن الفهم والتطبيق يخضعان لسياقات زمنية ومكانية مختلفة، تتطلب اجتهادًا واعيًا لا الجمود على الظاهر، فالإصلاحات الواردة فيه تستهدف هذه السياقات، وتعبر عن حالة معينة في المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي، وليست مقصودة لتكون تأسيسية لكل العصور والأمكنة دون تمييز. الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه *"مقاصد الشريعة الإسلامية"* يوضح ذلك بقوله[2]:
"إن التشريعات القرآنية كانت في أغلبها إصلاحات اجتماعية تصب في تحسين حالة الإنسان تدريجيًا، مثل التدرج في النهي عن الخمر، وتقنين الرق، وأحكام المواريث، وحتى تعدد الزوجات" ().

---

[1] الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص57
[2] د. محمد عبد الله دراز، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 128

وهذا يعني أن النصوص يجب أن تُقرأ في سياقها التاريخي والاجتماعي، مع محاولة فهم المقاصد الشرعية التي تستهدف تحقيق العدالة والمصلحة العامة، فعندما يجد المسلم نفسه يشعر بالحرج من تطبيق حكم معين، مثل ضرب الزوجة في مجتمع أوروبي، فهذا الحرج ينبع من وعي أخلاقي وفطري نابع من تطور المدنية، وليس من تعارض النص مع الإسلام، بل من تعارض فهم خاطئ أو تطبيق غير مدروس، وحتى ابن تيمية المتهم في الأدبيات المعاصرة بالتشدد والجمود أكد في *"مجموع الفتاوى"* أن[1]:

"الشرع جاء لتحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد، وليس التشريع بهدف الإضرار أو الإذلال. فإذا حدث تعارض بين فهم نص ودفع مفسدة أكبر، فإن الأصل في الشرع مراعاة المصلحة والعدالة"
.)

وهكـذا، فـإن فهمنـا المعاصـر للآيـة الـتي تتحـدث عن "ضـرب النساء" لا ينبغي أن يُقـرأ باعتبـاره تمـردًا على النص، بـل تقـديرًا للرسالة القرآنية في بعدها الإصلاحي، ووعيـاً بـأن القـرآن نفسـه يرشـدنا إلى التحـرك نحـو الأفضـل دائمًـا، ويضـع المقاصـد فـوق المظاهر، والعدالة فوق العُرف، والرحمة فوق السلطة.

---

[1] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج35، ص 112

الباب الثالث:

في فقه اللسان والخطاب

1. ضابط التفسير

على ماذا اعتمد علماء تفسير القرآن في تفسيرهم للكثير من الآيات في كتاب الله تعالى التي لا يضبطها ضابط دلالي أو لغوي أو تاريخي معين؟

مثلاً في قوله تعالى: ﴿والعادِياتِ ضَبْحًا﴾ ﴿فالمُورِياتِ قَدْحًا﴾ ﴿فالمُغِيراتِ صُبْحًا﴾ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ﴿إنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ﴿وإنَّهُ عَلى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ﴿وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

يرى ابن عباس أنه "لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوابِّ يَضْبَحُ غَيْرَ الفَرَسِ والكَلْبِ والثَّعْلَبِ. رَوى ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ إلى ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: بَيْنَما أنا جالِسٌ في الحِجْرِ جاءَنِي رَجُلٌ فَسَألَنِي عَنِ ﴿العادِياتِ ضَبْحًا﴾ فَقُلْتُ لَهُ: الخَيْلُ حِينَ تُغِيرُ في سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَأْوِي إلى اللَّيْلِ فَيَصْنَعُونَ طَعامَهم ويُورُونَ نارَهم، فانْفَتَلَ عَنِّي فَذَهَبَ إلى عَلِيِّ بْنِ أبِي طالِبٍ وهو تَحْتَ سِقايَةِ زَمْزَمَ فَسَألَهُ عَنْها، فَقالَ: سَألْتَ عَنْها أحَدًا قَبْلِي؟ قالَ: نَعَمْ، سَألْتُ ابْنَ عَبّاسٍ فَقالَ: الخَيْلُ تَغْزُو في سَبِيلِ اللَّهِ، قالَ: اذْهَبْ فادْعُهُ لِي، فَلَمّا وقَفْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ، قالَ: تُفْتِي النّاسَ بِما لا عِلْمَ لَكَ بِهِ، واللَّهِ لَكانَتْ أوَّلَ غَزْوَةٍ في الإسْلامِ لَبَدْرٌ، وما كانَ مَعَنا إلّا فَرَسانِ: فَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ، وفَرَسٌ لِلْمِقْدادِ، فَكَيْفَ تَكُونُ العادِياتِ ضَبْحًا، إنَّما العادِياتُ ضَبْحًا الإبِلُ مِن عَرَفَةَ إلى المُزْدَلِفَةِ، ومِنَ المُزْدَلِفَةِ إلى مِنى.[1]

وقصد علي بذلك إن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي كان أوله غزوة بدر، فكان رد ابن عباس: (فَنَزَعْتُ عَنْ قَوْلِي ورَجَعْتُ إلى الَّذِي قالَ عَلِيٌّ)، وسنلاحظ هنا أن اختلاف علي وابن عباس فيه بعض المنطق، فابن عباس ضابطه لغوي لأنه مقتنع أن

---

[1] تفسير ابن كثير، سورة العاديات، الآية 1

الحيوانات التي تضبح هي الفرس والكلب والثعلب بينما رأى علي أن المقصود هو الإبل والضابط تاريخي في ذلك فوقت نزول السورة لم يكن هناك الكثير من الخيول ليقسم الله تعالى بها، واعتمد صاحب القاموس هذا التفسير بأنها الإبل وليست الخيل ووجهة نظره أن من شدة العدو قويت أصوات الإبل حتى أشبهت ضبح الخيل، وقال المبرد وبعض أهل اللغة: مَن جَعَلَها لِلْإبِلِ جَعَلَ (ضَبْحًا) بِمَعْنى ضَبْعًا، يُقالُ: ضَبَحَتِ النّاقَةُ في سَيْرِها وضَبَعَتْ، إذا مَدَّتْ ضَبْعَيْها في السَّيْرِ، وقال أبو عبيدة : ضَبَحَتِ الخَيْلُ وضَبَعَتْ، إذا عَدَتْ، وهو أنْ يَمُدَّ الفَرَسُ ضَبْعَيْهِ إذا عَدا، أيْ: فالضَّبْحُ لُغَةٌ في الضَّبْعِ، وهو مِن قَلْبِ العَيْنِ حاءً.

وسنجد في هذه الاختلافات ضوابط معينة استند إليها الصحابة في فهمهم وتدبرهم للآيات وهذا الاختلاف محمود طالما أن هناك ضوابط يقفون عندها وسياقات ودلالات تاريخية ولغوية يستندون إليها.

خذ مثلاً في قوله تعالى (والأمثلة لا تكاد تُعد): "فسجدوا إلا إبليس كان من الجن.." قال ابن عباس: كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس (ففسق) أي خرج (عن أمر ربه) عن طاعة ربه (أفتتخذونه) يعني يا بني آدم (وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) أي أعداء[1] ، وهنا نجد أننا لا نزال في نطاق التفسير والتدبر المحمود القائم على استنطاق النصوص بلغتها وسياقاتها، والاختلاف فيه مقبول، لكن انظر مثلاً إلى هذه التحليلات:

"روى مجالد عن الشعبي قال: إني لقاعد يوما إذ أقبل رجل فقال: أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك عرس ما شهدته، ثم ذكرت قوله تعالى: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) فعلمت أنه لا تكون الذرية إلا من الزوجة، فقلت: نعم.

وقال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم.

وقيل: إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

[1] تفسير الطبري، سورة الحجر، الآية 27

قال مجاهد : من ذرية إبليس : " لاقيس " و " ولهان " وهما صاحبا الطهارة والصلاة ، و"الهفاف " و" مرة " وبه يكنى و" زلنبور " وهو صاحب الأسواق (أي المسؤول عن الغواية في الأسواق فيزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع) ، و" ثبر " وهو صاحب المصائب الذي يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب و" الأعور " وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة و"مطوس" وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا و"داسم" وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحتبس موضعه وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش : ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر اسم الله فأقول داسم داسم."[1]

هذه التدبرات لا ضابط لها وقائمة على التكهن والتأليف والخيال أو الاقتراض من الأساطير القديمة بشكل عشوائي أو بهدف الحديث في الأمر لمجرد الحديث والشهرة بدلاً من القول: لا أعرف. لا بل ولشرعنة تدبراتهم هذه ابتدعوا مجموعة من الروايات المنسوبة إلى النبي الكريم:

روي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء". [2]

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج حدثنا يحيى بن خلف الباهلي أنبأنا عبد الأعلى عن سعيد الجريري عن أبي العلاء أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا

[1] تفسير البغوي، سورة الكهف، الآية 50
[2] رواه ابن ماجه برقم (421)، وابن خزيمة (122)

أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً " قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني.[1]

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج حدثنا أبو كريب محمد بن علاء أنبأنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا فيقول : ما صنعت شيئا ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ، ويقول : نعم أنت".

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52]، وتحديداً في تفسير كلمة موبقاً قال ابن عباس هو واد في النار ، وقال مجاهد : واد في جهنم، وقال عكرمة : هو نهر في النار يسيل ناراً على حافته حيات مثل البغال الدهم[2].

فابن عباس ومجاهد وعكرمة لم يستندوا إلى أي ضابط في تفسيرهم للمفردة، وقالوا ما قالوه لأنهم كانوا هم الواجهة الإعلامية ووجهاء هذا المجال فكان من المُحرج أن يسكتوا عن تفسير مفردة ما حتى لا يتهمهم القوم بالجهل، ولو طلبت من مجاهد الدليل على أن موبقاً واد في جهنم لما استطاع أن يقدم الدليل والتبرير لذلك، لكنه استغل فكرة أن جهنم والجنة والجن والملائكة غيبيات لذلك لن ينجح أحد في تفنيد كلامه فكان يقول أي شيء دون برهان، شأنه في ذلك شأن من يرسم لوحة لإبليس فتراه يختار له أسناناً بارزة صدئة وآذاناً مفلطحة وحراشف على جلده، ولو سأله سائل من قال لك إن هيئة ابليس هكذا؟ سيقول له اثبت العكس ان استطعت.

والأمثلة كما أسلفنا لا تكاد تُعد ومنها في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ

---

[1] تفسير البغوي، سورة الكهف، الآية 50
[2] تفسير البغوي، سورة الكهف، الآية 52

مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿ [البقرة: 60]، إذ قال المفسرون إن العصا كانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، واسمها عليق حملها آدم عليه السلام من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام فأعطاها موسى عليه السلام.

وقال مقاتل: "اسم العصا بنعته"[1].

وقال ابن عباس في وصف الحجر: "كان حجراً خفيفاً مربعاً على قدر رأس الرجل كان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه"، وقال عطاء: "كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين"[2]. وقيل: كان الحجر رخاماً، وقيل: كان من الكذان فيه اثنتا عشرة حفرة، ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء، وكان يسقي كل يوم ستمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: "هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل ففر بثوبه ومر به على ملأ من بني إسرائيل حين رموه بالأدرة فلما أتاه جبريل فقال: إن الله تعالى يقول: ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فرفعه ووضعه في مخلاته".

وهكذا كانت هذه التفسيرات تتدفق في وعي الناس على مر الزمن ينهلون منها ويردون بها على الخصوم ولو فكروا للحظة واحدة لوجدوا أن من صدرت عنهم هذه الآراء لا يعلمون شيئاً عن هذا الحجر وهذه العصا، وأنهم قالوا ما قالوه ارتجالاً وخيالاً لا اجتهاداً وتدبُراً، وقد أدرك الأقدمون مثالب بعضهم في التفسير بشكل أكثر وضوحاً منا، وكانوا أكثر موضوعية في نقد بعضهم، أما اليوم فقد تكفل الزمن بتركيم هذه القداسة والفرد العادي اليوم أبحر بعيداً في قراءاته واهتماماته عن زمن ابن عباس لكنه حافظ على تراكم هذه القداسة، ولا نكاد نعرف في يومنا هذا عن

---

[1] تفسير البغوي، سورة البقرة، الآية 60

[2] نفس المصدر السابق

ابن عباس مثلاً سوى أنه ترجمـان القـرآن. لمـاذا وبمـاذا اسـتحق هذا؟ لا ندري، وإنمـا نحفـظ المقامـات عـبر الزمـان وكلمـا طـال الـزمن تعمقت هـذه المقامـات وتكلسـت في أدمغتنـا دون بحث حقيقي، بينمـا لا نجـد هـذا التقـديس لابن عبـاس في زمن سـابق فمثلاً ابن تيمية يرى أن ابن عباس كان يُكثر من التفسـير بـالرأي والاسرائيليات، وقد أشار إلى ذلك في قوله[1]: *"وكـان ابن عبـاس يُكـثر من الإسـرائيليات في تفسـيره"*. ويمكن أن نُفسّـر ظـاهرة تمجيد الأولين وتصنيمهم بعـدة أبعـاد متشـابكة **نفسياً**، إذ يميـل الإنسـان إلى تمجيـد الشخصـيات الكـبرى في ماضـيه كنـوع من التعــويض النفســي عن الحاضــر المضــطرب، فتتحــول تلــك الشخصيات إلى رموز مستقرة في الـوعي الجمعي، تمنح الأمـان والاسـتقرار وتسـدّ الحاجـة إلى اليقين. **واجتماعيـاً**، يسـود في المجتمعات التقليدية نـوع من "الـورع الاجتمـاعي" الـذي يحصّـن الرموز الدينية من النقد، ليس بالضرورة بدافع ديـني خـالص، بـل لأن بقـاء هـذه الرمـوز في عليائهـا هـو جـزء من انسـجام البنـاء الثقافي والاجتماعي واستمراريته. **أما تاريخياً**، فالتقديس عـادة ما يتضخم حين تنتقل المعرفة عبر الحفظ والانتقاء، لا عـبر النقـد والتحليل، فيتكرّس الاسم وتُمحى التفاصيل. حين تتوارث الأجيال "عنوان" الشخصية لا "نقاشها"، تصـبح القيمـة مجـردة ومطلقـة، وتفقد علاقتها بالسياق والإنجـاز. وهكـذا يتحـول شـخص مثـل ابن عباس إلى عنوان كبير مغلق على ذاته: "ترجمـان القـرآن"، دون أن يرافق ذلك وعي حقيقي بأعماله أو اجتهاداتـه أو حـتى اختلاف المواقف حوله بين العلماء.

لذا يمكننا القول إن تفسير القرآن كعلم ومنهجية تطور بشكل بطيء في عصره الأول لكنه عاد وتكلس بسبب ما أسلفنا من تراكم التصنيم والقداسات، وهذا ما رصده **جون وانسبرو** في كتابه **(دراسات قرآنية: (مصادر وأساليب التفسير القرآني Quranic Studies: Sources and Methods**

---

[1] د. محمد صالح محمد سليمان، "اختلاف السلف في التفسير بين التنظير والتطبيق"، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 2009م، ص. 524

of Scriptural Interpretation)، حيث يرى[2]: *"من وجهة نظر كرونولوجية، تطور الأدب التفسيري الإسلامي الذي يُنظر فيه هنا استغرق حوالي مئة وخمسين عامًا، من مقاتل (ت. 150/767) إلى ابن قتيبة (ت. 276/889). خلال تلك الفترة، تم تطوير مبادئ التفسير وتحسينها، ومن غير المبالغة القول إنه بعد ذلك، قُدمت القليل من الابتكارات المنهجية، إن وُجدت."*

2. خصوصية اللسان العربي

للسان العربي وقعٌ خاص وجرس فريد ولمنغلقاته مفاتيح من أهمها الرجوع إلى أصل الكلمات الثنائي

[2] جون وانسبرو (John Wansbrough) ، "دراسات قرآنية: مصادر وأساليب التفسير القرآني" (Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation، ص1

المشدد، وحينها يسهل الكشف عن معنى الزوائد فيها، وهذه الخصوصية لا تنبع فقط من البنية الصوتية أو الجمالية، بل من تراكب معقد بين الدلالة والصياغة والمخيال العربي القديم. فاللسان العربي ليس مجرد أداة توصيل، بل هو حاملٌ لثقافة كاملة، ولشبكة معقدة من الإيحاءات والمرجعيات التاريخية والاجتماعية، لا يمكن فصلها عن البيئة التي نزل فيها القرآن. ولذلك، فإن القرآن لم يخاطب "البشرية" بلسان كوني محايد، بل خاطب قوماً محددين بلسان محدد، كما قال تعالى: **"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيِّن لهم"** [إبراهيم: 4]، والقول بأن القرآن "ميسّر" لكل الأمم يحاول جاهداً أن يتجاوز هذه الحقيقة، فالمعنى والتأويل والاستيعاب مرهون بأدوات لا يملكها إلا من تشرب اللسان العربي في عمقه، والفهم الحقيقي للنص القرآني لا يقوم على مجرد ترجمة ظاهر الألفاظ، بل يتطلب تذوقاً دقيقاً لبنية الكلمة وإيقاع الجملة وسياقات الاستعمال. فمثلاً، الزوائد في الكلمة العربية ليست زخارف لغوية بل تحمل معاني دقيقة لا يمكن التقاطها بسهولة، ولا يتقنها إلا من مارس العربية في أصلها لا من تعلمها لاحقاً كلغة ثانية أو ثالثة.

ثم إن كثيرًا من الألفاظ القرآنية محمولة على مجاز أو عرف ثقافي أو مرجعية شعرية جاهلية، مما يجعل فهمها الفعلي مستحيلاً خارج الوعي العربي التاريخي. فحين نقرأ ألفاظًا مثل "الرفث"، "الملأ"، "الأنفال"، أو "الغيّ"، لا يكفي أن نترجمها إلى لغة أخرى، لأن الترجمة تنقل المعنى السطحي وتُفقد الكلمة عمقها العاطفي والثقافي.

ومن هنا يمكن القول إن خصوصية اللسان العربي ليست فقط تقنية لغوية بل عائق حضاري ومعرفي يجعل من القرآن الكريم نصاً نخبوياً من حيث الفهم، موجهاً ابتداءً إلى من يتقن لغته ويتنفس مفرداته. فكما لا يمكن لأمة لا تعرف اليونانية القديمة أن تفهم أفكار أرسطو في ثنايا نصوصه الأصلية، كذلك لا يمكن

لأمة لا تملك أدوات العربية أن تُدرك حقيقة الخطاب القرآني، ولو قرأته آلاف المرات مترجماً.

مثلاً كلمة (نبي) أصلها الثنائي هو نبَ، ومقلوبه بنَ. هذا الأصل (نبَ) يدل دائماً على حالة انبعاث من مكتوم ومخفي إلى معلوم ومشاهد، فهناك حركة من الداخل إلى الخارج، وانظر إلى الكلمات المتشكلة من هذا الأصل: نبت، نبث، نبج، نبح، نبخ، نبذ، نبر، نبس، نبش، نبص، نبض، نبط، نبع، نبغ، نبق، نبك، نبل، نبه، نبو، نبأ.

- النبت هو خروج النبات من تحت التراب
- النبث إبراز شيء من الخفاء وسمي الحافر نابث لأنه ينبث مستور الأرض
- والنبح والنبج كلمتان تتعلقان بإخراج الصوت القوي من الخفاء
- والنبس والنبص تستعملان لنفس الغاية لكنهما أعم فيستخدمان للإنسان والحيوان
- والنبخ تدل على بروز ما تحت الجلد
- والنبذ تعني الطرح والطرد، فيكون الشيء مستوراً إلى فصيلة أو فريق وتنبذه إلى العراء فصار مكشوفاً
- والنبر يدل على الرفعة والعلو، فهو خروج من ستر الاعتياد إلى التميز والعلو، وسمي المنبر منبراً لأنه مكان مرتفع ويعلو الصوت فيه
- والنبض خروج من حالة السكون إلى الحركة، فالنابض يكشف عن نفسه لأن السكون كُمون والحركة افتضاح
- والنبط استخراج شيء، فمستنبط الماء مخرجه من غيب الأرض
- ونبغ تدل على البروز من حالة الاعتياد، فنقول نبغ فلان أي لم يعد إنساناً عادياً وإنما متميزاً في مجال ما مثل الشعر أو العلم أو الأدب.

- والنبك ارتفاع الأرض بعد استواء
- وكذلك النبو التي تـدل على التمـيز والخـروج من الغيب إلى الشهادة، من الستر إلى العمومية، فالنبأ هو خـبر خـرج من عـالم الغيب إلى عالم الشهادة.
- أمـا مقلـوب الكلمـة وهـو (بنَ) فهـو عكس المعـنى أي أنـه يرتبـط بـاللزوم والإقامـة على عكس نب الـتي ترتبـط بـالخروج والانبثاق، لذلك نقول أبنَ القوم بمكان ما، أي أقاموا فيه، وسمي الأصـبع بنانـاً لأنـه مقـترن بالثبـات ويعين صـاحبه على الإقامـة، وسمي البناء بناء لان فيه إقامة، والبنون سُمّوا كـذلك لأنهم أكـبر سبب للتجمع والإقامة.

ونقتبس من بحث (القيم الدلالية لأصوات الحـروف في العربيـة)[1] للدكتورة منال النجار مثلاً حرف القاف في القـرآن الكـريم الـذي نشعر بجلاء أن له موقعاً ومدلولاً وشخصية واستقلالية وأنــه ليس مجرد صوت اعتباطي، والأمر نفسه ينطبق على أصـوات العربيـة كلها، حيث يتفق الكثير من اللغويين المعاصـرين والأقـدمين على أن حرف القاف فيـه: شـدة وانفتـاح وعلـو وانفجـار، وربمـا لهـذا سـميت سـورة ق بهـذا الاسـم واسـتهلت آياتهـا بحـرف القـاف، فالسـورة تتحـدث عن أهـوال القيامـة والقبـور والوعيـد والتلقي والحساب. ق والقران المجيد

قد علمنا ما تنقص الأرض

فـــوقهم...والقينـــا...يتلقى المتلقيـــان...رقيب عتيـــد...ســـائق وشهيد...قرينه...ألقيا في جهنم...فألقياه...ما يبدل القول...نقـول لجهنم...الخ.

ويسـتمر حـرف القـاف في الظهـور بشـكل لافت حـتى الآيـة الأخيرة (فذكر بالقـــــرآن من يخاف وعيد).

---

[1] القيم الدلالية لأصوات الحروف في العربية، د. منال النجار، مجلة جامعة النجاح 2010 https://journals.najah.edu/media/journals/full_texts/semantic-values-arabic-sounds.pdf

حرف القاف قوي وانفجاري كما أسلفنا لذا ناسب أن يتصدى لمواقف واهوال القيامة والقبر والوعيد والتلقي والإلقاء والحساب والبعث والحشر.

وتتضح الصورة أكثر لو قارنا هذا الحرف بحرف الصاد مثلا في سورة صاد، التي يتركز فيها الحديث حول الخُـ(صـــــ)ـومة.

الخُصومة هي ثيمة theme أو فكرة رئيسية واضحة في السورة.

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ
وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ
أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ

لاحظ كيف تبلورت الخصومة وتشكلت من الآيات الأولى للسورة.

أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ

اذن انكار وتساؤل وتكذيب وشقاق من طرف المشركين (خصومة).

ثم في وسط السورة نقرأ قصة إختصام الخصمين عند داوود.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ

وما تضمنته القصة من اختصامهما حول ظلم أحدهما للآخر واغتصاب حقه.

يلي ذلك تخاصم أهل النار

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ

ثم تخاصم الملأ الأعلى

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ

ثم تخاصم ابليس وعصيانه لربه.

وصوت الصاد فيه همس واحتكاك وصفير، لذا ناسب ثيمة الخصومة لما في الخصومة من احتكاك الأفراد بعضهم ببعض، وما نلاحظه من فرق بين القاف والصاد هو أن القاف انفجاري لذا فهو سريع ولا يتطلب وقتاً، فيناسب القيامة والبعث أما

الخصومة فهو صوت احتكاكي طويل وبإمكانـك أن تلفظـه طـويلاً حـــــــــتى ينقطـــــــــــع نفســــــــــك (صـــ) وهذا يناسب الخصـومة لمـا فيهـا من أخـذ ورد وثأر قد يستمر طويلاً وقد لا ينتهي.

هـذا الصـوت المهمـوس (ص) صـوت متعب بلفظـه فلإنتـاج الصـفير فـإن الاحتكـاك يتم ضـمن مجـرى ضـيق في المخـرج الصوتي، فهو متعبٌ في نطقه لحاجتك إلى كمية كبـيرة من هـواء الرئتين لإنتاجه ومتعب في مدلوله فالخصومة تضيق بها النفس.

وهذا يجري أيضا على (الصاخّة) التي هي اسم من أسـماء يـوم القيامـة، ومـا تتضـمنه من أصـوات ناتجـة عن انفطـار الكـون وارتطام اجزائه بعضها ببعض وصوت النفخة وما يرافـق ذلـك من أهـوال سـتكون طويلـة وهـذا مـا يـوحي بـه حـرف الألـف في الصـــاخة.

هذه ليست مصادفات، وإنما ظواهر فطرية، وهي لا تقـف على لغتنا العربية وانما تتعداها إلى اللغات الأخرى، ولكن اللغة العربية أكمل وأنقى وأبين، خذ مثلاً اللغة الإنجليزية:

نلاحظ التقاء الحروف umb يوحي بالضعف ويدل عليه.

كلمة numb مثلاً تعني خدر، والخدر ضعف في اليد

كلمة crumble معناها يتفتت او ينهار

كلمـة mumble معناهـا يغمغم او يتكلم بصـوت ضـعيف غـير مسموع

كلمة stumble تعني يتعثر فيكاد يسقط.

هذه ليست مصادفات!

الكلمـات الـتي تبـدأ بحـرفي sn- تـدل على شـيء عـارض وتجمعها إمكانية الزوال وعدم الديمومة

مثلا كلمة snack فهي وجبة خفيفة عارضة بين الوجبات

وكلمة snag وتعني نتوء في شجرة، أو تمزق في قماش

وكلمة snip وتعني يقطع بشكل سريع
وكلمة snub وتعني يستخف أو يتجاهل، وهي صفة عارضة طارئة في الإنسان
وكلمة snivel وتعني سيلان الأنف وهي حالة طارئة عارضة
أما لو تتبعنا الكلمات التي تبدأ بالحروف spr- فيجمعها التطاير والانتشار
خذ مثلا كلمة spray وتعني رذاذ
وكلمة spread وتعني الانتشار
وكلمة spring وتعني البروز والظهور والانبثاق
وsprinkle وتعني الرش
وsprout وتعني النمو السريع والتبرعم
وأما الكلمات التي تبدأ بالحروف str- وتدل على الامتداد المعنوي أو المادي:
مثلا كلمة straight تعني مستقيم
وكلمة street وتعني شارع
وكلمة strait وتعني مضيق بحري
وكلمة streak وتعني خط أو علامة
وكلمة stray وتعني الانحراف عن الخط المستقيم
وكلمة strap وتعني شريط
وكلمة string وتعني خيط.

من هذا نخلص إلى أن الدلالة الصوتية تساند الدلالة المعجمية للألفاظ، وهذه الظاهرة ملحوظة بقوة في اللسان العربي، بينما نلحظ هذه الظاهرة بخجل وكسل في اللغات الأخرى. ولننظر مثلا إلى صوت الشين في اللسان العربي ودلالاته الانتشار فهو يخرج من بين الاسنان متفرقاً منتشراً ليحاكي وظيفته.

فـــــإذا أنتم بشـــــــــــــــــــــــــر تنتشــــــــــــــــــرون

حشيش، شرارة، شعاع، شمس، شهرة، إشاعة، عشب، شجر، الخ.

فهل يستطيع الصيني أن يفهم هذا اللسان العربي؟ هـذا ممكن نظرياً، لكنه صعب جداً من الناحية العملية والواقعيـة فهـو بحاجـة إلى سنوات طويلة وقـراءة عميقـة جـداً وفهم لـدلالات الأصـوات وهذا ربما سيستغرق منه عمـره كـاملاً، وبنـاء عليـه فـإن القـرآن لسان فطري موجه لقوم يفهمونه بالفطرة وهم أمة محمـد عليـه السـلام فاللـه تعـالى يعلم مشـقة الوصـول إلى دلالات الأصـوات العربية من غير العربي ولا يعقـل أن يقيم الحجـة عليهم في أمـر يصعب أو يستحيل عليهم إدراكه.

3. الحرفيـــــــــــــون

إلى الأخـوة الحرفـيين literalists أي الـذين يؤمنـون بحرفيـة القـران وأن النص لا يـورد كلمـة إلا ويقصـدها حرفيا أقول لهم إن هذا الكلام على إطلاقـه صـحيح لكن عليكم الحذر الحذر في التعامل معه.

صحيح أن القرآن دقيق جـداً لكنـه كتـاب يمتـاز بخطـاب خـاص ومتنوع.

مثلاً :

ماذا يقول الحرفيـون عن الآيـة التاليـة: (فأمّـا الـذين اسـودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم..)

لاحظ اختلاف الضمائر بين اسـودت وجـوههم (ضـمير الغـائب) وأكفرتم بعد ايمانكم (ضمير المخاطب).

هل الله تعالى يخاطب هنا فئتين مختلفـتين؟ فئـة من اسـودت وجوههم وفئة من كفروا - أم أنها فئة واحدة؟

الجـواب هي فئـة واحـدة ولا يجـوز أن نأخـذ القـرآن بحرفيتـه فنقول طالما اختلف الضمير إذن اختلف حامل الضمير. هـذا غـير صحيح.

إنما الحكمة من التحول إلى المخاطب هي لإعطاء قوة ورهبـة أكـــــــــــــــــــبر للخطـــــــــــــــــــاب.

وانظـر إلى آيـة (وإن منكم إلا واردهـا) فالمفسـرون اعتبروهـا تشمل كل الناس، لكن الخطـاب هنـا للكـافرين وفيـه تحـول إلى المخاطب لإعطائه قوة وعمقا اكبر.

مثال 2:

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْـرٌ وَإِسْـتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَـاوِرَ مِنْ فِضَّـةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَـانَ سَـعْيُكُمْ مَشْكُورًا [الإنسان:21، 22]

وســقاهم (ضــمير غــائب) كــان لكم (ضــمير مخــاطب) والمخاطب واحد، والحكمة من التحول إلى المخاطب هي لإظهار كرم الله تعالى.

وفي استخدام (أو) سنقع في مغالطات لو فهمناها حرفياً بالمعنى السائد الذي يعرفه الجميع وهو التخيير بين أمرين أو شيئين، فهي تستخدم لهذا مثل قوله تعالى:(ففدية من طعام او نسك)، لكن في حالات أخرى يختلف المعنى. انظر قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146]، فهل المعنى أن المحرم هو إما الحوايا أو ما اختلط بعظم؟ أم أن استخدام أو هنا يأتي بمعنى (و)؟

وما قولك في قوله تعالى "﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 77]، فهل الله تعالى لا يعلم إن كان مثل لمح البصر أو هو أقرب؟ أم أن لها مقصداً آخر؟

في الحقيقة فإن (أو) هنا تعني (بل) وتستخدم للتوكيد، بحيث يكون المعنى كلمح البصر بل هو أقرب.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: 147]، فهي تعني بل يزيدون. والامثلة كثيرة جداً على ثراء القرآن وتنوع أساليب خطابه.

وعلينا الانتباه عند دراسة القرآن الكريم إلى أن اللفظة المفردة لا يشترط بالضرورة أن تحمل معنى مفردا، وهو ذلك المعنى الذي نعرفه، فالكثير منا يرى أن المفردات تحمل معنى واحدا فقط أينما حلّت وأينما ارتحلت، وهذا صائب ولكن جزئياً، فالمفردة لها معنى واحد لكنه ليس معنى مفرداً، وإنما قالب دلالي يحمل مدلولاً رئيسياً يتفرع منه معان ضمن هذا الفلك أحدها هو الذي نعرفه في حياتنا اليومية، لكنه ليس الوحيد.

لنأخذ مثال كلمة الماء. ما معنى الماء؟ الإجابة الواضحة والمباشرة هي أنه السائل الذي نشربه لنبقى على قيد الحياة وهو بلا لون أو طعم أو رائحة، لكن الماء في القرآن الكريم وفي اللسان العربي بشكل عام هو قالب دلالي لمضمون الميوعة والسيولة (ماء=مائع)، ولك أن تنظر إلى قوله تعالى: (وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً)، فالماء هنا معناه المطر، وهـو المعـنى الـذي نعرفـه ذلك السائل الحيوي الذي نشـربه ولا لـون لـه أو طعم أو رائحـة. فماذا عن قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَـاءٍ صَـدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16]، هل الماء هنا هـو السـائل الـذي نعرفـه؟ لا، وإنمـا معنـاه التقيحـات الـتي تـنزف من الجـرح، ولـك أن تلاحـظ هنـا اشتراك الماء في الآية الأولى والثانية في دلالة الميوعـة، فالمـاء في الحـالتين يعـبر عن سـائل مـائع لكنـه لا يتشـكل من المـادة نفسها، وانظر مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَـاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلَى بَطْنِـهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَـاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: 45]، فالمراد هنا قد يكون الماء الذي نعـرف وقد يكون السائل المنوي في الحيوان، وهو الأرجح، وبهذا يختلف عن الماء الصديد في الآية الثانية وعن ماء المطر في الآية الأولى لكنه يشترك معها في دلالة الميوعة والسـيولة، والمـاء في قولـه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ﴾ [السـجدة: 8]، فهو هنا مني الرجـل، ويشـترك مجـدداً مـع مـا سـبق في الدلالـة نفسها.

إذن لفظة المـاء لهـا قـالب دلالي هـو السـيولة والميوعـة ومن أجل فهمها علينا الرجوع إلى السياقات، وهذه النقطة تضـيء لنـا زوايا كثيرة في كتاب الله تعالى، فبنـاء على قولـه تعـالى: ﴿وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكَـانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْـدِ الْمَـوْتِ لَيَقُـولَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هـود: 7]، يمكننا القول إن الماء هنا ليس بالضرورة الماء الـذي نشـربه، ولا يجوز أن نتخيل العرش كمقعد وثير عملاق يسـتقر على بركـة من الماء، فماء الشرب الذي نعرفـه قـد تشـكل في مرحلـة متـأخرة أصـلاً من خلـق الكـون، لكن النص هنـا يتحـدث عن حالـة الكـون المائعة قبل مليارات السنين، وقبل مرحلة "الرتق"، وهذه نظرية راجحة في الأوساط العلمية فالكون بعد ولادته كـان كتلـة سـائلة وحارة جداً، وكان العرش والقانون الإلهي -وما يزال طبعاً- مهيمناً

عليه بقوانينه، وطبعاً الماء الذي نعرفه (H_2O) لم يكن قد تشكل بعد، ثم تلت تلك مرحلة "الفتق" التي تشكل بعدها سائل الحياة الذي نعرفه اليوم، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]

لذا فمن مفاتيح فهم كتاب الله تعالى هو عدم الوقوف على المعنى السائد للمفردة على افتراض أنه المعنى الوحيد، وهناك العديد من الأمثلة التي قد توضح هذه النقطة، فلو نظرنا في قوله تعالى: (والصبح إذا تنفس) فإننا ومن أجل الهروب من "غموض" الآية سنلجأ إلى المجاز فنقول إن الصبح لا يتنفس كالإنسان وبناء عليه فقوله تعالى (والصبح إذا تنفس) هي نوع من المجاز. هذه إجابة مريحة، لكنها ليست دقيقة، لأننا استخدمنا المعنى الوحيد الذي نعرفه للتنفس وهو إدخال الهواء إلى الرئتين وإخراجه منها فيما يُعرف بالشهيق والزفير، وفرضنا ذلك على الآية الكريمة، معتبرين أن ما ورد في الآية هو مجاز، إذ لا يُعقل للصبح أن يتنفس بهذه الطريقة، والقرآن شبّه الصبح بالإنسان، الخ. والحقيقة أن هناك دلالة محورية أو قالب في اللسان العربي لهذه اللفظة، لأجلها أطلقنا لفظة التنفس على عملية إدخال الهواء وإخراجه من الرئتين، ودلالة النَفَس في اللسان هي السريان في الشيء من أجل إصلاحه وإتاحة التصرف له مثل سريان الدم في شرايين الإنسان لإصلاح البدن والحياة وسريان الهواء في قصبات الإنسان ورئتيه لتحقيق هدف الحياة والإصلاح، ولهذا سُمّي دم الولادة (نَفَاس)، وعليه فإن معنى (والصبح إذا تنفس) أي سرى في الأرض وانتشر بغية الإصلاح وقيام الحياة، فهذا هو المعنى المحوري، ولا يعني بالضرورة أن الصبح له رئتين يتنفس من خلالهما.

والوقوف على معنى واحد مُفرد للكلمة القرآنية قد ينتهي بالإنسان إلى تدبرات سطحية لا تخلو من طرافة، فهناك من الباحثين المعاصرين من تأبطوا المصحف الشريف وأغلقوا بابهم على أنفسهم معتمدين فقط على ثقافتهم العامة وقدراتهم الخام

في تـدبر القـرآن الكـريم، دون الرجـوع إلى المعـاجم اللسـانية والسياقات التاريخية والنصية للكتاب للتعرف على دلالات الألفاظ وأصـولها واسـتخداماتها المتعـددة. أحـد البـاحثين مثلاً قـال إن الكافرين في سورة البروج وتحديـداً في قولـه تعـالى (النـار ذات الوقـود، إذ هم عليهـا قعـود) يجلسـون حرفيـاً على أخـدود النـار، بمعنى أن هناك نفق أو قناة تجـري فيهـا النـار لتعـذيب المؤمـنين وشواءهم أحياء، وهؤلاء الكفار جالسون فوق هذا النفـق، وواضـح من منهجيـة البـاحث هنـا في فهم الآيـات اعتمـاده الكامـل على معـنى واحـد لكلمـة قعـود، فقعـد معناهـا جلس ولـذلك جلس الكافرون على النار حرفياً، سواء بوجود حاجز وهو سـقف النفـق أو بعدم وجوده، وهذا التدبر الذي خرج بها صديقنا الباحث أطـرب متابعيه، فطالمـا هـو تـدبر جديـد و-ربمـا- يخـرج عن نسـق الفهم التراثي فيسـتحق الإعجـاب بنظـرهم، وهـذا للأسـف مـا يقـع فيـه معظم الأخوة المتدبرين العصريين، إذ ينبغي على التدبر والاجتهاد أن يكون مُخالفاً للتراث باعتبـار أن الـتراث بمجملـه خطـأ، وهـذا غير دقيق، بل ينبغي على المتدبر أن يطّلع على تدبرات السابقين ويبـني عليهـا ويُعـدّل فيهـا مـا يـرى أنـه يسـتحق التعـديل، لا أن يرفضها بالكامل ويخرج بنتائج اعتماداً على عقلـه الخـام، فالتـدبر القـرآني بنـاء تـراكمي قـائم على التصـحيح والتعـديل المسـتمر والدراسة المستفيضة لمعاجم اللسان العربي والتـاريخ والسـيرة والمقارنة والمفاضلة المستمرة.

ويمكننـا في هـذا المقـام أن نحلـل كلمـة (قَعَـدَ) لـنرى مـدى انسـجامها مـع الآيـات المختلفـة، ونـرى هـل معناهـا الوحيـد هـو المعنى السائد الذي نعرفه وهـو الجلـوس أم أن لهـا قـالب دلالي يشمل الجلوس لكنه لا ينحصر فيه؟

هل مثلاً (قَعَدَ) في قوله تعالى (واقعدوا لهم كل مرصـد) تعـني اجلسوا؟ وماذا أفادت فكرة الجلوس هنا؟ وهـل في قولـه تعـالى على لسان الجن: (وإنا كنا نقعـد منهـا مقاعـد للسـمع)، تعـني أن الجن كـانوا يجلسـون في مجلس يسـترقون السـمع؟ هـل ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

تعني أنهم كانوا يقاتلون وهم يجلسون على كراسي(مقاعد)؟ هل (وقعد الـذين كـذبوا اللـه ورسـوله) تعـني انهم جلسـوا؟ والأمثلـة كثيرة، والتي توضح لنا أن هناك في (قَعَدَ) ما هو أكـثر من مجـرد الجلوس.

فـالمفردة لهـا معـنى أو قـالب دلالي في اللسـان، ومن هـذا القالب نستدل على عدة معاني متقاربة تدور ضمن فلك المعـنى المحوري ولا تخرج عنه، فهي تشمل الجلوس الذي نفهمه ولكنهـا لا تنحصر فيه، لأنها أعمق، والمعنى المحوري ل(قَعَدَ) هـو رسـوخ ينصب ما يعلـوه، كقواعـد الـبيت والهـودج فهـذه القواعـد تنصـب البيت أو الهودج فتقيمه وتثبته، ومن هذا قيـل (قَعَـد الإنسـان) أي ثبت وانتصب، لذا فالمعنى ينصب في قالب الثبات والرسوخ على الشـيء، لهـذا نفهم معـنى قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ غَـدَوْتَ مِنْ أَهْلِـكَ تُبَـوِّئُ الْمُـؤْمِنِينَ مَقَاعِـدَ لِلْقِتَـالِ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمـران: 121]، فمقاعـد هنـا تعـني مقامـات ثبـات ورسـوخ، أي كـأنهم راسخون في الأرض لا يتزحزحون، وقوله تعالى (واقعدوا لهم كل مرصد) أي اثبتوا ولا تنهزموا، فالقعود ثبـات سـواء على الحـق أو على الباطـل، ومن هـذا المعـنى المحـوري (الرسـوخ واللصـوق) اشتُقت دلالة التثاقل عن القتال والتخلف عنه، فهؤلاء المنـافقون ثابتون لا يتزحزحون باتجاه المعركـة وهـذا التثاقـل واللصـوق هـو معنى قوله تعالى (وقعد الذين كـذبوا اللـه ورسـوله)، وفي قولـه تعـالى (فـرح المخلفـون بمقعـدهم خلاف رسـول اللـه) أي أنهم فرحـوا بمقـام التثاقـل واللصـوق هـذا، بعيـداً عن أرض المعركـة، فهنـاك ثبـات في المعركـة للمؤمـنين وهنـاك ثبـات عن المعركـة للمنافقين، ومن هذا نفهم أن الكفار في سورة البروج لم يكونـوا جالسـين على النـار وإنمـا كـانوا قعـوداً على الأخـدود أي ثـابتين وراسـخين لا ينفكـون عن مراقبـة المؤمـنين والإشـراف على تعذيبهم وقتلهم، والخلاصة أنه لا يمكن تدبر القرآن الكـريم بـدون الرجوع إلى المعاجم اللسانية ومقارنتها وتـدبرها فـالقرآن لسـان عربي واللسان العربي غني ولا يجوز أن أقف فقـط على المعـنى السائد وأفسر القرآن بناء عليه.

ومن الألفاظ الغنية التي تستحق الانتباه أيضاً، والـتي تؤكـد لنـا أن هذا القرآن العظيم هـو وثيقـة كونيـة علميـة في منتهى الدقـة هي لفظة (دحى)، في قوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها)، فما الذي حصل للكـرة الأرضـية هنـا تحديـداً؟ في لهجتنـا العاميـة في الأردن نقول: فلان مدحدح، ونقصـد بـه الرجـل السـمين الممتلئ والقصير، وربمـا هـذه اللفظـة موجـودة في بلاد أخـرى، وبالفعـل وبالرجوع إلى المعاجم نجد أن الرجل الدحدح هـو القصـير غليـظ البطن المستدير الململم، فما معنى الفعل (دح)؟

المعنى الدقيق للفعل هو الضرب بالكف المنشورة، وهو الـدفع والإلصاق بالأرض أو الحائط، لذا فعندما نقـول دحّـه على الحائـط أي ضغطه حتى التصق بالحائط، مثل قرص العجين، وهذا ينطبـق على الأرض في مرحلـة من مراحـل تشـكلها فـدحي الأرض هـو جعلها كـالقرص بواسـطة الضـغط المسـتمر عليهـا (والأرض بعـد ذلك دحاها)، مثلما يفعل الخبـاز برغيـف العجين، فهـذا يعـني أنـه بسطها على شكل قرص دائري متماسك، وكـان النـبي الكـريم – كمـا تـروي كتب السـيرة- يلعب وهـو طفـل في مكـة بالمـداحي، وهي حجـارة مثـل القـرص كـانوا يـدحرجونها في الحفـرة، وهـذه اللفظة تصف مرحلة من مراحـل خلـق الأرض ولا تصـف وضـعية الأرض اليوم وشكلها الحالي، وهذه نقطة مهمة جداً ينبغي الانتباه إليها فالسياقات القرآنية تتحدث عن مراحل تشكل الأرض الأولية وفي سـياقات أخـرى سـنجد القـرآن يتحـدث عن مراحـل لاحقـة تتضـمن تهيئـة الأرض للسـكن عليهـا، وبعضـها يتحـدث عن واقـع الأرض اليوم كما نعرفـه، لـذا علينـا الانتبـاه إلى السـياقات، فآيـة (والأرض بعد ذلك دحاهـا) تتحـدث عن بـدايات خلـق الأرض حيث كانت كتلة من الغاز والغبار الكوني وكل ذلـك نسـتقيه من الجـذر (دَحَّ) فهو ضـغط الشـيء وإلصـاقه بالحائـط أو مـا شـابه، ونفس الشـيء ينطبـق على الأرض حيث كـانت قطعـة من الغـازات وانضغطت وتماسكت عبر الزمن، فهذه الآية تتحـدث عن بـدايات خلق الأرض حيث كانت قطعـة من غـاز وغبـار وكلـه نسـتقيه من الجـذر (دح) ألم نقـل انـه ضـغط الشـيء والصـاقه بـالأرض او

الحائط؟ ونفس الشيء ينطبق على الأرض فقد كانت قطعة من غازات وغبار وانضغطت وتماسكت، وهذا الحديث ليس عن الشكل النهائي للأرض لكنه حديث عن السحابة السديمية التي تكونت منها الأرض والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾، لاحظ أن دحي الأرض هنا جاء بعد بناء السماء، وهذه إذن أول مراحل تشكل الأرض، حيث تلتها مرحلة التماسك والتكور بسبب قوى الجاذبية العملاقة، والخلاصة دحاها أي ضغط عليها فتداخلت وتراكمت مادتها وتماسكت وأصبح لها حدود مثل القرص، والعلم يؤكد ذلك فالنظريات العلمية[1] ترى أن الشمس والكواكب تكونت بالتراكم حيث كانت في الأصل سديماً غازياً وأخذت تتضاغط إلى الداخل مع فقدان مستمر للحرارة لملايين السنين حتى أصبحت مثل القرص أو رغيف الخبز (والأرض بعد ذلك دحاها)، ومع استمرار انضغاطها إلى الداخل وفقدانها للحرارة تكورت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم : كرة. إذن هنا نلاحظ توافقاً جميلا جدا بين (دحاها) وبين الحقيقة العلمية فالمفردة عبرت تماما عن مرحلة من مراحل تكون الأرض.

كذلك علينا أن نتذكر بشكل عام أن القرآن يركز دائماً على الجوهر ولا يلتفت إلى المظهر، ولك أن تنظر في حديثه عن كافة الأنبياء والصالحين وحتى الكافرين وغير المؤمنين فلن تجد أي وصف جسدي لهؤلاء أو وصف لمظاهرهم فلا نعلم إن كان سيدنا موسى طويلاً أم قصير القامة ولا نعلم إن كان سيدنا نوح سميناً أو نحيفاً، ولا نعلم إن كان سيدنا إبراهيم أنيقاً باذخاً في لباسه أم كان بسيطاً متقشفاً، ولا نعلم حتى أي وصف جسدي خاص بسيدنا محمد والذي نزل عليه القرآن الكريم، والاستثناء الوحيد قد يكون في وصفه لطالوت ﴿ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ

[1] OpenStax, Astronomy 2e (OpenStax College, Rice University), 2018 edition, 384 ص

أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 247]ـ فقوله تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) جاءت لتخدم سياقاً معيناً، وليست بهدف الوصف بحد ذاته.

كذلك لم يذكر القرآن الكريم أي تفصيل حول أماكن إقامة ومعيشة هؤلاء الأنبياء وأي شخوص آخرين في القرآن الكريم، فلا نعلم من القرآن أين عاش سيدنا موسى أو سيدنا زكريا، والاستثناء في هذا قصة سيدنا يوسف التي وقعت في مصر، حيث ذُكر المكان لأهميته وسياقيته، حيث أن مصر كانت دولة قوية وكانت تشكل ثقلاً حضارياً مهماً في تلك الفترة الزمنية، والقصة التي أوردها القرآن في سورة يوسف تعلقت بأحداث كبرى مثل الجفاف الذي أصاب المنطقة، وكيف لعبت مصر دوراً مركزياً في تخزين وتوزيع الحبوب، ووجود يوسف في مصر والتحولات السياسية والاقتصادية التي حدثت نتيجة لذلك والتي تشكل أبعاداً مهمة على مستوى إدارة الدولة والحكم، كذلك جاءت القصة تمهيداً للحديث عن خروج بني إسرائيل من مصر في قصة موسى عليه السلام.

حتى في قصة يوسف عليه السلام والتي كان من ضمن محاورها الرئيسة جمال سيدنا يوسف إلا أن القرآن لم يركز على هذا الجانب بقدر ما كان يركز على أخلاق سيدنا يوسف وسيرته العطرة، مكتفياً بإشارة واحدة وهي قول النسوة: ...وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، بينما سنجد في المصادر العبرية وفي التراث اليهودي ما يؤكد لنا أن النبي يوسف عليه السلام كان جميلًا بشكل استثنائي.

في التوراة، وتحديدًا في سفر التكوين (برشيت بالعبرية)، يُشار إلى مظهر يوسف، حيث يذكر أنه كان "حسن الصورة وحسن المظهر" (سفر التكوين 39:6)، وقد استُخدمت العبارة

نفسها لوصف أمه راحيل، مما يشير إلى أن الجمال كان من الصفات البارزة في العائلة.

أما الأدب الرباني اليهودي وكتب المدراش (قصص تفسيرية أو تعليقات على التوراة)، فتتوسع في هذا الوصف وتفصل جمال يوسف بشكل أكبر. على سبيل المثال:

1. التفاسير التلمودية: يذكر التلمود (سوتاه 36ب) أن يوسف كان وسيمًا للغاية، ويشير إلى أن جماله جعله موضع إعجاب وجذب انتباه زوجة فوطيفار، التي وُصفت بأنها كانت مفتونة بيوسف بشكل كبير نتيجة لمظهره.

2. أدب المدراش: في مدراش "برشيت رباه" (وهو مجموعة من التعليقات الربانية على سفر التكوين)، وُصف يوسف بأنه كان "يتلألأ بالجمال"، بحيث يجذب الانتباه أينما ذهب، وغالبًا ما تؤكد مصادر المدراش على أن جمال يوسف لم يكن مجرد مظهر خارجي، بل كان أيضًا جمالًا روحانيًا، حيث كان مظهره الخارجي يعكس صلاحه الداخلي.

هذه المصادر اليهودية تسلط الضوء على جماله البدني وأيضًا على نزاهته الأخلاقية، مما يصوره على أنه تجسيد للفضيلة التي تساوي مظهره الخارجي، وهذا التركيز على جمال يوسف في النصوص العبرية يتوازى مع الوصف الإسلامي التراثي ليوسف على أنه "أُوتي شطر الحسن"، مما يعزز الإعجاب المشترك به في هذه التقاليد الدينية، لكن المسلمين علموا بجمال يوسف الاستثنائي من المصادر القديمة ومن كلام النبي محمد عليه السلام عنه وليس من القرآن الكريم نفسه، فالقرآن يحرص دوماً على التركيز على الجوهر والدلالات ولا يذكر صفات الأشخاص إلا عند اقتضاء السياق وبشكل مختصر جداً.

والرسالة واضحة من كل ما سبق وهي أن العبرة في الفكرة والحكمة والقيمة والدلالة وليست في الشخص أو المكان أو الزمان أو اللباس أو المظهر، وان الأفكار ينبغي أن تعبر الجغرافيا لتنتشر في كل مكان لأن الدلالات عامة وليست خاصة، في تأكيد واضح على أن دلالات القرآن عالمية وتصلح لكل زمان

ومكان بما تحويه من حكمة إلهيـة مطلقـة، هـذا مـع أن الخطـاب القرآني كما أسلفنا خطاب محلي خالص، أي أنه موجـه إلى قـوم النبي تحديداً يخاطبهم بما يفهمونـه ويمتلكونـه من أدوات لسـانية ودلالية ووعي مكاني وزماني.

غير أن هذه الرسالة وصلتنا مشوشة لأسباب تاريخيـة ونفسـية واجتماعيـة كثـيرة، فقدّسـنا الأشـخاص وأهملنـا القيم الـتي تقـف وراءها، لـذلك تجـدنا دومـاً نقيّم الآراء والمعتقـدات والأفكـار بنـاء على من قالها أو صرح بها وقيمته في المجتمع والدين، ولا نقيّمها بناء على قيمتها الحقيقية وبُرهانها العقلي، فما أن تطرح اجتهـاداً معيناً يخالف السابقين حـتى يوجـه إليـك الاصـبع الشـهير والقـول الشهير: من أنت من الشافعي حتى تقول كذا وكذا.

والحقيقة أن الله تعالى قـد حسـم كـل هـذا بقولـه (قـل هـاتوا برهانكم)، ولم يقل (قل هاتوا علماءكم)، أو (قـل هـاتوا درجـاتكم العلمية)، فبوصلة القرآن الكريم دائماً تشير إلى القيمة الحقيقيـة للأشياء وهو البرهان، لذلك تمكن سيدنا إبراهيم وهو ما يزال فتى من إفحام سادة قومه عندما ردّ عليهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63]، فطالما تعتبرون هذه الأصنام آلهة تحميكم وترزقكم فاسألوا كبيرهم من الذي حطّمهـا، وهذا يتضمن تلقائياً اتهاماً لها بالعجز التام عن الـدفاع عن نفسـها أو حـتى النطـق، وكـان هـذا الجـواب كافيـاً لأن يستسـلم القـوم للحـق، وبالفعـل فقـد رجعـوا إلى أنفسـهم للحظـة واسـتدركوا خطأهم ﴿فَرَجَعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ فَقَـالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، غـير أن الكِبر -آفة البشر ومنبع الخطايـا على مـر التـاريخ- منعهم من التوبــة، فكيــف لهم أن يســتمعوا إلى شــاب فقــير يعيش على الهامش ويتركوا آلهتهم التي ورثوها أباً عن جد؟ لذا لم يستطيعوا إنكـار عجـز آلهتهم عن النطـق ﴿ثُمَّ نُكِسُـوا عَلَى رُءُوسِـهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ مَـا هَـؤُلَاءِ يَنْطِقُـونَ﴾، أي أن الحُجّـة انقلبت عليهم وأقـروا بعجـز هـذه الأصـنام، فـاغتنم سـيدنا إبـراهيم الفرصـة وكـال لهم المزيد من القول لتعزيز حُجّته ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، وحينها بدلاً من أن يرضخوا للحق تضخمت غُدة الكبر عندهم فانتفضوا وقالوا قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [الأنبياء: 68]، وهذا هو مصير كل من يخاطب الناس بما لا تهوى، فالناس تركن دوماً بحكم عقليتها القطيعية إلى الأوهام وتدغدغها العواطف، وتعادي كل من يخاطبهم بالحق، لأنه بذلك يخرجهم من منطقة الراحة والسكون والاعتياد إلى أرض المعرفة والبرهان- والمعرفة بطبيعتها قلق ومغامرة.

4. ظاهر النص القرآني

يسعى التنويريون بكل جهدهم من أجل عصرنة وترويض ما يرون أنه لا يواكب مفردات العصر وأدواته، ومن أجل ذلك يلجؤون إلى استجداء اللغة بكل طريقة للخروج بالقرآن الكريم مما يرونه متاهة الخرافة إلى رحابة العلم والمنطق والسببية، وذلك استناداً إلى أن كل ما يجري في هذا الكون يجري ضمن قوانين فيزيائية وأن هذه هي سنة الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلاً). والحقيقة أن هذا الكلام بمضمونه العام متميز وعصري

ومنطقي لكن النص القرآني لا يتسق مع هذا الطـرح دائمـاً فهـو يقدم لنا في مواضع متفرقة ما يؤكـد على خـرق النـاموس الـذي نعرفه، وأسهل مثال نطرحه لذلك هو هدهد سليمان، فهذا الطائر الضعيف الذي لا يزيد وزنه عن نصف كيلو غرام قد قطـع مسـافة ليطلع على قوم سبأ ويدرك ضلالهم ويعود ليخبر سليمان بقصتهم ثم يعـود مـرة أخـرى إليهم حـاملاً رسـالة من سـليمان، وهكـذا، فالتفاصيل هنا تشير إلى خرق للقانون الفيزيائي الذي نعرفه وهو أن الطيور لا تسـتطيع أن تكلم النـاس ولا تسـتطيع أن تفهم كلام الناس، وليست ناضجة عقلياً بما يكفي لتقرر أن قوماً مـا ضـالون أو مهتدون. نعم هـذا الكلام منطقي ظاهريـاً، لكن النص القـرآني له رأي آخر، لذلك تجـدهم يسـعون إلى تأويـل المفـردات بشـكل متعسف فقالوا إن الهدهد هـو لقب لرجـل عسـكري يعمـل تحت إمرة سليمان، ولا يعقل أن يكون مجرد طائر ضئيل الحجم، تماماً كمـا نطلـق الألقـاب على الوحـدات العسـكرية في يومنـا هـذا فنسميها مثلاً وحدة النسور، وهذا الهدهـد على مـا يبـدو هـو فـرد استخباراتي يقوم بمهمـات الاسـتطلاع واسـتطاع في إحـدى هـذه المهمات أن يكشف عورة قوم بلقيس.

فكيف يكون حل هذا الإشكال؟

القاعـدة عنـدي هي أنـه ينبغي أن نفهم القـرآن الكـريم على ظـاهره مـا لم تـرد قرينـة تصـرفه عن هـذا الظـاهر، ولا يجـوز الاستجداء بقرينة العقل والمنطق العـادي فقـط لنصـرف القـرآن الكريم عن ذلك، فعلمنا محدود جـداً، ولا يجـوز أن نقيس بعقولنـا على كل ما ورد في النص القرآني، خاصة ما يتعلق بهذه الخوارق والمعجزات، فلو كـان (الهدهـد) لقبـاً لرجـل معين لوضـع القـرآن مفردة أو جملة تساعد على توضيح المقصود حتى لا يضل النـاس بهذا قروناً عديدة، فالقرآن كتاب بيان وتوضيح وليس كتاب ألغاز.

ولنفترض جدلاً أن الهدهد رجل عسكري، فما يكـون النمـل في السورة نفسها؟ هل هي فرقة من النسـاء مثلاً؟ وكيـف سـيدوس جيش سليمان بشراً دون أن يشـعر بـذلك (لا يحطمنكم سـليمان وجنوده وهم لا يشعرون)؟

ولا ننسـى أن الهدهـد قـد ورد في "الـترجوم"، ولكن بلفظـة "الـديك الأحمـر"، والـترجوم هـو ترجمـة آرامية قديمـة للـتراث اليهودي، وإليكم النص:

"At another time, when the heart of Solomon was gladdened with wine, he gave orders for the beasts of the land, the birds of the air, the creeping things of the earth, the demons from above and the Genii, to be brought, that they might dance around him, in order that all the kings waiting upon him might behold his grandeur. And all the royal scribes summoned by their names before him; in fact, all were there except the captives and prisoners and those in charge of them. Just then the Red-cock, enjoying itself, could not be found; and King Solomon said that they should seize and bring it by force, and indeed he sought to kill it. But just then the cock appeared in presence of the King, and said: O Lord, King of the earth! having applied thine ear, listen to my words. It is hardly three months since I made a firm resolution within me that I would not eat a crumb of bread, nor drink a drop of water until I had seen the whole world, and over it make my flight, saying to myself, I must know the city and the kingdom which is not subject to thee, my Lord King. Then I found the fortified city Qîtôr in the Eastern lands, and around it are stones of gold and silver in the streets plentiful as rubbish, and trees planted from the beginning of the world, and rivers to water it, flowing out of the garden of Eden. Many men are there wearing

garlands from the garden close by. They shoot arrows, but cannot use the bow. They are ruled by a woman, called Queen of Sheba. Now if it please my Lord King, thy servant, having bound up my girdle, will set out for the fort Qîtôr in Sheba; and having "bound their Kings with chains and their Nobles with links of iron," will bring them into thy presence. The proposal pleased the King, and the scribes prepared a despatch, which was placed under the bird's wing, and away it flew high up in the sky. It grew strong surrounded by a crowd of birds, and reached the Fort of Sheba. By chance the Queen of Sheba was out in the morning worshipping the sea; and the air being darkened by the multitude of birds, she became so alarmed as to rend her clothes in trouble and distress. Just then the Cock alighted by her, and she seeing the letter under its wing opened and read it as follows: "King Solomon sendeth to thee his salaam, and saith, The high and holy One hath set me over the beasts of the field, etc.; and the kings of the four Quarters send to ask after my welfare. Now if it please thee to come and ask after my welfare, I will set thee high above them all. But if it please thee not, I will send kings and armies against thee; — the beasts of the field are my people, the birds of the air my riders, the demons and genii thine enemies, — to imprison you, to slay and to feed upon you." When the Queen of Sheba heard it, she again rent her garments, and sending for her

Nobles asked their advice. They knew not Solomon, but advised her to send vessels by the sea, full of beautiful ornaments and gems, together with 6000 boys and girls in purple garments, who had all been born at the same moment; also to send a letter promising to visit him by the end of the year. It was a journey of seven years but she promised to come in three. When at last she came, Solomon sent a messenger shining in brilliant attire, like the morning dawn, to meet her. As they came together, she stepped from her carriage. "Why dost thou thus?" he asked. "Art thou not Solomon?" she said. "Nay, I am but a servant that standeth in his presence." The queen at once addressed a parable to her followers in compliment to him, and then was led by him to the Court. Solomon hearing she had come, arose and sat down in the Palace of glass. When the Queen of Sheba saw it, she thought that the glass floor was water, and so in crossing over lifted up her garments. When Solomon seeing the hair about her legs, cried out to her: Thy beauty is the beauty of women, but thy hair is as the hair of men; hair is good in man, but in woman it is not becoming. On this she said: My Lord, I have three enigmas to put to thee. If thou canst answer them, I shall know that thou art a wise man: but if not thou art like all around thee. When he had answered all three, she replied, astonished: Blessed be the Lord thy God, who hath placed thee on the throne that thou mightest rule

with right and justice. And she gave to Solomon much gold and silver; and he to her whatsoever she desired"

والترجمة المختصرة للنص:

(وفي وقتٍ آخر، حينما ابتهج قلب سليمان بالنبيذ، أمر الحيوانات والطيور والجان أن يرقصوا أمامه ليُظهر عظمته للملوك الحاضرين. وكان الجميع حاضراً، ما عدا المسجونين والسجّانين. غير أنّه لاحظ غياب الديك الأحمر ــ بدلًا من الهدهد الوارد في النص القرآني ــ فأمر بالقبض عليه لذبحه. لكنّ الطائر ما لبث أن ظهر معلناً اكتشافه مملكة سبأ الغنية، التي تحكمها امرأة ملكة ذات شأن.

فأرسل سليمان مع الديك رسالةً إليها، يرغّبها في زيارته كما يفعل ملوك الأركان الأربعة للأرض. ووعدها إن هي جاءت، أن يرفعها فوق مرتبة هؤلاء الملوك. أمّا إن رفضت، فسوف يسلّط عليها وحوش البر وطيور السماء، وتكون الشياطين والجان من أعدائها، يطلبون أسرها وسجنها بل وأكلها.

ولمّا قرأت الملكة رسالته، استشارت مجلس نبلائها. وكانوا لا يعرفون سليمان، فنصحوها بأن ترسل إليه سفنًا عظيمة محمّلة بالهدايا النفيسة والعبيد. فلما وصلت الهدايا، بعث سليمان إليها رسولاً في ثياب براقة. فلمّا رأته قالت: "هل أنت سليمان؟" فأجابها: "إنما أنا عبد من عبيده."

ثم استقبلها سليمان في قصر بُني من زجاج، مطلٍّ على البحر، حتى ظنّت أنّه ماء فكشفت عن ساقيها. ورأى سليمان أنّ على ساقيها شعرًا، فقال: "إن الشعر حسنٌ في الرجال، وليس كذلك في النساء." فقالت له: "يا سيدي، عندي لك ثلاثة ألغاز: إن عرفت أجوبتها، علمتُ أنك حكيم، وإن عجزت، فما أنت إلا كسائر من حولك."

فأجابها سليمان عن ألغازها الثلاثة، فبهرت وقالت بدهشة: "تبارك الرب إلهك الذي أقامك على العرش لتحكم بالعدل والقسطاس." ثم قدّمت لسليمان الذهب والفضة والهدايا الكثيرة، فأعطاها هو كل ما اشتهت.)

انتهى الاقتباس، والشاهد منه هو التشابه الكبير في القصة القرآنية وقصة الترجوم، وما كان لهذا التشابه أن يقع لولا صدق القصة على ظاهرها، فهناك هدهد وهو طائر وليس إنساناً وهو من قام بما قام به في القصة، وهناك من يتهم النبي الكريم بانتحال هذه القصة من اليهود ووضعها في القرآن، والرد عليه بأن قصة الهدهد وردت في سورة النمل وهي سورة مكية، أي أنها نزلت في وسط الفترة المكية حيث لم يكن للنبي الكريم احتكاك باليهود، فاليهود كانوا يسكنون المدينة وليس مكة، فكيف لسيدنا محمد عليه السلام أن يسمع قصة الهدهد منهم؟

كذلك فإن غالبية المتنورين المعاصرين "علميون"، أي يؤمنون بدور العلم والسنن الكونية في كل شيء تقريباً وأنا منهم في هذا، لكن هناك متنورون (هايبرHyper)-أي مُغرقون في التنور- فهؤلاء يؤمنون أن العلم والقانون الفيزيائي الذي نعرف هو إله مطلق في الكون، وقد سلكتُ في هذا الدرب زمناً أحاول فيه أن أثبت أن كل ما يجري في هذا الكون (بلا استثناء) إنما يجري ضمن سنن كونية فيزيائية حتى وإن سلكه أهل الإيمان في باب المعجزات والخوارق. وسلكتُ هذا الدرب الشاق جداً -أيها السادة- محاولاً مَنْطَقة (بفتح الميم والطاء وتسكين النون) المعجزات والآيات الإلهية، وكان أول مشروعاتي تبرير نار سيدنا إبراهيم التي لم تحرقه، فلا بد أن هناك سبب علمي وراء عدم احتراق سيدنا إبراهيم في النار، ويبدو أن قوله تعالى (يا نور كوني برداً وسلاما على إبراهيم) يدخل أيضا في باب هذه السنن، نعم بهذه الطريقة كنت أفكر، مع أنني لا أملك دليلاً قاطعاً ولكني سأبحث عن الدليل لأثبت النتيجة المسبقة التي وضعتها في نفسي، والتي جعلت مني متنوراً هايبر. المهم بحثت طويلاً في المصادر العلمية حتى وجدت ناراً لا تحرق ضمن ظروف وشروط

علمية معينة. يا إلهي كم أنت كريم علي بإنعامك علي بهـذا العلم الخارق الفريد. نعم لقد اكتشفتُ أن النـار يمكن –ضـمن شـروط علمية معينة- أن تكون بـاردة ولا تحـرق. فـرحت بإنجـازي وكتبت منشوراً حول ذلك لاقى إعجاب المتنـورين الهـايبر، لكنـه لم يلاق إعجابي ففي قرارة نفسي كنت أشعر بـالعجز وبعض الـذنب، لأن هنـاك عشـرات الخـوارق في القـرآن الـتي لا يمكن إخضـاعها للمنطـق والعلم الـذي نعرفـه. شـعرت أنـني أخـون نفسـي في المقـام الأول وأخـون القـرآن الكـريم، فهنـاك عشـرات الآيـات والمعجـزات الـتي لا تجـد تـبريراً طالمـا أننـا نـرفض "يـد الإلـه المباشرة" في هذا الكـون. إننـا ننطلـق بـذلك من نتيجـة مسـبقة ونسعى إلى ترويض القرآن ليتناسـب مـع هـذه النتيجـة فنقـع في مغالطة منطقية معروفة.

ويستند التنويريون في دعواهم إلى آيـات فهمـوا من خلالهـا أن كل ما يجري في هـذا الكـون بلا استثناء سـنن وقـوانين لا تتغـير بدليل قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُـلِنَا وَلَا تَجِـدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا﴾ [الإسـراء: 77]، و﴿مَـا كَـانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَـرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُـنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْـلُ وَكَـانَ أَمْـرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، و ﴿سُـنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحـزاب: 62]، و ﴿اسْـتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيـقُ الْمَكْـرُ السَّـيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِـهِ فَهَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلَّا سُـنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّتِ اللَّهِ تَبْـدِيلًا وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْـوِيلًا﴾ [فـاطر: 43]، والحقيقـة انـني لسـت سـعيداً بمحاولاتي السابقة تبرير ومنطقـة الخـوارق والمعجـزات الإلهيـة، لأنني كنت أقف مثل طفـل عـاجز أمـام نصـوص لا تقبـل التأويـل ومنها عصـا سـيدنا موسـى الـتي تحـولت إلى حيـة/ثعبـان وفلقت البحر وبجست الماء من الصخر، وقصة سليمان والنمـل والهدهـد وعرش ملكة اليمن، وناقة صالح، وسيدنا عيسـى وهـو يصـنع من الطين طـيراً وينفخ فيـه، ومعاقبـة اللـه تعـالى للأقـوام السـالفة بالصـرخة والـريح والزلـزال، وغيرهـا. ولـو نظـرت في الآيـات السابقة، وهي الـتي يستشـهد بهـا التنويريـون لإثبـات أن كـل مـا

يجري بما في ذلك المعجزات هو سنة كونية لوجدت فيها ملمحاً مشتركاً، وهو أنها جميعها تتحدث عن الأمم السابقة، وسنة الله تعالى أي قانونه في عقابهم والتعامل معهم ثابت لن يتغير مع الأمم التي تليهم، فمثلا في سورة الاسراء: "وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً" يعني أن أهل مكة استفزوا سيدنا محمد ليجبروه على الخروج منها، وهذا حصل بالفعل فقد خرج سيدنا محمد من مكة مجبراً لا مختاراً، ولم يلبث سادات قريش - الذين أخرجوه - خلافه إلا قليلاً، فقد انتهت زعامتهم على مكة في عدة سنوات، ومنهم من لقي مصرعه في بدر، وهذه إيماءة في الآية لسيدنا محمد أنه إن خرجت فاطمئن فمن أخرجك لن يسود طويلاً، وسنة الله تعالى لا تتبدل فمن سيضطر نبياً إلى الخروج من أرضه فلن يلبث خلافه إلا قليلاً، وهذا نجده في قوم فرعون الذين هلكوا بعد موسى وقوم لوط الذين هلكوا بعد خروجه. وانظر أيضا إلى قوله تعالى: "لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا" فسنة الله تعالى لا تتبدل في عقوبة المشركين والمنافقين، فهذه سنّة وقانون (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) وقد يتساءل البعض عن التبديل والتحويل وهل هناك فرق بينهما، والحقيقة ان التبديل هو أن تبدل أمراً أو شيئاً بخلافه، والتحويل أن تغير الشيء من موضعه فتضعه في مكان آخر أو في مقام آخر، والموضوع لا علاقة له بالقوانين الفيزيائية التي يتغنى بها التنويريون.

نعم صحيح أن الكون يجري ضمن سنن وقوانين ثابتة سواء على صعيد الفلك أو المناخ أو الصحة الشخصية والنباتات والحيوانات وكل ذلك، وأنا من أكثر المؤمنين بهذه السببيات والنواميس، لكن بالمقابل يؤكد لنا النص القرآني أن هناك يداً لله تعالى تعمل في الخفاء بشكل لا نعلمه، وتدخلت بشكل مباشر

واســتثنائي في مســيرة البشــرية، وذلــك على شــكل آيــات (معجزات) للنبيين وعقوبات للأقوام الجاحدين، فعندما يضـع اللـه تعالى اسـتثناءات معينـة لا نملـك تـبريرا علمياً لهـا، فلا يجـوز أن نستجدي اللغـة بشـكل متعسـف لنثبت أن هـذه الخـوارق ليسـت خـوارق. هـل أعقب سـبحانه وتعـالى آيـة (فألقاهـا فـإذا هي حيـة تسعى) بالقول (ولن تجد لسنة اللـه تحـويلا) أم قـال (لنريـك من آياتنا الكبرى)؟ هذه من آيات الله الكبرى وليست سُـنّة وناموسـا، ولو كانت هذه الحية المتولـدة من جمـاد سـنة عاديـة من السـنن الـتي نعرفهـا لمـا اختتمت الآيـة بهـذا الشـكل، وكـل المحـاولات لتبريرها علمياً لن تجدي، وأذكـر في هـذا الصـدد صـديقاً لي ممن ينشطون لتـبرير المعجـزات بشـكل علمي يـرى أن حيـة لا تعـني snake وإنما من الحياة وأن العصا عنـدما ألقاهـا سـيدنا موسـى تثعبت (ثعبان) أي نبت منها فروع خضـراء وهـذا يسـميه صـديقي "التثعُّب" فسـميت ثعبانـاً وليس المقصـود الكـائن الحي الـذي نعرفه. وهذا في الحقيقة تعسف لغوي، وحـتى لـو سـلمنا بصـحته فكيف تتحول عصا خشبية مقطوعـة من شـجرة من سـنوات في لحظة إلى عصا خضراء متبرعمة؟

خـذ مثلاً سـيدنا عيسـى فمعجزاتـه كثـيرة، ابتـداء من ولادتـه، وهنـاك متنـورون (هـايبر) تـدبروا هـذا الأمـر ووجـدوا بعـد بحث ومشـقة أن هنـاك في العلم ولادة بـدون أب وأن هنـاك كائنـات تتكاثر لا جنسياً وأن المرأة يمكن لها أن تحمل بدون تدخل ذكري في ظل تقنيـات الاسـتزراع والاستنسـاخ، وغيرهـا، لـذلك فـولادة عيسى بنظرهم ليست معجزة أو خرقـاً للقـانون، المهم فبحسـب المتنور فإن العلم بقوانينه هو المسيطر على الكون حتى لو كـان الأمر يتعلق بنبي وأرادةُ الله أن يكون آية للعالمين، لا، فحتى الله تعالى –بحسب هؤلاء- يجب أن يخضع للنـاموس والعلم والفيزيـاء التي نفهمها، وإن أراد سبحانه تفعيل آيـة في الكـون فعليـه اتبـاع تقنيات الاستنساخ و الاستزراع الخليـوي ومـا شـابه، ولا أدري من أين للسـيدة مـريم وهي بعيـدة عن مضـارب أهلهـا في الخلاء بتقنيات الاستنساخ والاستزراع المتطورة. ولو سألت المتنور: هل

يوجـد هنـاك مـانع منطقي أن يخـرق رب الأسـباب وخالقهـا هـذه الأسباب في حالات خاصة جداً، فسيرد عليك (ولن تجد لسنة الله تبـديلا..)، وهـذه الآيـة ومثيلاتهـا بيّناهـا في سـياقاتها ومظانهـا في الشرح أعلاه، وبيّنا أنها محكومة بسـياقات خاصـة وليسـت عامـة ومطلقة. ولـو اقتنعنـا بـولادة المسـيح انهـا تمت بالاستنسـاخ في المختبر، فكيف كان سيدنا عيسى يحيي الموتى بإذن الله تعـالى؟ وكيف كان يخلق لهم من الطين كهيئـة الطـير فينفخ فيـه فيكـون طيراً، وكيف كـان ينـبئهم بمـا يـأكلون ومـا يـدخرون في بيـوتهم؟ وانظر كيف سبق هـذه الخـوارق قولـه تعـالى على لسـان سـيدنا عيسى: ﴿وَرَسُولًا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بِآيَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْـرِ فَـأَنْفُخُ فِيـهِ فَيَكُـونُ طَيْـرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِـإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ [آل عمـران: 49]، ولـنركز على قولـه (إني قـد جئتكم بآية من ربكم...) التي لا تحتاج إلى أي شـرح، وانظـر أيضـاً كيـف استطاع سيدنا موسى أن يقلب العصا الخشبية الجماد إلى ثعبـان يتحرك ويلتهم ما ألقاه السحرة من عصي وحبال، والعصا نفســها تحـولت إلى أداة جبـارة يضـرب بهـا الحجـر فينبجس منـه المـاء ويضرب بها البحـر فينفلـق، أين قـوانين الفيزيـاء من هـذا؟ لا بـل كيف استطاع سيدنا يوسف أن يشفي والده من العمى بمجرد أن ألقوا على وجهه قميص يوسف؟ وكيـف اسـتطاع سـيدنا سـليمان مخاطبة الهدهد وقراءة شفاه النمل؟ وكيف كانت تحـل عقوبـات الله تعـالى على الكفـار في وقت معين، فمـا لبث لـوط أن خـرج من قومه حتى بادرهم الله تعالى بالعذاب، فهل هذا العذاب جرى ضمن قـوانين فيزيائيـة نفهمهـا؟: ﴿فَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَـا جَعَلْنَـا عَالِيَهَـا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَـا حِجَـارَةً مِنْ سِـجِّيلٍ مَنْضُـودٍ﴾ [هـود: 82]، فهل هنـاك مطـر على شـكل حجـارة؟ ولنـا عـبرة أيضـاً بطوفـان سيدنا نوح والذي وقع في تـوقيت معلـوم ومحـدد ومقـدر فكـانت السماء تمطر والأرض تنبـع حـتى وصـل مسـتوى المـاء إلى قمم الجبال في فترة قصيرة جداً، أما قوم ثمود فقد هبت الريح عليهم

فأبادتهم وأصبحوا لا يُـرى إلا مسـاكنهم، فلمـاذا اسـتهدفت الـريح العاتية قوماً معينين وفي توقيت معين فكانت سبباً في فنائهم؟

ومن القصـص القـرآني الـتي سـعى المتنـورون إلى مَنطَقتهـا علمياً ولغوياً قصة سيدنا يونس مع الحوت. يقول تعـالى: (فَلَـوْلاَ أَنَّهُ كَـانَ مِنَ المسـبحين . لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إلى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ (، والشـبهة المطروحـة هي أنـه طالمـا أن يـونس كـان سـيلبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون لو لم يكن من المسبحين فهذا يعني أن الحـوت من الخالـدين، فكيـف يسـتوي ذلـك؟ وهـذه قـراءة سطحية للآية، وفهم غير صحيح لمراداتها.

ففكـرة أنـه كـان سـيلبث في بطنـه إلى يـوم يبعثـون واضـحة والمعنى أنـه كـان سـيموت في بطن الحـوت ويتحـول إلى هيكـل عظمي وسيموت الحوت كذلك ويتحول إلى هيكل عظمي ليكـون قبراً ليونس مستقراً في قعر البحر إلى يوم يبعثون.

حوت يونس مجرد حوت من الحيتان ولا مـيزة لـه وورده بـأل التعريف (الحوت) ليس باعتباره حوتاً فريداً وخاصـاً، وإنمـا تُطلـق اللفظة هنا بأل التعريف لعظمة الكـائن وشـهرته في البيئـة الـتي يعيش فيها، واللسان المحلي للقوميات المختلفة متشابه في هذا فهم يتحـدثون طـوال الـوقت عن الحـوت وخطـره على البحـارة فبسبب تكرار الحديث عنه والألفـة الـتي يشـكلها، صـار جـزءً من الحكايات المجتمعية وصارت له شخصية خاصـة وكأنمـا يتحـدثون عن حوت بعينه.

ولك أن تنظر في قصة أخوة يوسف أيضاً في قوله تعـالى على لسان يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِـهِ وَأَخَـافُ أَنْ يَأْكُلَـهُ الـذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْـهُ غَـافِلُونَ﴾ [يوسـف: 13] ولم يقـل (وأخـاف أن يأكلـه ذئب)، فالـذئب في المخيـال الشـعبي غـدار وقاتـل وقـد اكتسب شخصية في هذا المخيال فصار (الذئب) بـدلاً من (ذئب)، ولو اصطاد أحدهم ذئباً لقال (اصطدت اليوم ذئبـاً) وذلـك لاختلاف السياق هنا، فالصياد يتحـدث عن ذئب مـا تمكن من اصـطياده، لا عن (الذئب) القاتل المسيطر على المخيال الشعبي.

وأمـا فكـرة أن مـريء الحـوت ضـيق ولا يتسـع لإنسـان فهـذه المعلومة صحيحة، فبرغم أن الحوت حيوان عملاق إلا أنـه يتغـذى على صغار الكائنات ويكفيه أن يفتح فمه العملاق وهـذه الكائنـات تمر خلاله في رحلة ذهاب بلا عودة.

والحوت (التقم) سيدنا يونس أي اتخـذه لقمـة ولم يبتلعـه، لـذا فقد لبث يونس في فم الحوت العملاق ولم يدخل عـبر المـريء، ومدة اللبث ليست بالضرورة طويلـة فربمـا هي دقيقـة أو نصـف دقيقة، والفم في اللغة باطن أي بطن لذا جـاز للقـرآن أن يقـول للبث في بطنه – بمعنى في جوفه سواء داخل أمعائـه ومعدتـه أو فمه، فكل ما توارى في هذا الكائن هو بطن، والله أعلم.

لكن التنويريين اختاروا تحريف المفردة عن مدلولها الحقيقي لتتناسب علمياً ولغوياً مع مقاساتنا فاختاروا أن الحوت هو قارب وليس كائناً حياً، وهذه شبهة ضعيفة، فالحوت هو الحوت الذي نعرفه، وعلينا دوما أن نأخذ النص على ظاهره والسائد فيه ما لم تكن هناك قرائن قوية تصرف هذا السائد عن ظاهره، والقرآن نزل يخاطب العرب بلسان يفهمونه فكلمة الحوت معناها السمك الكبير، وتعلقت ثقافياً في وقت لاحق بالحوت الضخم المعروف. وما تزال بعض اللهجات إلى يومنا هذا تستخدم لفظة الحوت للدلالة على السمك كبير الحجم، فيقول اصطدت حوتاً ويقصد أنه اصطاد سمكة هامور أو ما شابه، وهذا سمعته كثيراً خلال فترة إقامتي في مدينة العقبة في الأردن، فالناس هناك يطلقون على السمكة الكبيرة لفظة (الحوت)، وعندما سمعتها لأول مرة استغربت ذلك لكني فهمت المقصد لاحقاً، وبالمقابل لا توجد لهجة من لهجات العرب تطلق لفظة الحوت على القارب.

وهنـاك في النص القـرآني مـا ينفي أن يكـون الحـوت قاربـاً او سفينةً صغيرةً، وهو قوله تعـالى (فالتقمـه) والالتقـام فعـلٌ واع لا يكون إلا لكائن حي، وحتى لو صلح استخدامها لغـير الكـائن الحي في قصيدة شعرية فهذا لا يصح في جنب القرآن العظيم.

والمانع الثاني قوله تعالى (للبث في بطنه) والبطن من الباطن أو اللب، ويتضمن كافة أعضاء الحوت حتى فمـه فهـو بـاطن، أمـا

القارب فلا بطن له إلا إن كان يختاً فاخراً وفيه باطن وغــرف، ولا أتصور أن قوم يونس كانوا يملكون اليخوت الفاخرة.

ونعزز كل هذا بدليل قوي من الكتاب المقـدس، حيث نجـد في الانجيل أن يونـان (يـونس) قـد ابتلعـه حـوت whale، وانظـر في سفر يونان: "وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَـدَّ حُوتًـا عَظِيمًـا لِيَبْتَلِـعَ يُونَـانَ. فَكَـانَ يُونَـانُ فِى جَـوْفِ الْحُـوتِ ثَلاَثَـةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَـال"، لهـذا يصـوم الاقباط 3 أيام تخليداً لهذه المناسبة.

كل هذا يشـير إلى أن للـه يـداً خفيـة في هـذا الكـون تتـدخل، وتأليـه العلم بـدون دليـل وبرهـان قـوي مـا هـو إلا مجـرد نتيجـة مسبقة وضعناها وقررناها سلفاً بلا برهـان، وكـل ذلـك للقفـز في عربــة التنــوير الهــايبر والحصــول على مزيــد من الفولتــات، وللتنويريين الهايبر في تبرير هذه الخـوارق ومَنْطَقتهـا وإخضـاعها للعلم الفيزيـائي المعـروف مسـلكان: منهم من اختـار البحث عن الأسـباب العلميـة للـريح والـولادة بـدون أب والفيضـان المفـاجئ والعصا المنقلبة إلى افعى وغيرها ، والفريق الآخـر اختـار طريقـا أسهل وهو التفسير الغنوصي الباطني الترميزي للأشـياء، فحـوت يونس هو ما حواه من أفكار وعصا موسى هي ما عصـاه ورفضـه من خطايـا وطـير عيسـى الطيـني هـو الألعـاب الأولمبيـة والـريح المدمرة هي طبخة يابانية شهيرة، وهكذا.

5. متنورون ولكن!

ومن المشكلات التي يقع فيها الكثير من المتنورين المعاصرين أنهم لم يدرسوا اللغة العربية بشكل أكاديمي معمق، ولم يدرسوا الدين والتاريخ والتراث كمختصين لذا تجد معلوماتهم محدودة وما يبنونه من أفكار على هذه المعلومات سيكون بلا شك قاصراً وغير مكتمل الأركان، إذ تجدهم يقصرون فهمهم على ما يعرفون، مفترضين أن ما يعرفون هو حدود العلم والمعرفة النهائية، وعندما يقعون على فكرة معينة قائمة على معلومة ما عرفوها في يوم ما يتمسكون بهذا الفهم الوحيد ويحاولون فرضه في كل مكان، فيتعرضون لمواقف طريفة، ويخرجون بنتائج مُبتسرة.

مثلا أحد الأخوة "الباحثين" لا يعرف للباء سوى وظيفة واحدة وهي الوسيلة، وبناء على هذا ذهب إلى أن قوله تعالى (وزوجناهم بحور عين) معناه أن التزويج يتم بواسطة الحور العين، فالحور العين هي الأداة التي يتم تزويج الأنفس من خلالها يوم القيامة، وأن الحور العين ليست كائنات أنثوية أو ذكرية وإنما هي أدوات تشبه البيض أو اللؤلؤ، وتعمل عمل العين البشرية EYE، وهذه العين مقصورة على أصحابها من الزوجين (حور مقصورات في الخيام)، وبالتالي فلا خيانة بين الزوجين لأن هذه العين هي الرقيب وهي وسيلة الاتصال اللاسلكي بين الزوجين في الجنة، وهذه العين عصية على الاختراق والهاكنغ Hacking فهي مكنونة أي مغلفة بغلاف يحميها من الاختراق، ولذا فالخصوصية بين الزوجين تكون في أعلى درجاتها.

هذا مجرد رأي طريف، وهو يؤكد المشكلة نفسها في الأعلى فالباحث لا يعرف سوى وظيفة واحدة للباء وهو الوسيلة ولذا فرضها على الآية.

والحقيقة أن الباء هنا لها وظيفة أخرى وهي الالتصاق والاقتران والديمومة والملازمة، وهذه سمة التزاوج بين النفس والحور العين يوم القيامة.

فالزواج في الدنيا مهما بلغ من الانسجام والتوافق فإنه لا يرقى إلى ذلك، وانظر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37]

صحيح أن زواج النبي الكريم من زوجة زيد لم يكن مجرد إنكاح إلهي وانما تزويج للتدليل على التجانس بين النبي وزوجه، لكن ذلك لا يرقى لتزويج الآخرة لذا جاءت الآية بصيغة (زوجناكها) ولم يقل (زوجناك بها) كما هي الحال مع الحور العين في الآخرة، فالزواج الدنيوي ديدنه الوقتية وليس الملازمة الدائمة.

الباء وظائفها كثيرة في كتاب الله ولا يجوز ان نقصرها على وظيفة واحدة هي الوسيلة أو الأداة. فهل يجوز تفسير امسحوا برؤوسكم أي باستخدام رؤوسكم؟

لا، فمن الواضح هنا أن الباء ليست للوسيلة وإنما تؤدي وظيفة أخرى هي الإلصاق فالمعنى أن يكون المسح بإلصاق اليد على الراس، وهذه تسمى باء الالصاق.

وهناك أيضا الباء المستخدمة في التعدية، مثل قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) فهل يجوز تفسيرها أن الله تعالى ذهب مستأنساً بنورهم؟

لا، وإنما المعنى هنا يفيد التعدية، فنقول مثلا خرجت بأحمد بمعنى أخرجت أحمد، وذهب الله بنورهم تعني أنه أفقدهم نورهم.

أما باء الاستعانة والوسيلة فإنها تتضح من خلال السياقات مثل أن نقول قطعت الفاكهة بالسكين، فهذه باء الوسيلة، ونقول (بسم الله الرحمن الرحيم) فهذه باء الوسيلة أي أننا نقرأ القران الكريم بالاستعانة باسم الله العظيم.

ونجد ذلك في قوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) أي باستخدام جناحيه.

وهي قريبة في الدلالـة نوعـاً مـا من البـاء السـببية مثـل قولـه تعالى (إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) أي بسبب اتخـاذكم العجـل، فهـذه ليسـت للاسـتعانة وانمـا تشـبهها في الدلالـة بعض الشيء، وكذلك قوله تعالى (فكلاً اخذنا بذنبـه) أي أن اللـه تعـالى يعاقبهم بسبب ذنوبهم، وليس باستخدام ذنوبهم.

وأمـا في قولـه تعـالى (يـا نـوح اهبـط بسـلام منـا) فلا تعـني باستخدام السلام وانما تعني بمرافقة السلام واستظلالاً به، فالباء هنـا للمصـاحبة والاسـتظلال، ويشـبه ذلـك قولـه تعـالى (ادخلوهـا بسلام آمنين)، أي ادخلوا الجنة مصـحوبين ومسـتظلين بالسـلامة والأمن.

فلا يعقل أنه أينما وجدنا باءً في كتاب اللـه تعـالى نفـترض أنهـا للوسـيلة، فمثلا نجـد قولـه تعـالى (ولقـد نصـركم اللـه ببـدر) إذ فسرها بعض الاخوة المتنورين بـأن اللـه نصـرهم باسـتخدام بـدر (ربما رجل اسمه بـدر أو سـلاح سـري اسـمه بـدر مثلاً، لا أدري)، وسر الطرافة في تفسيره هو أنه لا يعرف سـوى وظيفـة واحـدة للباء ويحاول قسراً فرضها على كتاب الله تعالى.

ببـدر معناهـا في بـدر، وهي تشـبه قولـه تعـالى (إلا آل لـوط نجيناهم بسحر) فهو لم ينجهم باستخدام فتاة اسمها سـحر وإنمـا أنجاهم في وقت السحر، يعني وقت الفجر أو قبيل وقت الصبح.

وهناك من قال إن قوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين، وبالليل أفلا تعقلون) أي باستخدام الليل أو بالاستعانة بـه، وانتهى إلى أن موقـع مكـة الحقيقي هـو في البـتراء الأردنيـة، وليس في الجزيرة العربية، بينما هي هنا باء ظرفيـة بمعـنى في الليـل، لكن الإصرار على حصر الباء في وظيفـة واحـدة هـو الـذي يـؤدي إلى هذا الفهم. والفرق في الدلالة بين (البـاء) و (في) عنـدما تفيـدان الظرفية هو فرق في الدرجة، فالباء تفيد الالتصاق والقرب أكثر.

إن افتراض وجود وظيفة واحدة فقـط للبـاء يضـع المتنـور غـير المطلع في مأزق كبير يضطره إلى حـرف الكثـير من الآيـات عن مسارها لتلائم فهمه الخداج لهذا الحرف العظيم، فمـا هـو فاعـل في قوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد..) ؟ هل معناها أن الحر

باستخدام الحر والعبد باستخدام العبد أم تعني هنا التعويض والمقابلة؟ يعني حر مقابل حر وعبد مقابل عبد، وهكذا، فوظيفة الباء هنا للتعويض والمقابلة.

وكذلك فإن من مدلولات هذه الباء المجاوزة مثل قوله تعالى (فاسأل به خبيرا) بمعنى فاسأل عنه خبيرا، وقوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) أي أنه سال عن عذاب واقع، ولم يسأل طبعاً بالاستعانة بعذاب واقع.

وهناك الباء التي تفيد الغاية مثل قوله تعالى (وقد أحسن بي اذ اخرجني من السجن) بمعنى (إلى)، وقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) أي إلى الوالدين، فيكون مئال الاحسان ومقصده ومنتهاه وغايته إلى الوالدين، ولا شك ان هناك فروقا دقيقة بين (الباء) التي تفيد الغاية و(إلى)، فأحسن (بي) تختلف اختلافا دقيقا عن أحسن (إلي)، إذ تفيد الأولى معنى التوقير والاحترام والبر، و(أحسن إلي) تفيد معنى النفع المادي.

وقد تفيد الباء التبعيض مثل قوله تعالى (وامسحوا برؤوسكم) بمعنى ببعض رؤوسكم، وهي كما أسلفنا أيضاً تفيد الالتصاق أيضا فتحقق وظيفتين في الوقت نفسه، فمن الصعب التحقق من مسح كامل الرأس لذلك كانت رحمة الله تعالى أن نمسح الرأس بدون تحقق لأن بعض الرأس يكفي.

وقوله تعالى (عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) فالمعنى واضح هنا وهو أن عباد الله يشربون من العين، أي من بعضها.

وكذلك هناك باء القسم مثل قوله تعالى (ادع لنا ربك بما عهد عندك) وقوله تعالى (قال رب بما انعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) أي اقسم بإنعامك علي لن أكون ظهيراً للمجرمين.

وهناك أيضا باء التوكيد مثل قوله تعالى (وكفى بالله حسيبا) فهي تعني وكفى الله حسيبا ثم جاءت الباء لتوكيد ذلك.

ولها وظائف أخرى أيضاً وعلى هذا يتم تدبر حرف الباء في القران الكريم وبقية الحروف مثل الواو واللام وغيرها، وقد أسهبت هنا في شرح وظائف الباء في القرآن الكريم، لا لأني من

علماء اللغة لكنني بحثت في هذه النقطة تحديداً، وهذا ما خرجت بـه، وهـذه هي الرسـالة الـتي أسـعى لنقلهـا لكـل متـدبر وبـاحث معاصر، وهي أن يبحث في النقطة التي يكتب فيها ويُشبعها بحثـاً حتى يستطيع الاجتهاد والاستنباط.

6. رجال إناث ونساء ذكور

أثار اللسانيون المعاصرون لغطاً حول عدد من المفردات ومنها كلمة رجـل/رجـال ونسـاء، وبحسـن نيـة كـانوا يقصـدون عصـرنة القرآن الكـريم، فلا يعقـل أن يسـيطر الـذكر على الـبيت في آيـة القوامة وخاصة في ظل انتشـار الحركـات النسـوية وهوجـة دعم المـرأة وتعزيـز دورهـا في الغـرب والشـرق، لـذلك ففكـرة أن الرجـال(الـذكور) قوامـون على النسـاء (الإنـاث) ينبغي –بحسـب هؤلاء- أن يعاد النظر فيها، وكان الحل عنـدهم بسـيطاً فقـالوا إن الرجال هنا ليسوا رجالا بالمعنى المتعارف عليـه والنسـاء كـذلك، أي أن الرجال مقامات وتشمل كل من يتـولى المبـادرة والسـعي سواء كان ذكراً أم أنـثى والنسـاء من التـأخر والتخلـف والاعتمـاد على الآخر وكل من يتأخر سيوصم بها سـواء كـان ذكـراً أم أنـثى. بهذا المنطق انطلـق اللسـانيون المعاصـرون لتـبرير آيـة القوامـة

وفهمها، وترتب على ذلك أيضاً إعادة النظر في الآيات الأخرى التي تحوي المُفردتين في سائر أنحاء النص القرآني.

والحقيقة أن معنى كلمة رجل/رجال في القرآن هو المعنى السائد المعروف (MAN/MEN)، والنساء في القرآن معناها هو السائد المعروف (WOMEN)، ولا يمكن لكلمة رجل أن تُطلق على الأنثى ولا يمكن لكلمة امرأة أو نساء أن تطلق على الرجل، وبتطبيق ذلك يكون معنى آية القوامة كالتالي: الرجال (MEN) قوّامون على النساء (WOMEN) ضمن إطارين: الأول: بما فضل الله الرجال على النساء أي طالما أنهم يحققون شروط التميز والأفضلية التي منحها الله تعالى لهم وهي القدرة على السعي في الأرض والكدح والقوة الجسدية وتغليب العقل على العاطفة، والإطار الثاني بما أنفقوا من مالهم، وهذا يعني تلقائياً أن القوامة تنتقل تلقائيا إلى المرأة إن لم يحقق زوجها هذه المعايير - وهذا لم تذكره الآية لكن يمكن استنباطه من روح الآية بدليل قوله تعالى (بما) والتي تعني هنا طالما، أما أن تقول لي أن كلمة (رجل) بذاتها هي صفة ومقام وقد تكون الأنثى رجلاً فهذا كلام لا حظ فيه أو نصيب من المنطق أو العلم أو المنهجية وانظر في سائر النص القرآني وستتضح لك الصورة جلياً فالحقيقة أن الرجال رجال والنساء نساء في كل القرآن الكريم، وحتى لو تفوقت المرأة على الرجل وصارت القوامة لها فإنها تظل بذلك من النساء كمسمى أما كصفة فهي أفضل من ألف رجل، لكنها لا تنسلخ عن النساء كمسمى حتى لو كان هذا المسمى يعني ضمن ما يعنيه التأخر، والأمثلة كثيرة جداً في كتاب الله تعالى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81]، فهؤلاء القوم كانت جريمتهم إتيان الرجال (الذكور) من دون النساء، وقوله تعالى: " ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، فالآية توضح هنا نفسها بنفسها حيث تُمايز بين جنسين: الذكور

والإناث، وقوله تعالى: " ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228]، سنلاحظ هنا أن المطلقات في الآية يقابلها الرجال في ذيل الآية، فلو افترضنا -كما يقولون- أن الرجال مقامات تصلح للذكر والأنثى فكيف تستقيم هذه الآية؟، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]، فالله تعالى يرسل رُسُلاً ذكوراً لدعوة الناس، وربما يقول قائل إن القرآن استخدم مفردة رجالاً بمعنى مترجلين أي يسيرون على أقدامهم، وأقول له هذا ممكن ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 239] والسياق هنا يساعد على هذا الفهم، فالقرآن يستخدم المفردة بمعناها الأصل وليس معناها العُرفي، لكن مع ذلك يظل هذا السياق متصلاً بالرجل الذكر، ألا يتحدث هنا عن حالة حرب وخوف من الأعداء؟ أليس المخاطب هم الذكور؟، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27]، فرجالاً هنا تعني سائرين على الأقدام (مترجلين)، ومع هذا حرص القرآن على مقابلتها في الآية نفسها بـ(وعلى كل ضامر يأتين..)، حيث يأتين خاصة بالنساء، فالرجال يسيرون على أقدامهم والنساء يركبن الإبل.

ومن هذا نستنتج أن كلمة رجل بمعنى الذكر البالغ مرتبطة بالسعي والمشي، حيث كان المشي في الأزمان القديمة -دالاً على النشاط والحركة- ويشترك مع مفردة رِجل (عضو الجسم) بالاشتقاق نفسه (ر ج ل)، ولو تتبعنا لفظة الرِجل/الأرجل في القرآن الكريم لوجدناها دوماً مقترنة بالسعي والحركة على النقيض -مثلاً- من كلمة قدم/أقدام، فإذا وقف الإنسان مكانه

واستقر وثبت فالرِجل هي القدم. والرجال اكتسـبوا التسـمية من نفس مادة "رجـل" وذلـك لارتبـاط الانسـان الـذكر البـالغ العاقـل بالمبادرة والسعي. قال تعالى: "ألهم أرجـل يمشـون بهـا" "وأذن في الحج يأتوك رجالا..." "وَاسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ " " ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَـلٌ بَـارِدٌ وَشَرَابٌ" "وجاء رجل من اقصى المدينة" إذن من مـادة (رجـل) اكتسب الإنسان الـذكر البـالغ العاقـل مسـماه، وبمـا انـه هـو من ارتبـط وكُلّـف بالسـعي والمبـادرة فقـد انحصـرت مهمـة إيصـال الرسالات به دون النساء. يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَـالًا نُـوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْـلِ الْقُـرَى أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]، و ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، و ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا قَبْلَـكَ إِلَّا رِجَـالًا نُـوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُـونَ﴾ [الأنبيـاء: 7]، و ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَـاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ﴾ [الأعراف: 63]، و ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْـنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9]، و ﴿وَاخْتَـارَ مُوسَـى قَوْمَـهُ سَـبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْـلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِـلُّ بِهَـا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْـدِي مَنْ تَشَـاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَـا فَـاغْفِرْ لَنَـا وَارْحَمْنَـا وَأَنْتَ خَيْـرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 155]، و ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًـا أَنْ أَوْحَيْنَـا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّـرِ الَّذِينَ آمَنُـوا أَنَّ لَهُمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَـافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ مُبِينٌ﴾، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَـا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْـوَى إِذْ يَقُـولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 47]،

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْـهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28]، وغيرهـا الكثـير من الأمثلـة الـتي

تؤكد أن مفردة رجل هي المعنى السائد الذي نعرفه، وللرجال - وهم الذكور البالغون - الدور الأساسي والأول في العبادة والتجارة والسعي في الحياة، وانظر في الآيات الثلاث التالية: يقول تعالى:

1. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]

1. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108]

2. ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 37]

نلاحظ في الآيات الثلاث مهمة ودوراً يخص الانسان الذكر البالغ العاقل، ففي الآية الأولى حديث عن السعي في الحياة والقتال، وفي الآية الثانية العبادة والتطهر في المساجد والآية الثالثة مجال التجارة، وهذه كلها حقول هيمن عليها الرجال، وهم المقصودون بالخطاب وخاصة في وقت نزول الآيات، وهذا لا يمنع من أن تعمل المرأة بالتجارة وأن تقاتل لكن اللفظة نفسها هنا لا تمثلها، وحال الحركة التي ارتبطت بكلمة (الرِجل) بكسر الراء هي التي جعلت القرءان يختار كلمة (رجل) في الوضوء وليس (قدم) لأنه لو قال "وأقدامكم إلى الكعبين" فالغسل ربما يميل عند ذلك لظاهر القدم مع إهمال باطنها، أليست القدم في القرآن تمثل الثبات والاستقرار على الأرض؟ ولذلك استخدم القرآن كلمة "وأرجلكم" لأن الأرجل فيها حركة فتتحرك ويتم غسلها ظاهراً وباطناً، وبما أن الأرجل هي التي تسعى والأقدام هي مركز الاستقرار والثبات فقد ارتبطت لفظة الأرجل بالقطع والعقوبة وذلك لأنها هي الساعية المتحركة إلى الرذيلة والجريمة، ولأن السعي والحركة قد تعلقا بها لفظاً ولم يتعلقا بالقدم مع أن المشار إليه واحد، لكنها دقة القرآن العظيم!

يقول تعالى:

- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33]

- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِـيَعًا وَيُـذِيقَ بَعْضَـكُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ انْظُـرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]

- ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَـلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124]

- ﴿قَـالَ آمَنْتُمْ لَـهُ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِـيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: 71]

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْـدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِـينَكَ فِي مَعْـرُوفٍ فَبَـايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12]

- ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُـوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَـائِهِنَّ أَوْ أَبْنَـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَـوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَـائِهِنَّ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْـرِ أُولِي الْإِرْبَـةِ مِنَ الرِّجَـالِ أَوِ الطِّفْـلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلَى عَـوْرَاتِ النِّسَـاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إلى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]

ومـا تحت الأرض عنـدما يخـرج فإنـه يخـرج من تحت الأرجـل وليس الأقدام لأن الأقدام كما قلنا صفتها الثبات والأرجـل صـفتها الحركة: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُـوا مِنْ فَـوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِـدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 66]، ولأن لفظة "الأرجل"

هي مناط الحركة سنجد التركيز عليها وليس على لفظة "الأقدام" في آيات العذاب : ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: 55]. وللسبب نفسه فإن الشهادة ستكون للأرجل وليس الأقدام. أليست هي من سعى وتحرك بأمر من صاحبها؟ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، و ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65]، أما القدم فقد تعلقت بالثبات، وانظر إلى الكلمة في الآيات التالية:

- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 94]
- ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147]
- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: 29]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

سيسأل أحدهم الآن فيقول: طالما أن الأقدام خاصة بالثبات والأرجل خاصة بالسعي والحركة فلماذا قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41]، ولماذا لم يقل فيؤخذ بالنواصي والأرجل؟ والإجابة عليه أن الاقدام ثابتة لا تريد أن تتحرك في ذلك الموقف بسبب هول

الموقف ولعلم المجرم بمصيره حينها فيؤخذ بالأقدام الثابتة ويُجر إلى جهنم جراً.

وعودة إلى الحديث عن النساء والرجال في كتاب الله تعالى، فهناك -كما أسلفنا- سعي محموم من جانب الأخوة اللسانيين إلى عصرنة القرآن الكريم وتطويعه ليتوافق مع القيم الغربية من خلال نزع التراكيب اللغوية من سياقاتها والعودة بها إلى جذورها بحثاً عن معنى من المعاني يتوافق مع هذه القيم العصرية، مع أن السياقات الثقافية في القرآن الكريم ومحل الخطاب مهم جداً لفهم الآيات بشكل دقيق، ومن الأمثلة على هذه المحاولات ما قالوه في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، حيث رصد الدكتور شحرور رحمه الله -و تبعه في هذا الآلاف من مريديه- إشكالاً وهو أن الناس تشمل الجميع ذكوراً وإناثاً، فكيف سيشتهي جميع الناس النساء (الإناث)؟، وعليه قرر أن للنساء هنا معنى آخر غير الذي نعرفه، فبحث هنا وهناك حتى وجد في زاوية من زوايا المعاجم معنى خاص للنساء حيث قال إن النساء جمع نسيء وأن هذا الجمع وارد في لسان العرب، والنسيء هنا المقصود منه الأشياء المتأخرة أو المستحدثة والموضات العصرية، فالناس جميعهم يشتهون هذه المستجدات أو الموضات العصرية. هكذا فهموها أو أرادوا أن يفهموها.

والحقيقة أن فهم الآية بسيط للغاية فالآية هنا تعدد الشهوات بشكل عام، منها ما هو شهوة خاصة بالرجال ومنها ما هو خاص بالنساء ومنها ما يشمل الطرفين، وشهوة النساء خاصة بالرجال.

ولو سألت هؤلاء اللسانيين الكرام عن معنى مفردة نساء في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 30]، وهل هي جمع للنسيء، سيقولون لك لا فهي هنا جمع لكلمة امرأة بُحكم السياق، أما في آية (زين للناس حب الشهوات من

النساء..) فالسياق يدل على أنها جمع نسيء. أي سياق هذا؟ هذا مجرد التباس وعدم تقدير واستيعاب للخطاب الرباني، فتشكلت عقدة وإشكال، وصار اللساني البارع أو المبتدئ يبادرك بسؤال (هل تشتهي النساء النساء؟) بغية إحراجك.

مفردة النساء في القرآن الكريم تعني ما نعرفه ونفهمه، فالله تعالى نزل يخاطب العرب بما يفهمونه، ولا أعتقد أن عمر بن الخطاب عندما نزلت آية (زين للناس حب الشهوات من النساء...) قد فهمها بمعنى المستجدات أو المتأخرات، وإنما فهمها بالمعنى المُتبادر الأول إلى الذهن وهو الإناث، أما في فقه اللسان واللغة لماذا سميت النساء نساء فحينها يمكن الرجوع إلى المعاجم اللسانية وقد يتبين لنا أنها سميت بذلك نتيجة التأخر وعدم المبادرة فالسعي والمبادرة في الحياة للرجل، وهذا هو أصل التسمية، لكن الأصل يختلف عن المدلول والمآل الثقافي ولا يجوز أن نخلط بين الاثنين.

بإمكاني اتباع هذه المنهجية في التفكير التي اتبعها د. شحرور رحمه الله فأقول (فاعتزلوا النساء في المحيض..) لا تعني ما فهمناه طوال تاريخنا وهو نساء ودورة شهرية وخلافه، وإنما النساء هنا جمع نسيء وهو المتأخر أو المستجد، والآية تدعونا إلى عدم شراء المنتجات الجديدة وقت المحيض، والمحيض من حاض وتعني جَمَعَ، فالمحيض هنا هو التجمع، وعليه يصير المعنى لا تشتر مثلاً موبايل آي فون في أول يوم من صدوره وقت تجمع الناس وتهافتهم عليه لأن سعره سيكون غالياً، وانتظر فترة حتى يخف الإقبال عليه وتنزل أسعاره، وآتيك بأرقام وإحصائيات وجداول من هنا وهناك لأسعار الموبايلات وقت صدورها مباشرة وبعد صدورها بستة أشهر، فهل هذا تدبر منهجي قويم؟

وبإمكاني أيضاً أن أقول لك إن آية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[البقرة: 231]، لا تتحدث عن النساء بـالمفهوم المتعـارف عليـه، وإنما المقصود أنه إذا انتهت حاجتكم من هـذه المنتجـات الحديثـة فسرحوها بمعروف بمعنى لا ترموا بها في الشارع وإنما أرسلوها إلى مُنشأة إعادة التدوير حفاظاً على البيئـة والمصـادر الطبيعيـة، وهذا معنى (سرحوهن بمعروف..).

فهل هذا التلاعب بالنص القرآني جائز؟

وفي آيـة القوامـة عـزف الـدكتور شـحرور –رحمـه اللـه- وتـراً عاطفياً فاختار مثالاً فيه تطرف بين مقابلين فتسـاءل: هـل يُعقـل لرجل سكير عربيد عاطل عن العمـل مثلاً أن يكـون مسـؤولاً عن مُدرّسة جامعية تحمل شهادة الدكتوراه وتكـون لـه القوامـة على البيت؟ وفي هذا التساؤل مغالطة واضحة فاختيار نموذج متطرف من الجانبين لتثبيت وجهة نظـر معينـة ليس علميـاً، وينبغي دومـاً النظر إلى الواقع بمجمله لا أن نتخير أمثلة فيها تطرف وشذوذ.

يقـول تعـالى: ﴿الرِّجَـالُ قَوَّامُـونَ عَلَى النِّسَـاءِ بِمَـا فَضَّـلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَـا أَنْفَقُـوا مِنْ أَمْـوَالِهِمْ فَالصَّـالِحَاتُ قَانِتَـاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34]، والرجـال يُـراد منهـا الذكور لكنها تختلف في الدلالة فالرجل هـو الـذكر الناضـج البـالغ الذي يتحمل المسؤولية، والرجولة مقام لا يصـله كـل ذكـر، وهـذا هو الفرق بينهما فالذكر مجرد حالـة بيولوجيـة بحتـة لا علاقـة لهـا بالأخلاق والقيم والعمق بينما الرجل لفظـة فيهـا عمـق، واقتضـى السـياق إيـراد لفظـة الرجـل في هـذا المقـام لمـا يحملـه من مسؤولية وأمانة، أما عندما يتعلق الأمـر بالحالـة البيولوجيـة فـترد لفظـة الـذَكَر كمـا في قولـه تعـالى (للـذكر مثـل حـظ الانثـيين)، فالسياق هنا خاص بتوزيع الميراث، ولا يحتـاج الـذَكَر إلى الارتقـاء في مقام الرجولة لينال نصيبه من الميراث، فالرجولـة إذن مقـام والذكورة مجرد حالة بيولوجية، لكن هذا لا يعني أن لفظة (رجـل) يُمكن أن تطلق على المرأة في حال كانت عالمة فاهمة مسؤولة –كمـا ذهب بعض المعاصـرين- وإنمـا هي لفظـة حصـرية للـذكر

الناضج ولا علاقة لها بالأنث، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَـدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَـرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمـل: 23]، فهذه المرأة هنا حاكمة ومسؤولة عن بلد كامل لكن القرآن منحها لفظتها الحصرية (امرأة).

والقوامة هي تولي الأمر – أمر البيت والحياة وقيـادة السـفينة، وهي ليسـت مـيزة للرجـل ولا انتقاصـاً من المـرأة، وإنّمـا يسـرد القرآن هنا حقيقة وواقعاً فرضه اختلاف طبيعة الـذكر عن الأنـثى، لذا فهو الأجدر بحمل المسؤولية – مسؤولية الـبيت وشـؤونه، مـع التركيز هنا على أن الآية ليست حكماً شـرعياً بقـدر مـا هي رصـد لواقـع وظـاهرة غالبـة، وإشـارة قرآنيـة لطيفـة إلى مـا ينبغي أن تكون عليه الحال في أي بيت.

ونهايــة الآيــة توضــح أولهــا فقولــه تعــالى (واللاتي تخــافون نشـوزهن فعظـوهن.......) واللاتي-نشـوزهن-فعظـوهن مفـردات خاصة بالنساء، فالرجل هو من يتـولى أمـور الـبيت وهـذه مسـألة تكليف أكثر من كونها تشريفا فلا يفـرح بـذلك الرجـال ولا تبـتئس بذلك النساء.

وعلينا أن نتذكر أن آية القوامـة تتحـدث عن الأزواج وزوجـاتهم وليس المقصود فيها أن أي رجل ذكـر مسـؤول عن أي أنـثى وأن الأخ الصغير مسؤول عن حياة اخته الكبرى فيمنعهـا من الدراسـة والعمل والخروج من البيت، مثلاً.

والنص القـرآني أو حـتى العـرف الاجتمـاعي لا يمنـع أن تتـولى المرأة شؤون البيت إن كانت هي الأكثر وعياً وقوة، لذلك لم تـرد الآيـة بصـيغة (كونـوا قـوامين على النسـاء) حـتى لا يكـون هنـاك تشريع في الأمر، والمسألة متروكة للعرف والظروف، وعليه فإن كانت المرأة أقدرُ على إدارة دفة السفينة وكان زوجها عربيداً فلا يوجد ما يمنع شرعاً أو عرفاً من قوامة المرأة للبيت.

ولاحظ بدقة اختيار الصفات النسائية في الآية التي تناسب هـذا المقام: قانتات (والمعنى العام لها هو طائعات) وحافظـات للغيب (أي تحفظ غيبة زوجها فلا تفشي سره ولا تخونـه ولا تضـيع مالـه ومالها) فلماذا وردت هاتـان الصـفتان تحديـداً في الآيـة؟ ألا يـدل

ذلك على تعزيز الآية لفكرة ولايـة الرجـل (الـذكر) لأمـور الـبيت؟ وكلامنا هذا طبعاً لا يمنع عمل المـرأة نهائيـاً وخروجهـا من الـبيت وإنما الآية رصدت واقعاً وهو أن طبيعة الرجل وتكوينه التي جبلـه الله تعالى عليها تتناسب مع الظهور والخـروج والانتشـار والعمـل والكسب والشقاء أكثر من المرأة، والمرأة لهـا دور في الحيـاة لا يقل أهمية عن دور الرجل فهي رديفتـه في الحيـاة، ولـو خـرجت إلى العمل ولعبت كرة القدم وعملت في سلك الشـرطة فهـذا لا بأس به لكنها بذلك تبتعد عن فطرتها، ولها الحرية في ذلك.

ولكي نحسم أمر لفظة (رجل) نقـول إن د. شـحرور والبـاحثين المعاصـرين لم ينتبهـوا إلى آيـة الـدين – أطـول آيـة في القـرآن الكـريم - وتحديـداً في قولـه تعـالى (وَاسْتَشْـهِدُوا شَـهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَـا رَجُلَيْنِ فَرَجُـلٌ وَامْرَأَتَـانِ مِمَّنْ تَرْضَـوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) فإن كـانت لفظـة رجـل تحتمـل الـذكورة والأنوثـة كمـا يقولون، فما قولهم في (فإن لم يكونا رجلين فرجـل وامرأتـان)؟ وما قولهم في آية الميراث في سورة النسـاء وتحديـداً في قولـه تعالى (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَـهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُـلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ) لماذا رجل أو امـرأة طالمـا أن كلمـة رجـل تحتمل الذكورة أو الأنوثة كما يقولون؟

قد يرى البعض هذه بديهة وأتفق معـه، وإثـارة النقطـة هنـا هـو بسـبب التوجـه المعاصـر الـذي تبنـاه الأخـوة اللسـانيون بهـدف عصرنة القرآن ما اضطرهم إلى تحريف كلمة نسـاء عن مـدلولها الأساس.

أمـا كيـف تولّـدت المفـردة في اللغـة وتشـكلت لتتلبس قالبهـا الذي ساد وانتشـر فهـذه تحتـاج إلى أبحـاث لسـانية مُعمقـة لكن نقـول إن اللسـان العـربي قـائم في ألفاظـه على القصـدية في الربـط العضـوي الحقيقي الفيزيـائي بين الـدال والمـدلول وليس الاعتباطية، ويظهر لي أنه لايمكن استبدال لفظة " طفل " بلفظة "شمس " مثلاً لتعبر عن الجرم السماوي، فالدلالـة بين الأصـوات وبين الشـمس حقيقيـة وفيزيائيـة ويحلـل اللسـانيون الأصـوات فيقولـون: الشـين فيهـا انتشـار والميم فيهـا لملمـة (هـذا جـذرها

الأساسي ش،م) وأضيفت إليها السين لتعطيها الحــدة، ومن هنــا جاءت الشمس.

فكــرة القصــدية هــذه وهــذا الارتبــاط العضــوي بين الأصــوات والدلالات هو نظريــة راجحــة الصــواب من وجهــة نظــري، ومزيــد البحث فيه أمر محمود، لكن علينــا الحــذر عنــد التطــبيق، حــتى لا نخــرج بنتــائج غريبة ونصــرف الألفــاظ القرآنيــة عن ظاهرهــا بلا ضابط، إذ أن هُنـاك آلاف الصـور الحسـية في كتـاب اللـه تعـالى، معظمها نتناولها بظاهرها فقوله تعالى مثلاً: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قُمْتُمْ إلى الصَّـلَاةِ فَاغْسِـلُوا وُجُـوهَكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِـقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَـى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مَـاءً فَتَيَمَّمُـوا صَـعِيدًا طَيِّبًـا فَامْسَـحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَـرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائـدة: 6]، فيها صـور حسـية كثـيرة (صـلاة.. واغسـلوا..وجـوهكم.. أيـديكم.. مرافق.. امسحوا.. رؤوسكم.. أرجلكم.. كعبين)، وهذا هو الأصـل، فالضابط الذي دفعنا إلى فهمها على ما هي عليه هـو أن هـذا هـو المعنى السائد والمعروف لها، وأن الله تعالى يخاطبنــا بمــا نفقــه ونعرف، فهذا هو لساننا، ولا يجوز أن نصرف اللفظة عن ظاهرهـا لمجرد أنها غير مقبولـة لعقلـك، فعقلـك ليس ميزانـا ومرجعـا ولا يُقاس عليه، فهنـاك من فسّـر النعلين في قولـه تعـالى:" إني أنـا ربّك فاخلع نعليك..."؟، بأنهما الكبر والآبائيـة ومـا دفعـه إلى ذلـك هو أن الله تعالى بعظمته لا يعقل أن يطلب من موسـى أن يخلـع حــذاءه. فهــل هــذا الضــابط كــافٍ لصــرف النعلين عن المعــنى المعروف لهما؟ وما المانع أن يأمر الله تعالى نبيه بأن يخلع نعليه على سبيل الحقيقة؟

انظر مثلاً إلى قصة سيدنا يوسف فهي مليئة بالصـور الحسـية: (الجب، الشــمس، القمــر، الاخــوة، القميص، الــذئب، الأبــواب، السكين، السجن، الخمر....) كيف لي أن افهم قصة يوسـف وفي مخيلتي أن ما يجري كله قد لا يكون هـو المقصـود طالمـا – كمـا

يقــول العديــد من الســادة البــاحثين المعاصــرين - إن الحســي والظاهري غالباً مرفـوض؟ ولـو سـألني أعجمي عن قصـة سـيدنا يوسف في القـرآن الكـريم فمـاذا سـأقول لـه؟ مـا هي الأحـداث المؤكدة في قصة سيدنا يوسف طالمـا أن أي صـورة حسـية في القرآن قد لا تعني ما تعنيه في السائد؟ هذه مشـكلة كبـيرة جـداً علينا أن نتعاون جميعا على التصدي لها إنصافاً للحق ولكتاب الله تعالى.

خطــورة هــذه النظــرة اللســانية المعاصــرة قــد تتســرب إلى الأحكام الشرعية فمثلاً في قوله تعالى "والزانية والزاني فاجلدوا كل واحدة منهمـا مئـة جلـدة..." على المنـوال نفسـه مثلاً يمكننـا القول: هل يعقـل أن يـأمر اللـه بجلـد الـزاني؟ لا بـد أن مقصـود الجلد هنـا مختلـف فالجلـد بالسـوط مسـألة تافهـة، وهكـذا. وفي قصـة سـيدنا موسـى (وَلَمَّا وَرَدَ مَـاءَ مَـدْيَنَ وَجَـدَ عَلَيْـهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَـا خَطْبُكُمَـا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْـدِرَ الرِّعَـاءُ وَأَبُونَـا شَـيْخٌ كَبِـيرٌ [القصـص: 23]، لماذا الماء ماء هنا والامرأتان امرأتان والرعاء رعاء والشيخ الكبير شيخ كبير؟ لماذا لا يكونون صـوراً أخـرى معنويـة؟ إذن لـو سألني أحدهم عن قصة موسى فسأعتذر له اعتذاراً شديد اللهجة وأقول له إنني لا أعلم عنها شـيئاً نهائيـاً لأنهـا مليئـة بهـذه الصـور الحسية وسأنتظر حتى يشرحها لي الأخوة اللسانيون.

باختصــار أقــول إنــه لا يجــوز العبث بــالمفردات وصــرفها عن ظاهرهـا بلا ضـابط أو قرينـة لأن ذلـك سـيؤدي إلى ترمـيزٍ كامـل للقــرآن وســينفلت النص من عقالــه فلا يعــود ثانيــة أبــداً، وعلى الأخوة اللسانيين المعاصرين التعقـل في هـذا، وألا يسـيطر علينـا هاجس اللسان واللغة وأن هناك فرقا كبيرا بينهما، فالفرق دقيــق بين اللسان واللغة، لكن الجميع الآن يركب موجة التفريـق بينهمـا وجعلهمـا منظــورين مختلفين تمامـاً عن بعضـهما، حـتى لـو قلت وجاء رجل من أقصى المدينة معناهـا أن هنـاك رجلاً قـد جـاء من أقصى المدينة فسـيردون عليـك بـالقول: هـذا المعـنى في اللغـة واللغة من اللغو وقريش كانت تتحدث لغة الأعراب، وقد ذم اللــه

اللغو، ويسحبون خناجرهم ويتنافخون شرفاً للذود عن اللسان بحجة أن اللسان يختلف عن اللغة، وكنت أسألهم مراراً وتكراراً: ما هو الفرق بين اللسان واللغة؟ سألتهم هذا السؤال ألف مرة، ولم أجد منهم جواباً شافياً، وعندما تطلب منهم مثالاً واحداً واضحاً لا يلبون طلبك، وعندما تسألهم عن المفعول المطلق والمبتدأ والخبر يقولون لك هذا لغو الأعراب لا يعنينا، القرآن نزل بلسان مبين، أما لغو الاعراب فهو مجرد تفاهة ومضيعة للوقت. فهل يعقل هذا؟ هل جملة: (ذهب علي إلى المدرسة)، لغة أم لسان؟ ولو أراد الله تعالى أن ينزل آية بهذا المعنى فهل سيقول شيئا مختلفاً عن (ذهب علي إلى المدرسة؟) لن تجد من بينهم من يقدم لك شرحاً اكاديمياً رصيناً وناضجاً معززاً بالأمثلة، فكيف ذلك والله تعالى يقول (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فهل سيدنا محمد كان استثناء عن القاعدة ونزل القرآن بلسان مختلف عن قريش؟ الأدهى أنك ستكتشف بعد هذا أن معظم المنافحين والمدافعين عن اللسان المبين يعانون من ضعف واضح في اللغة أصلاً، فهم لا يميزون بين النعت والحال ولا يعرفون المبتدأ من الخبر، واستخدامهم للتعابير والمصطلحات استخدام فج وهش وغير دقيق بالمرة.

فما هو الفرق الحقيقي بين اللسان واللغة؟ أنا قدمت –بحسب ما أرى- تعريفاً بسيطاً وسلساً للفرق بين الاثنين فقلت إن اللسان هو أصل اللغة النقي، وهو منبع اللغة الأول قبل أن تعبث به الأيدي، وهو دقيق جداً لكن عندما نستخدم هذا اللسان فنتجوز فيه ونبالغ ونتلاعب يصبح اسمه لغة، فمثلاً، اللسان لا ترادف فيه، لكننا في كلامنا العادي نستخدم الترادف بكثرة، لأن كلامنا يفتقر إلى الدقة، وهذه لغة، أما أن نقول إن القرآن نزل بلسان مختلف عن لسان القوم فهذا أمر خيالي. القرآن نزل يخاطب العرب بلسانهم وما يعرفونه ويألفونه، ولكنه مطلق الدقة، وأي تجاوزات عن هذا اللسان فهي ناجمة عن أخطاء فردية للناس وليست قاعدة، وفي اللسان فإن كل صوت له دلالة فيزيائية ومدلول معنوي وقد تشكل اللسان من تجميع دقيق جداً للأصوات لصناعة

وإنتـاج الكلمـات، بحيث يصـير لكـل كلمـة أو مفـردة اسـتقلالية وكينونة خاصة وفرادة، ولك أن تنظر في جذور الكلمـات الثنائيـة المشددة والجذور الثلاثية والـتي تحمـل ضـدها في ذاتهـا، وكأنمـا هي انعكاس للكـون والوجـود، ف"ضـد الشـيء قـائم فيـه" وهـذا القانون اللساني يحاكي قانون الكون، مـا يجعلـك تقـف مدهوشـا أن هذا اللسان – لسان قوم سيدنا محمد- هو لسان فطري بـديع لا يجاريه لسان في العـالم، وأنـه – كمـا تقـول بعض النظريـات – أصل الألسن ومنبعهـا كلهـا. خـذ مثلاً (ق- ر-أ) و(ر- ق- أ)، سـتجد أن الكلمة وضدها في المعنى قائمتين في الحروف الثلاثة نفسها، فـ (رقأ) تحمل مـدلول الجفـاف والسـكن والإصـلاح، بينمـا (قـرأ) تحمل معنى النزف والاستمرار والجريان، لذا قالت العرب (فلانـة طويلـة القـروء، بطيئـة الرقـوء) أي أن حيضـها ونزفهـا يطـول وانقطـاع الـدم عنـدها يحتـاج وقتـاً، وكمـا هي الحـال في الحيض عندما تصل إلى مرحلة تتداخل فيهـا مرحلـة الحيض بـالطهر نجـد حـروف الكلمـتين متـداخلتين، فهـل يعقـل أن نصـف هـذا بلغـو الأعراب؟ أليس هـذا لسـان مطلـق الدقـة؟ خـذ مثلاً كلمـة (فـرّ) والتي تعني أدبر وطار مبتعداً، ويقابلها (رفّ) تعني عاد

- (سـبح) مـدلولها الانطلاق والانفلات والابتعـاد و(حبس) ومدلولها التقييد والمكث
- (غ د ر) تحمـل مـدلول المغـادرة والـترك و(ر د غ) تحمـل مدلول الثبات والبقاء
- (فرغ) خلو و(غرف) امتلاء
- (جف) نضج و(فج) عكسها
- (فلس)افتقر، و(سلف) اغتنى وأقرض
- (شـهد) تـدل على المعرفـة والادراك، و(دهش) لتـدل على نقص الوعي والادراك
- (جن) بمعـنى اسـتتر واختفى، و(نج) بمعـنى ظهـر وبـان، فنقول فلان ناجَ بعمله أي راءى بعمله، ونقول نج الجرح أي سـال دمه وانكشف.

- (ثفن) الجلد أي انتفخ وتورم، و(نفث) أي رمى ما به من قيح ودم....لاحظ حركة الاتجاهات في كل كلمة، فهي محاكاة لاتجاهات المادة في الكون وعكسها، فلكل فعل (ثفن) رد فعل (نفث)
- (العقر) خرق، و(الرقع) رتق
- (فرص) تعني أعطى فرصة، فنقول أفرصتني الفرصة، أي أمكنتني من الأمر، بينما (صرف) تعني رد الشيء ورفضه. انصرفوا عن المكان أي رجعوا وتركوا المكان. هذا ما كانت تتكلم به العرب، فهل يعقل للسان مثل هذا أن نسميه (لغو الاعراب)؟ لا بل طالت الدقة الأصوات المفردة في هذا اللسان العجيب، فكان للأصوات معان ودلالات، ولو نظرنا لحرف (غ) لوجدنا ان دلالاته الغياب والاختفاء: غاب، غطس، غفل، غمر، غرز....الخ.

اذن هذا اللسان العربي – الذي كان ينطق به أهل قريش - هو محاكاة للكون والحياة التي يقول فيها هيجل (الشيء يحتوي على نقيضه)، فما معنى ان القرآن نزل بلسان مختلف عن لسان القوم؟ هل القوم من المريخ والقرآن نزل بلسان زُحل؟ وعليه نقول إن كان لا بد من تعريف للغة وتفريقها عن اللسان فإن اللغة هي استخدامنا لهذا اللسان وتجوزنا فيه فكلما ابتعد هذا اللسان عن الأصل والمنبع والدقة المطلقة التي يتضمنها يمكن تسميته (لغة) بحسب تعريفي المبسط هذا، لكن أن نقول إن لسان القرآن يختلف عن لسان قوم سيدنا محمد، وإنه نزل بلسان مختلف، فهذا كلام لا قيمة له.

7. هل الخطاب القرآني ذكوري؟

في اللغة الإنجليزية يمكن ترجمة (يا أيها الـذين آمنـوا ...) إلى (O You have believed)، وسـنلاحظ في أسـلوب النـداء الإنجليزي حيادية من ناحيـة الـذكورة والأنوثـة، فمن غـير الواضـح هـل المجموعـة المُنـاداة ذكـور أم إنـاث أم ذكـور وإنـاث، وهـذه الحياديـة تسـري في أسـاليب كثـيرة في اللغـة الإنجليزيـة ومنهـا أسلوب النداء والمخـاطب والغـائب الجمـع مثلاً، لكنهـا في اللغـة العربية واللسان القرآني ليست محايدة، فـ (يا أيهـا الـذين آمنـوا) خطاب للذكور، وهنا أتكلم عن المستوى اللغوي وليس الشرعي، بينما المخاطب من الناحية الشرعية قـد يكـون ذكـراً وقـد يكـون أنثى، وهذا الأسلوب الذكوري منتشر وطاغ في اللغة العربية قبل الإسلام وفي وقت نزول القرآن وما بعـده، وعنـدما نـزل القـرآن راعى هذه الثقافة الذكورية، فالقرآن نزل يخاطب قوماً بـأدواتهم هم وسـقفهم المعـرفي وثقـافتهم وبـيئتهم ولسـانهم، وهنـاك من يرى أنـه طالمـا أن القـرآن مطلـق الدقـة فعلينـا فهمـه كمـا ورد تمامـاً، أي فهمـاً حرفيـاً لـذا فقولـه تعـالى (يـا أيهـا الـذين آمنـوا) تخاطب الذكور فقط، وقوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) تتحـدث عن المؤمنين الـذكور فقـط، وقولـه تعـالى (كُتب عليكم الصـيام) تخـاطب المؤمـنين الـذكور فقـط، وليس على النسـاء صـيام أو صلاة، وهذا لا يستوي مـع المنطـق فـالمرأة مُكلّفـة كمـا الرجـل، ونفي التكليف عنها يرفع عنهـا مقـام الأنسـنة ويضـعها في مرتبـة واحدة مع الحيوانات والدواب.

المرأة في التشريع مكافئة للرجل سواء بسواء، وما تـرتب من أحكام يطبقها الرجل والمرأة كل حسب قدرتـه وسـعته، فـالمرأة

مثلاً لا تخـــرج للقتـــال بحكم طبيعتهـــا وهـــذا لا يحتـــاج إلى نص تفصيلي، لأن القرآن يخاطب قوماً بحسب ثقـافتهم ويظـل الرجل هو المناط الأول بالأحكام الشـرعية بسـبب طبيعتـه الـتي تتطلب أكثر السعي والخـروج ومـا يـترتب على ذلـك من معـاملات مثـل التجـارة والـدين والطلاق وغـيره، فالرجـل والمـرأة في مـيزان التشـريع سـيان، ويتمـايز أحـدهما عن الآخـر خـارج التشـريع كـل بحسب طبيعته فهما ليسا أكفاء في كل شيء،

غير أن المرأة بنظر الانسان "المتنور" مكافئ للرجل لها ما له وعليها ما عليه في كل شيء، وهذا وإن كان فيه حق لكنـه يحتـاج إلى تفصيل، فلأجل ترسـيخ وتعزيـز فكـرة التكـافؤ بين الجنسـين على إطلاقهـا دون ضـابط تجـد المتنـور يـدوس على كثـير من الحقائق العلمية والمنطقية وملايين الشواهد الواقعيـة الـتي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجل والمرأة كائنان مختلفـان وتمـيز أحدهما عن الاخر في مجالات معينة لا يعني أفضلية أحـدهما على الآخر وإنما يعني اختلافاً وتكاملاً.

الرجل في الواقع سواء كان في الغرب أو عند العرب هو مناط السعي والشقاء والكفاح والعمـل أكـثر من المـرأة لا لأن المـرأة بطبيعتها قاصر وإنما لأنها تختلف في تكوينها وجبلتهـا عن الرجـل، والمهام التي تتوافق مع فطرتها وطبيعتها التي جبلهـا اللـه تعـالى عليها مختلفة عن الرجل، وهذا ما حقق تاريخياً التميز للرجل فيما يتعلـق بـالمنجز الحضـاري، ولـو نظرنـا من حولنـا، وتحديـداً إلى العالم الغربي المتطـور والـذي منح المـرأة الحريـة الكاملـة منـذ أواخر الحرب العالمية الثانيـة، سـنلاحظ أن نسـبة إسـهام المـرأة في قيام هذه المدنيـة لا تسـاوي 50%، حـتى نقـول إنهـا مكـافئ للرجل، بـل إنهـا-بـرأيي- لم تحقـق 5%، وسـيعترض الآن أحـدهم قائلاً: لكنني أرى النساء حولنا في الشركات والمطاعم والمصـانع هنا في ألمانيـا –مثلاً- يعملن سـواء بسـواء مـع الرجـل ويشـاركن وينجزن.

ونقـول لـه: إن المـرأة تشـارك في المُخرجـات في بلـد مثـل ألمانيا هذا صحيح، لكن هذا تحقق نتيجة عاملين: العامل الأول هو

العامل الديمغرافي والذي نجم عن الحـرب العالميـة الثانيـة حيث تقلص عدد الذكور مقارنة بالإناث ما اضـطر المـرأة إلى الخـروج للعمل لتغطية هذا النقص، والعامل الثاني يكمن في انتشار ثقافة ودعوات وجـوب خـروج المـرأة إلى الشـارع. لكن مـع ذلـك فـإن المــرأة لا تشــارك في المــدخلات هنــاك بقــدر مشــاركتها في المخرجات، بمعنى أنك سـتجد في الـدول الغربيـة - وخاصـة تلـك الدول الهرمـة الـتي تعـاني من خلـل ديمغـرافي – النسـاء يقـدن السيارات والحـافلات لكنهن لم يصـنعن هـذه السـيارات والآلات، وسـتجد الطبيبـات وخبـيرات الأشـعة يسـتخدمن أحـدث التقنيـات والأدوات الطبية لكنهن لسن من اخترع ذلك، وإنما الرجل.

وهنـاك مغالطـة يقـع فيهـا المتنـورون فمـا إن تصـدمهم بهـذه الحقيقة حتى ينبشوا التاريخ ليستخرجوا منه أمثلة محددة وقليلــة على نساء أسهمن في المنجز الحضاري مثل مدام كـوري وطبعـاً هذه مجرد أسماء معـدودة ومكـررة وقليلـة، وهـذا الشـاهد يقـف ضدهم لا معهم، فلو كان إسهام المرأة الحضاري موازيـاً لإسـهام الرجل فإنـك لا تحتـاج إلى البحث والعـودة إلى الـوراء مائـة عـام بحثاً عن مثال لامرأة واحدة أو بضع نساء تفوقن في مجال يتفوق فيـه الرجـال عـادة، وعنـدما تـرد عليهم بـذلك سـيقولون لـك إن منجزات المرأة الحضـارية أقـل من الرجـل لأن المـرأة تعرضـت لظلم واضطهاد تاريخي، ولكن هـذا غـير واقعي فـالمرأة الغربيـة نالت كافة حقوقها وتساوت بالرجـل منـذ عقـود، فلمـاذا لا نراهـا على منصات الجوائز العلمية مثل نوبل وخلافه؟ منـذ عـام 1901 وحتى اليوم فاز بالجائزة 825 رجلاً بينما حصلت عليها 48 امــرأة فقط. الفجوة هائلة.

المرأة فيزيولوجياً وبيولوجياً وعقلياً ونفسياً تختلف عن الرجــل، وليست أقـل من الرجـل لكن تكوينهـا مختلـف، فهـو مهيـأ ليقـوم بمهام مختلفة، ولو تتبعت بإنصاف قدرات الرجل والمرأة لوجدت أن الرجل يتفوق في المهام الميدانية خارج البيت والمرأة تتفـوق في المهام البيتية.

فمثلاً المرأة ليست مهيأة عضلياً مثل الرجل للقيام بأعمال الحفر والبناء، وللرجل في مناخيره شعر ليقيه من الغبار في الخارج بينما المرأة لديها هذا الشعر بنسبة أقل بكثير فهي لم تُخلق للغبار و"البهدلة" والشقاء خارج البيت، وهذا سطره القرآن بكل وضوح عندما قال ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117] فخروج آدم وزوجه من الجنة من المفروض أن يسبب شقاء له وليس لهما، وهذه إشارة غير مباشرة إلى أن الشقاء والكد والتعب والعمل خارج البيت هو فطرياً – ولا نقول حصرياً – مُناط بالرجل.

وانظر في مجمل النشاطات خارج البيت فتجد الرجل -برأيي- أكثر مهارة فيها: في قيادة السيارات (وخاصة الاصطفاف)، البناء، التحليق بالطائرات، هندسة الطرق والجسور، الطب، الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات، الأدب، الفلسفة، حتى تصل إلى الطهي والأزياء.

من الذي أقام الأبراج وشيّد المباني ومد الطرق والشبكات الكهربائية وبنى المصانع وعمر الأرض وزرع وحصد واخترع واكتشف؟ لنكن واقعيين: إنه الرجل، وهذه حقيقة دامغة لا ينكرها إلا مكابر، ولا تعني تميزاً للرجل على المرأة وإنما تعني أن الرجل خُلق لهذا أكثر من المرأة، فهو مخلوق للعمل والكد والسعي خارج البيت أكثر بكثير من المرأة، وهناك بالمقابل أمور تناسب طبيعة المرأة أكثر.

وهذه الفروقات الجنوسية gender (الأنماط العقلية والسلوكية) بين الجنسين موجودة منذ الساعات الأولى للولادة، وتصبح أكثر وضوحاً بعد الولادة بأسابيع وشهور، ولنسرد بعضها على شكل نقاط ننقلها بتصرف من كتاب (المخ ذكر أم أنثى) من تأليف د. عمر شريف، ود. نبيل كامل[1] :

- "ألا تلاحظ أن طفلتك الرضيعة أكثر هدوء من طفلك الذي كان أكثر صراخاً وأقل استجابة لمحاولات تهدئته.

[1] كتاب (المخ ذكر أم أنثى)، د. عمر شريف و د.نبيل كامل

- عنـدما تبـدأ ابنتـك في الحبـو ثم المشـي سـتلاحظ أنهـا أقـل اهتماماً باستكشاف المنطقة المحيطـة عن ابنـك الـذي ستضـطر إلى الركض خلفه في كل مكان لإعادته إلى البيت.
- ستلاحظ اهتمـام ابنتـك بـالعرائس بينمـا الولـد يفضـل اللعب بالعربات والمسدسات.
- عنـدما اصـطحبت انت وزوجتـك ابنتـك إلى الحضـانة للمـرة الأولى فقـد لاحظت كم كـان صـعباً على الطفلـة أن تـترك أمهـا، بينما الأمر لم يكن بالمشقة نفسها مع الولد.
- الأطفـال في الحضـانة يتجمعـون ضـمن مجموعـات وشـلل بحسب الجنس، الأولاد الذكور يلعبون ألعابا عنيفة ويسقطون في الميـدان ويحتـاجون مسـاحات أوسـع، بينمـا البنـات يتجمعن في زاوية الملعب يتحادثن ويمشطن العرائس.
- حكايـات الأطفـال الـذكور تـدور حـول باتمـان وغرينـدايزر وسـبايدرمان والسـندباد، بينمـا الفتيـات يتحـدثن عن المـنزل والصداقة والمشاعر.

- في رحلات التخـييم والكشـافة مـا أن يصـل المراهقـون إلى المخيم ويتم تـوزيعهم على الخيـام الـتي تجمعهم مـع أولاد لا يعرفـونهم حـتى تبـدأ المنافسـة على السـيادة وحب الظهـور والتفوق، وعادة فالمسـيطر هـو أجـرأهم وأكـثرهم حبـاً للظهـور، وغالباً يكون أوقحهم وأقلهم حرصاً على مراعاة مشاعر الاخـرين. وقد يحتـاج أن يفتعـل مشـاجرة يضـرب فيهـا صـبياً ضـعيفاً أمـام رفاقه لتخويفهم، أو ستجده يسخر من زميله البدين أو الذي لديـه علة كاللعثمة أو التأتأة في الكلام، وهكـذا يتم حسـم أمـر القيـادة بهذا الأسلوب الفج من أول ليلة، وهذا سنجده على كافـة الصـعد عند الرجال ابتداء من عند أي طفـل في مجاهـل افريقيـا وانتهـاء بـرئيس أقـوى دولـة في العـالم .
أمـا في خيـام البنـات فـالأمر قـد يسـتغرق أسـبوعاً حـتى تتحـدد القيادة لإحداهن لان الطريق للقيادة يتم من خلال بناء الصـداقات

وربما إظهار التعالي والتكبر واللامبالاة وإهمال تعليقات الرفيقات كنوع من التهميش."

المخ/العقل الذكوري بشكل عام ينظر إلى العالم من خلال القوانين والقواعد والأشياء، لذلك فالرجال عادة هم الذين يسعون لاكتشاف قوانين الطبيعة المادية وأسرار الوجود، أما النساء فإنهن ينظرن إلى الأمر من الناحية الإنسانية وانعكاساته على العلاقات الاجتماعية، وليس على نتائجه المجردة فقط، لذلك فإنهن ينظرن إلى الحروب النووية وقضايا البيئة على أنها شر يهدد البشرية ولا تعنيهن التفاصيل، وهذا ما يفسر تفوق الذكور على الإناث في الفوز بجوائز نوبل في كافة المجالات وتحديداً المجالات العلمية فوفقًا لتقرير نشرته وكالة فرانس برس[1] في 12 أكتوبر 2020، تم منح جائزة نوبل منذ عام 1901 إلى 58 امرأة فقط، مما يشكل 6.2% من إجمالي 934 فائزًا (باستثناء المؤسسات). ومع ذلك، شهدت العقود الأخيرة زيادة ملحوظة في عدد النساء الحائزات على الجائزة، حيث بلغت النسبة 11.1% في العقد 2010–2019، مقارنة بـ9.2% في العقد 2000–2009. في المقابل، كانت النسبة 5.4% في العقد 1900–1909 و2.6% في العقد 1910–1919. أما العقد 1950–1959 فلم يشهد أي فائزة. وتشير البيانات إلى أن الجوائز في مجالات الطب والاقتصاد هيمن عليها الذكور، بينما كانت الجوائز في مجالات السلام والأدب أكثر تنوعًا من حيث الجنس، ولكن بشكل عام فإن الفجوة ظلّت واسعة بين الجنسين **و**في دراسة نُشرت في مجلة *The Lancet*[2] عام 2019، تم تحليل بيانات الترشيحات والجوائز في مجالات الفيزياء والكيمياء والطب بين عامي 1901 و2019. أظهرت النتائج أن النساء

---

[1] "Women Gain Ground In Nobel Man's World" – NDTV، 12 أكتوبر 2020.(ndtv.com)

[2] Le Segretain, P., et al. "Representation of women among scientific Nobel Prize nominees." *The Lancet,* 2019. (thelancet.com)

شكلن 2.2% من إجمالي المرشحين و2.7% من الفائزين، وهذا لا نسرده لكي نقول إن الرجل أعلى إدراكاً من المرأة، وإنما لنبين اختلاف طبيعة الجنسين، فالمرأة بطبيعتها مؤهلة لكافة الأعمال التي تتضمن تواصلاً نفسياً واقتراباً حميمياً مع الآخرين (المهن الاجتماعية) مثل التعليم والتمريض والطب والسكرتاريا والعلاقات العامة، والتكوين النفسي والعقلي يجعل معظمهن أقل كفاءة من الرجل في المهن الإدارية والميدانية والهندسية والميكانيكية، وكذلك مهن رجال الأعمال وهي النقل والتجارة والصناعة والمقاولات، ففي عام 2022، شكلت النساء 15% فقط من الحاصلين على درجات بكالوريوس في الهندسة في الولايات المتحدة، مقارنة بـ85% من الذكور[1]، وهذا طبيعي لأن الذكور ينظرون إلى العالم على أنه مجال للسيادة والسيطرة والتفوق من خلال المنافسة والمخاطرة والقوة، لا لأنهم أعلى إدراكاً وعقلاً من النساء، ولكن لأنهم جبلوا على طبيعة غير الطبيعة التي جبلت عليها النساء، لذا ستجد الرجل بطبيعته يسعى دوماً إلى الاستقلال ويتحاشى طلب المساعدة من الآخرين في العمل، ويعتبر ذلك انتقاصاً من قدراته ورجولته، وفي المقابل لا تخجل النساء من طلب المساعدة من الآخرين وهذا يدعم علاقاتها الإنسانية والاجتماعية ويدخل في صميم ما تصبو إليه.

وعند اتخاذ القرار فإن الرجل صاحب عقل تنظيمي تحليلي لا يتأثر كثيراً بالعواطف ويستطيع أن يستخرج العوامل الأساسية من بين ركام التفصيلات الكثيرة، فيتعامل مع المشكلة في عناصرها الرئيسية اعتماداً على الحسابات والمعادلات والنظرة المجردة، لذلك فهو صاحب تفكير استراتيجي لا يغيب عنه الهدف وسط ركام التفاصيل.

---

[1] Metrics. "Diversity In Engineering Statistics Statistics: Market Data Report 2024." https://worldmetrics.org/diversity-in-engineering-statistics/worldmetrics.org

لاحظ مثلاً في مراكز التسوق فإن الرجل يتجه مباشرة لإحضار المـواد الـتي جـاء لأجلهـا وينتهي من مشـواره في دقـائق، بينمـا المرأة فإنها تنفق ساعات في التجوال وهي تطـالع وتتفحص كـل شيء باستثناء ما جاءت لأجله.

كذلك فالمرأة تنظر إلى المشكلة بتفاصيلها المتعددة ولا تركـز على الركن الأساسـي للمشـكلة وإنمـا تعتـبره مجـرد عنصـر من عناصر متعددة، وهذا يؤدي إلى خروج الرجل بحلـول عمليـة أكـثر من المرأة بينما المـرأة تخـرج بتفاصـيل عن الموضـوع أكـثر من الرجـل، لـذلك دومـاً فـإن المـرأة تميـل أكـثر إلى دراسـة المـواد الأدبية والإنسانية والابتعاد عن الفيزياء والهندسة والرياضيات.

وفيمـا يتعلـق بـالحواس فـإن النسـاء يتفـوقن في السـمع على الرجال، إذ تشير الدراسات[1] إلى أن النساء يمتلكن عتبة سمعية (Hearing Threshold) أقل من الذكر، والعتبة السمعية هي أقـل مستوى من شد الصوت يمكن للأذن البشرية سـماعه عنـد تـردد معين، دون أي مـؤثرات خارجيـة، وهـذا يعـني أنهن قـادرات على سماع الأصوات الخافتة بشـكل أفضـل من الرجـل، وهـذا رصـده الواقع قبل أن ترصده الدراسـات، ففي الأفلام السـينمائية نلحـظ أن المرأة هي التي تسـتيقظ دائمـاً عنـد وجـود حركـة مريبـة في البيت فتوقظ زوجها ليتصدى لخطر الحرامي أو المتطفـل، وهـذه الميزة البيولوجية عند المـرأة تسـاعدها على سـماع بكـاء طفلهـا ليلاً، فالنسـاء كمـا تشـير إحـدى الدراسـات[2] ينتجن مـا يعُـرف بالانبعاثـات الصـوتية الأذنيـة التلقائيـة Spontaneous optoacoustic emissions بمعـدل أعلى من الرجـال، وهي أصوات تصدرها الأذن الداخليـة اسـتجابة للصـوت، وتُعـد مؤشـراً على حساسـية السـمع.

والنسـاء كـذلك أكـثر حساسـية وتميـيزاً للألـوان، وخاصـة اللـون

[1] McFadden, D. (1998). *Sex differences in the auditory system. Developmental Neuropsychology*, 14(2–3), ص 261-298.
[2] Kelley, P. E., et al. (1992). *Otoacoustic emissions in newborns and adults: gender differences and clinical applications. Audiology*, 31(1), ص 16-26

الأحمر[1] وتدرجاته، مقارنة بالرجـال، وهـذه الاختلافـات تُعـزى إلى العوامل البيولوجية مثل الكروموسـومات والهرمونـات، بالإضـافة إلى توزيــع الخلايــا المخروطيــة (cones) في شــبكية العين، ألا تلاحــظ أن النســاء يكتشــفن وجــود طفح جلــدي عنــد أطفــالهن ويحـــــاول الرجـــــل بكـــــل جهـــــده رؤيـــــة ذلـــــك فيفشل؟

وتتميز المرأة بقدرتها على رؤية مجال بصري أوسع يمتد من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، بالمقابل الرجل قادر على رؤية تفاصيل أدق في المنطقة الضيقة المواجهة له مباشرة، ففي دراسة[2] أجراها **Silverman & Eals (1992)** حول الفروقات الإدراكية بين الجنسين، وُجد أن النساء يتميزن بقدرة أعلى على تتبع الأجسام في المجال البصري الواسع (من الجانبين)، وهو ما يعزز لديهن مهارات التتبع البصري المحيطي — خاصية مفيدة تاريخياً في أدوار مثل جمع الطعام أو مراقبة الأطفال.،أما الرجال، فغالبًا ما يُظهرون دقة أعلى في التركيز البصري في **المجال الأمامي الضيق**، وهي سمة تعزز مهارات الصيد أو استهداف الفرائس، بحسب التفسيرات التطورية.

وتشير أبحاث متعددة إلى أن النساء يتمتعن بحساسية أكبر للطعم، سواء فيما يتعلق بعدد **براعم التذوق** أو **القدرة على التمييز بين النكهات**، ففي دراسة أجرتها الباحثة[3] **Linda Bartoshuk**، أخصائية علم النفس الحسي في جامعة Yale، وُجد أن النساء، وخاصة من يوصفن بـ"السوبر تيسترز" (super tasters)، يملكن عدداً أكبر من براعم التذوق مقارنة بالرجال، ما يمنحهن حساسية أعلى تجاه النكهات، خصوصاً المُرّة والحلوة

---

[1] **Jameson, K. A., & Highnote, S. M. (2001),** *Visual differences in color perception between men and women, Journal of Cognition and Culture, 1(2), 234–197* ص

[2] Silverman, I., & Eals, M. (1992). *Sex differences in spatial abilities: Evolutionary theory and data*. In J. Barkow, L. Cosmides, & J. Tooby (Eds.), **The Adapted Mind** (549–533 ص). Oxford University Press.

[3] Bartoshuk, L. M., Duffy, V. B., & Miller, I. J. (1994). *PTC/PROP tasting: Anatomy, psychophysics, and sex effects.* **Physiology & Behavior**, 56(6), 1171–1165 ص.

و يُعتقد أن هذه الحساسية ساعدت النساء تاريخيًا في تجنب الأغذية السامة أو الضارة أثناء رعاية الأطفال.

وفيما يتعلق بالدماغ وعمله تشير دراسات[1] تصوير الدماغ بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI) والتصوير بالرنين المغناطيسي الموزون بالانتشار (DTI) إلى أن **دماغ المرأة يظهر تواصلاً أكبر بين النصفين المخين (الأيسر والأيمن)**، عبر الجسم الثفني (Corpus Callosum) – وهو الجسر العصبي الذي يربط بين نصفي الدماغ، بينما **يميل دماغ الرجل إلى إظهار تواصل أقوى داخل كل نصف دماغ على حدة**، خصوصًا في النصف الأيسر المرتبط بالمهارات التحليلية والرياضية، وهذا يعني أن إدراك المرأة كلي أي يجمع بين المنطق والعاطفة دائما بينما إدراك الرجل تخصصي، وينفصل عن العاطفة، فهو عندما يحب فإنه يحب بلا منطق وعندما يمنطق الأمور فإنه يمنطقها بلا عاطفة وأحاسيس (إلى حد كبير)، كذلك هذا الانفصال في المهام الدماغية يساعد الرجل في التركيز على المهام التي يؤديها وخاصة التحليلية والرياضية والهندسية، بينما تساعد مهارة تعددية المهام المرأة في رعاية بيتها إذ باستطاعتها الإشراف على المطبخ والأطفال بكفاءة وفي وقت واحد، وهذا نلحظه واقعياً فالرجل إن تم توكيل مهام رعاية طفل وإدارة مطبخ إليه فسينتهي الأمر بكوارث مضحكة.
وتؤكد هذا دراسات عصبية[2] والتي كشفت أن الرجال يميلون إلى امتلاك كمية أكبر من المادة البيضاء في أدمغتهم مقارنة بالنساء، والتي تمثل الألياف العصبية الميالينية التي تربط بين مناطق الدماغ المختلفة. هذه المادة البيضاء تعزز التواصل داخل كل

---

[1] Ingalhalikar, M., Smith, A., Parker, D., Satterthwaite, T. D., Elliott, M. A., Ruparel, K., ... & Verma, R. (2014), **Sex differences in the structural connectome of the human brain.***Proceedings of the National Academy of Sciences*, 111(2), 828–823 ص.

[2] Ingalhalikar, M., Smith, A., Parker, D., Satterthwaite, T. D., Elliott, M. A., Ruparel, K., ... & Verma, R. (2014). Sex differences in the structural connectome of the human brain. *Proceedings of the National Academy of Sciences*, 111(2), 823-828.

نصف كرة دماغية على حدة، مما يدعم المعالجة المتخصصة والفعالة للمعلومات في مناطق معينة. وفقًا لدراسة أُجريت بواسطة Ingalhalikar et al. (2014)، فإن زيادة المادة البيضاء عند الرجال ترتبط بتحسين الأداء في المهام التي تتطلب التنسيق الحركي والمهارات المكانية والتحليلية، حيث تسهم في نقل أسرع وأكثر كفاءة للمعلومات داخل كل نصف دماغ.

والعالم المادي اليوم يعتبر أن العمل هو ما يتم خارج المنزل مقابل أجر، لذلك فإن عمل المرأة العظيم في بيتها وتربيتها لأولادها لا يُعتبر عملاً في المنظار العصري الحديث، وستخجل المرأة إن اضطرت أن تقول إنها مُجرد "ربة بيت"، بينما نلاحظ أن المجتمعات الغربية تصنف الغانيات وبائعات الهوى على أنهن عاملات sex workers لمجرد أنهن يتقاضين أجراً خارج المنزل.

فنحن نقيس النجاح بمقاييس ذكورية ونريد أن نفرضه على المرأة، لا بل ونجعله معياراً نقيس من خلاله نجاح الذكور والإناث مع أنهما جنسان مختلفان تماماً، فما زلنا نعتبر أن نجاح المرأة يتمثل في أن تغزو هذه المرأة الرقيقة الأم الحنون كل المجالات الذكورية وتثبت قدرتها فيها.

يقول د. سيمون بارون كوهين – أستاذ علم النفس والطب النفسي بجامعة كامبردج[1]:

" الدماغ الأنثوي مبرمج في الغالب على التعاطف. أما الدماغ الذكوري فمبرمج في الغالب على فهم وبناء الأنظمة".

وقد حاول اللسانيون -كما أسلفنا- تحييد بعض الألفاظ جنسياً مثل كلمة (رجل) و (نساء) فاعتبروا الأولى معبرة عن حالة التقدم والمبادرة والثانية عن حالة التأخر والتبعية والضعف، وأن لا علاقة للكلمتين بالجنس، وهذا أوقع اللسانيين في مطبات صعبة فلو سألتهم مثلاً لماذا قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23]؟،

[1] Simon Baron-Cohen, The Essential Difference: Men, Women and the Extreme Male Brain, Penguin Books, 2003, ص1

ولم يقل: (إني وجدت رجلاً تملكهم....)، طالما أن لفظة رجل محايدة جنسياً؟ ولماذا قال (فرجل وامرأتان) في آية الدين إن كانت كلمة (رجل) قد يقصد بها الذكر أو الانثى؟ فلن تجد جواباً إلا إجابات منزوعة الدسم، لا بل لا تخلو من الطرافة والسذاجة أحياناً، وهناك غيرها الكثير من الأمثلة التي يوردونها لإثبات ان كلمة "رجل" لا يُشترط ان تمثل الذكر حصراً، وخاصة في آية "الرجال قوامون على النساء " التي حاولوا فيها حرف الآية عن مسارها لتناسب نهجهم التنويري العصري.

وبالمختصر فإن من حق المرأة الدراسة والعمل خارج البيت حتى بما يخالف طبيعتها وأنوثتها فهذه حرية ولا ننكرها عليها ولا ننسى أنه لا غنى عن المرأة في مجالات كثيرة ومنها الطب والتعليم والتمريض والتدريس، ناهيك عن أن الحضور النسائي في أي مكان يكسر حدة الروتين الخشن الممل الذي يبعثه الرجال في النفس، وتظل المرأة الحاضنة والدافع الأكبر لكل هذا المنجز الحضاري الذي ما كان ليقوم أبداً لولا وجودها.

وللخروج من هذا التيه والضياع ينبغي إدراك الفروق الجنوسية بين الذكر والانثى والنظر اليها باعتبار ان كلاً من الرجال والنساء قد أُعد للقيام بدور خاص في هذه الحياة، وينبغي الإقرار بوجود مفهومين للنجاح والتفوق: مفهوم ذكوري قائم على التنافس والسيطرة والسعي للترقي الهرمي، ومفهوم أنثوي قائم على تحقيق الرضا النفسي من خلال التعاون والعلاقات الإنسانية.

وهي ليست دعوة للمرأة أن تلتزم بيتها ولا تخرج إلى العمل والتعليم وإنما نحن هنا نسطر فروقاً بين الجنسين ولا نعطي نصائح أو رسائل مبطنة تحض على دفن المرأة وحرمانها من حقها الأساسي في التعليم والعمل والعيش بكل حرية واستقلالية.

الباب الرابع:

حِمى القرآن

1. غموض القرآن

هل القرآن فعلا غامض؟ لماذا نجد النص القرآني فيه إبهام وغموض ولماذا لم يكن قاطعاً وواضحاً فيوفر علينا الوقت والجهد والفتن والدم؟

والحقيقة أن هذا سؤال عميق، فهل القرآن فعلاً غامض في بعض مواضعه أم أنه واضح وقاطع؟ هذا السؤال شغلني زمناً طويلاً ومع أن الكثير من الناس لا يكفون عن الترداد أن القرآن واضح وسهل وميسر للذكر لجميع الناس إلا أن متدبر القرآن يجد نفسه أمام الكثير من الآيات التي لن تفهم مقاصدها إلا بعد رحلة طويلة مضنية من التفكيك اللغوي والدلالي والربط بالسياقات -هذا إن فهمتها- ويظل التساؤل بعدها قائماً أنه طالما تعني كذا وكذا فلماذا لم تكن واضحة من البداية؟ لماذا نحتاج إلى مرور مئات وآلاف السنين حتى نستطيع فك شيفرة بعض الآيات بينما هناك آيات أخرى واضحة جلية لا لُبس فيها؟

ولنأخذ أمثلة – والأمثلة كثيرة جداً بالمناسبة.

مثال (1)

سورة التوبة فقد كان الفهم السائد لها – ولا يزال بمعظمه - سبباً من ضمن أكبر الأسباب التي بنت عقيدة التشدد ورفض الآخر عند المسلمين، بسبب احتوائها على آيات للقتال وقطع الأعناق وقتل المشركين والقعود لهم كل مرصد وخاصة فيما يعرف بآية السيف.

ويدافع المتنورون عن السورة بأنّ السياق هو سياق دفاعي بحت، فليس المقصود أن نبحث في الشارع عن المشرك فنقتله وإنما هي نص تاريخي يحث فيه القرآن المسلمين على الدفاع عن أنفسهم ضد من نكثوا العهد من المشركين.

كل هذا جميل ومنطقي ولكن لماذا لم يكن القرآن واضحاً وسهلاً في ذلك وكفانا مؤونة سوء الفهم التي ما زلنا نحمل وزرها حتى اليوم وسالت الدماء بسببها؟

أنا أعرف أنه بعد تحليل الآيات والسياقات واستنطاق النصوص ومقارنتها والاطلاع على مقاصد القرآن العظمى نخلص إلى نتيجة وهي أن الإسلام – فعلاً - ليس دينا هجومياً عدائياً وإنما هو دين دفاعي، ولكن هذا ستكتشفه بشق الأنفس وبعد قراءة وتمحيص، أما الآيات بظاهرها – ومن القراءة الأولى- فلا توحي بذلك.

مثال (2)

الصلاة: تاه الناس في أمر الصلاة في القرآن الكريم فمنهم من قال إن الصلاة الحركية موجودة بكل تفاصيلها وسعوا لذلك من خلال الإعجاز العلمي والرقمي لعدد الركعات والسجدات، ومنهم من استنبط هيئات الصلاة من آيات متفرقة هنا وهناك وربطها بطريقة ذكية وماكرة للخروج بهيئة مشابهة للهيئة السائدة.

لكن السؤال الخطير : لماذا لم يرصد الله تعالى لنا الصلاة بكل تفاصيلها وبوضوح في آية واحدة طويلة ؟ انظر مثلاً إلى الوضوء (يا أيها الذين امنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق.....) الآية واضحة بكل تفاصيلها فلماذا لا نجد تفاصيل الصلاة في آية أو آيتين؟

علماء السلف قالوا إن ذلك لا يصلح لأن الصلاة هيئات حركية وتحتاج إلى رؤية عملية وليس إلى شرح نظري، وهذا برأيي كلام متهافت، فمن السهل وصف هيئات الصلاة العامة فهي ليست بذلك التعقيد، إذ لو كان الامر كذلك لترك الله تعالى أيضاً هيئة الوضوء بدون شرح ولأمرنا بالوضوء فقط دون تفصيل.

وهناك من قال إن هذا دليل على أنه لا توجد صلاة حركية نهائياً ولذلك لم يوثقها الله في كتابه، وأنا لست هنا أريد نقاش وجود الصلاة الحركية من عدمه، فهذه مطروحة في مواضع أخرى من الكتاب، لكن سؤالي الدقيق هو: لماذا لم يخبرنا الله بشكل قاطع وواضح أمر الصلاة الحركية بمعنى إن كانت موجودة فعلاً ونحن

ملزمون بها فلماذا لم يوثقها في كتابه، وإن لم تكن موجودة وملزمة فلماذا لا يخبرنا بشكل واضح ويأمرنا أن لا نصلي الصلاة الحركية؟ وإن كانت اختيارية فلماذا لم يقل لنا أنها اختيارية وطوعية فمن شاء صلى ومن شاء لم يصل؟ وإن كانت الصلاة لتقريبنا إلى الله تعالى وهي لفائدة المؤمن وليست لله فلماذا لم يقل لنا ربنا إن هذه الصلاة لكم لتقربكم مني فمن شاء صلاها واقترب مني ومن شاء تركها وابتعد عني؟

الأسئلة كثيرة جداً هنا لكنني لست بصدد مناقشة الصلاة نفسها بقدر ما أنني أتساءل عن النص القرآني وتعامله "الغامض" مع هذه الأمور.

مثال (3)

وعلى الذين يطيقونه:

اختلف الأولون والآخرون في معنى الكلمة ومقتضياتها فمنهم من قال إن الصوم اختيار وأن يطيقونه تعني يستطيعون الصيام لكنهم لا يريدون ذلك فبإمكانهم الافتداء ومنهم من قال إنّ يطيقونه تعني المجاهدة الشديدة للنفس فهي تشمل من شق عليهم الصيام لأسباب مثل كبر السن والعمل الميداني في الجو الحار...الخ.

ألم يكن الله تعالى يعلم أننا سنختلف جداً في هذا؟ فلماذا لم يرحنا من البداية ويختر لنا كلمة أسهل؟ لماذا لم يقل مثلاً (وعلى الذين يجدون مشقة شديدة في الصيام فدية طعام مسكين) أو (وعلى من لا يرغبون الصيام فدية طعام مسكين)؟

لاحظوا أنني أنا الانسان البسيط وضعت جمل واضحة قاطعة تنهي الخلاف، لكن النص القرآني لم يحل هذا الخلاف. فهل القرآن فعلا غامض؟

لنواصل الأمثلة

مثال (4)

الخمر:

اختلف فيها الناس أيضاً، فمنهم من قال إن الاجتناب الوارد بشأن الخمر هو نوع من التحريم ومنهم من قال إن الاجتناب هو

دعوة لتجنب الرجس الـذي قـد ينجم عن الخمـر، والخلاف قـديم حتى أنه ورد عن أبي حنيفة أنه قال لو ألقوني في دجلـة مـا قلت إنّها حرام.

وسبب هذا كله هي الصياغة التي وردت فيها فلماذا لم يقل لنـا ربنـا (حـرمت عليكم الخمـر) إن كـانت حرامـاً أو فليقـل لنـا إنهـا ليست حراماً ولكنها قد تؤدي برجسها (أي في حالـة السُـكر) إلى حرام وانتهت القضية؟

مثال (5)

اللباس:

والخلاف فيه متباين لدرجـة أن هنـاك من يحـرّم كشـف الوجـه وهناك من يجيز كشـف البطن والأفخـاذ، فلمـاذا الخلاف لـو كـان هناك نص واضح قاطع؟

سيقول قائل إنّ الله تعـالى قـد تـرك مسـألة اللبـاس مفتوحـة مراعاة لظروف الناس وثقافـاتهم المختلفـة فمـا يعتـبر احتشـاماً في ميـامي الامريكيـة يعتـبر قمـة الابتـذال والفحش في القصـيم السعودية، وهذا كلام منطقي ولكن سؤالي: لماذا لم يخبرنـا اللـه تعالى بذلك فيقول لنا إن اللباس متروك لأعرافكم وثقافاتكم؟

ناهيـك طبعـاً عن الخلاف في فهم معـنى الجلابيب والخُمـر في آيـات اللبـاس، ومحليـة الخطـاب الواضـحة (يـا أيهـا النـبي قـل لأزواجك...)، و (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصـارهن...) فلمـاذا صيغة (قـل ل...) الـتي وردت في الآيـتين، ولمـاذا لا يكـون هنـاك نهي مباشر؟

في آيـة تحـريم الميتـة قـال تعـالى (حـرمت عليكم الميتـة والدم.....) ولم يقل (يا أيها النبي قل للمؤمنين إن الميتة محرمة عليهم....)

وفي آيـة محرمـات النكـاح قـال تعـالى (حـرمت عليكم أمهاتكم......) ولم يقل (قل للمؤمنين حرمت عليكم أمهاتكم)

صيغة الآيات بهذا الشكل دفعت الناس إلى الاجتهـاد والاختلاف فظل موضوع اللباس معلقاً غير واضح والسـبب هـو كمـا أسـلفنا

غياب آيات قاطعة تحدد هيئة اللبـاس أو على الأقـل لم تؤكـد أنـه متروك للعادات والتقاليد، فلا نجد هذه ولا تلك.

مثال (6)

قضية خلق آدم:

هل تم ذلك لحظياً (الخلق الذكي) أم أن آدم تطور عــبر ملايين السنين (نظريـة التطـور) ليصـل إلى هـذه الهيئـة؟ وهـل هـو أول الخلق أم أن هناك من سبقه من البشر؟

القرآن جاء بصياغات يكتنفهـا الغمـوض فتركنـا في حيص بيص، فإن كان الله تعالى قد خلقه في يوم أو سـاعة واحـدة فلمـاذا لم يوضح لنا ذلك، وإن كان الخلق تطورياً عبر ملايين السنين فهل 3 أو 4 آيات مثل (وقـد خلقكم أطـواراً) و (واللـه أنبتكم من الأرض نباتاً) لوحدها كافية لتكون دليلاً قاطعاً على تطور الخلق؟

ألا ترى أن الآيات هنـا قابلـة للتأويـل بـأكثر من فهم، فـالأطوار ممكن أن نقول إنها مراحل تطـور الجـنين في بطن أمـه، ويمكن للإنبـات من الأرض أن يكـون أن أصـل مـادة خلـق الإنسـان من الأرض وليس أن الانسان أصله نبات، ويظل الامر معلقاً.

وللتنويه فأنا لا أبحث هنـا عن إجابـات للأسـئلة المطروحـة في الأمثلـة السـابقة وإنمـا أضـرب أمثلـة على مـا يمكن أن نسـميه (غموض القرآن).

مثال (7)

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول:

يضرب التراثيون بسيف هـذه الآيـة باعتبارهـا دليلاً قاطعـاً على وجوب التعبد بالسنة بصفتها المصدر الثاني للتشـريع، بينمـا يـرى التنويريـون المعاصـرون أن طاعـة الرسـول هي طاعـة للرسـالة نفسها وبعضهم يرى أنها طاعة للرسول في العبادات العمليــة أي في تطبيق الرسول الكريم لمجمل العبادات في القرآن وآخــرون يرون أن كلمـة رسـول هي نفسـها الرسـالة، فطالمـا أن الكلمـة نفسها عميقة وخلافية لهذه الدرجة فلماذا لم يرحمنـا ربنـا بآيـات واضحة وقاطعة لا تدع مجالاً للخلاف وتنوع الأفهام؟

لماذا لم يقل مثلاً (وأطيعوا الله وأطيعـوا الرسـول في تطبيقـه للعبادات فقط)؟ أو أطيعـوا اللـه وأطيعـوا الرسـول مـا دام فيكم فإن مات فليس لكم سوى كتاب الله.

أليس هذا حلّا للمشكلة؟

أنا هنا – أستغفر اللـه – لا أنتقـد الخطـاب القـرآني بتاتـاً وإنمـا وضعت نفسي مكان السائل وأفكر الآن بصوت مسموع.

عموماً الأمثلة كثيرة جداً، وسرد بعضها يكفي لنتفق أن القـرآن فيه غموض وهو فعلاً حمّال أوجـه ولـو أراد اللـه تعـالى أن يكـون النص قاطعـاً واضـحا لفعـل، لكن لحكمـة أرادهـا فقـد جـاء بهـذه الصيغة.

فما هي الحكمة الإلهية من وراء ذلك يا ترى؟

أنـا أرى أن فضفاضـية النص القـرآني تعطيـه مجـالاً للتوسـع والامتداد وتعددية الدلالة بما يتناسب مع ظروف الناس وأفهـامهم ولو كان النص قاطعاً محكماً واضـحاً ومباشـراً لكـان نصـاً بشـرياً متوقفاً، فالقرآن نهر جار وليس بركـة راكـدة، والنهـر من صـفاته التجدد بما يسمح للخائض أن ينهل منـه مـتى أراد، وهـذا التفاعـل والتماس الناضج مع النص ما كـان ليتم لـو أن النص كـان قاطعـاً وواضحاً ومباشراً.

وحـتى نفهم ذلـك أكـثر فلننظـر مثلاً إلى الغيبـة، ذلـك الـداء الاجتماعي الخطير، فلو بحثنا عن دليل مباشـر على تحريمهـا في القرآن لمـا وجـدنا، لكن النص اكتفى بإيرادهـا بصـورة بشـعة في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجـرات: 12]

ولم ترد بصـفة تحـريم قاطعـة مثـل (حـرمت عليكم الغيبـة...) مثلاً، وهذا من المرونة في التعامل مع هذه الآفات الاجتماعية فلو أن الله تعالى حرم الغيبة بعينها وبشكل قـاطع لصـار لزامـاً علينـا أن نرى الظلم ونسـكت وأن نـرى النصـابين والمحتـالين يجولـون

في أسواقنا يسرقون المال وعلى فضائياتنا يسرقون العقول ونحن صامتون لا ننبس ببنت شفة بحجة أن الغيبة حرام. الغيبة ليست حرام، فالسكوت هنا هو الجريمة.

والأمر نفسه ينطبق على الكذب، ولو سألنا مليون مسلم هل الكذب حرام؟ لأجابوا بدون تردد: نعم.

لكن ما الدليل على أنه حرام على إطلاقه؟ وإن كان حراماً فلماذا لا نجد آية صريحة واحدة تحرمه؟

لا بد أولاً للإجابة عن السؤال أن نتفق ونتصالح على فهم مشترك للمصطلح (كذب) فما معنى الكذب في الواقع وفي القرآن؟

في الواقع إن قال لك أحدهم إنه ذاهب إلى السينما لكنه كان ذاهباً لحضور مباراة فإننا نقول إن هذا الشخص قد كذب، حتى لو أن هذه المعلومة لم تؤذنا في شيء، وحتى لو كان دافعه التخلص من ثقل دم السائل، أو كان دافعاً نبيلاً- مثل حضور مباراة خيرية لدعم مرضى السرطان.

فهل هذا هو الكذب المقصود في قوله تعالى (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)، أو في قوله تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)، أو (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون)؟

من الواضح أن الآيات تتحدث عن كذب أعظم بكثير من ذلك الكذب الاجتماعي البسيط، ولو تتبعنا الآيات التي وردت فيها لفظة الكذب لوجدنا أن معظمها يقترن بتكذيب الآيات بنسبة كبيرة جداً يليها تكذيب الرسل والافتراء على الله بالكذب لنخلص إلى نتيجة بسيطة هي أن الكذب في القرآن معناه إنكار الحق فيما يخص الرسالة السماوية وادعاء غيره.

فقوله تعالى –مثلاً- (انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبيناً) تتحدث عن فئة من الناس علموا الحق ولكنهم نسبوا إلى الله ما هو ليس مراده، مثل رجال الدين الذين يدافعون عن

مكتسباتهم بكل استبسال وقوة مع أن بعضهم يدرك أن ما يدافع عنه هو باطل.

هذا هو الكذب.

إذن الكذب الاجتماعي مختلف عن الكذب الديني من ناحية الدرجة حتى وإن تشابها من ناحية التعريف العام، ونظراً لأن التعريف العام للكذب واسع جداً فقد حرص النص القرآني على عدم تحريم الكذب على إطلاقه، تاركاً هذا الكذب الاجتماعي لظروف الناس وتعاملاتهم اليومية، فهناك من يضطر لأن يكذب على زوج وزوجة ليصلح بينهما، وهناك من سيجبر خاطر جاره فيقول له إن ابنه ذكي، وهو يعلم أنه بليد جداً، وهناك من يضطر لأن يكذب لأجل إنقاذ انسان من الظلم، وهناك من يضطر إلى الكذب ليتجنب ثقل دم السائل وامتهانه لخصوصيته، وكذلك فالأبناء وفي رحلتهم المشتركة مع الآباء سيصطدمون بكم هائل من المعوقات والاعتراضات الأبوية ما يضطرهم إلى الكذب لتسير حياتهم بشكل طبيعي، فاختلاف الثقافة والمعرفة والوعي بين الجيلين يُنتج فجوة لا يمكن ردمها إلا ببعض الكذب والمجاملة، والأمثلة لا تُعد ولا تُحصى، حتى أن الكذب لا يكون بالقول فقط وإنما أحياناً بالإشارة والإيحاء وحتى السكوت، ولو أن الله حرم الكذب الاجتماعي بشكل قاطع في القران الكريم لضيق واسعاً جداً.

2. القضاء والقدر في القرآن

في عام 1993 كان منتخب زامبيا يستعد للسفر إلى السنغال للقاء المنتخب السنغالي في التصفيات المؤهلة إلى كأس العالم 1994. أحد لاعبي المنتخب وهو كالوشا بواليا كان مع تشكيلة المنتخب لكنه كان يلعب لفريق آيندهوفن الهولندي فلم يستطع الانضمام إلى أعضاء المنتخب للسفر معهم في الطائرة، وبدلاً من ذلك قرر السفر من هولندا مباشرة إلى السنغال، وهكذا سافر المنتخب الزامبي بدون كالوشا لكن يشاء القدر أن تسقط الطائرة ويموت الجميع، ما عدا كالوشا "المحظوظ" طبعاً.

وانصبت معظم التعليقات في اتجاه واحد: أن هذا تدبير الله تعالى ولطفه وأن الله تعالى لم يكتب لكالوشا الموت. فهل ما جرى كان بتدبير إلهي؟ وهل نجا كالوشا بمساعدة إلهية مباشرة- إن جاز السؤال بهذه الطريقة؟

الحقيقة إن هذا الأمر معقد للفهم إن آمنا بقاعدة" أن كل ما يجري في هذا الكون هو من تدبير الله تعالى المباشر" وسهل الفهم إن آمنا بقاعدة "أن كل ما يجري في هذا الكون هو من تدبير الله تعالى الواسع الكلي" بمعنى أن الله تعالى خلق الكون والحياة والبشر، ووضع القوانين والسنن تاركاً البشر يتفاعلون في هذه الحياة ضمن هذه القوانين الربانية.

ولو كنا من الفريق الأول الذي يؤمن أن كل ما يجري هو من تدبير الله تعالى المباشر، فهذا يحتم علينا أن نفترض أن الله أراد للمنتخب الزامبي وكتب عليه –لحكمة ما لا نعلمها- أن يقضي نحبه في حادث تحطم طائرة، وبناء عليه فإن الله تعالى هو من عطّل هذه الطائرة، لكنه لحكمة خفية – لا نعلمها أيضاً- اختار كالوشا وقرر أن يستثنيه من هذا المصير. ونحن لا نختلف على أن الأمور تجري ضمن أسباب، فهذه سُنّة الله تعالى في الكون،

ولكن لــو مضــينا في اقتناعنــا بالقاعــدة الأولى فهــذا يعــني ان الأسباب التي أدت إلى تعطل الطـائرة تمت بتـدبير إلهي مباشـر، فالطـائرات لا تسـقط هكـذا بـدون سـبب، لـذلك ينبغي أن يكـون هنـاك سـبب تقـني لسـقوط الطـائرة، ولـو افترضـنا أن الطـائرة سـقطت مثلاً بسـبب نقص الوقـود فهـذا يعـني أن هنـاك موظفـاً مهملاً نسي تعبئة خزان وقود الطـائرة بمـا يكفي للرحلـة، وفـات المشرف عليه أن يتحقق من ذلك، وهذا يترتب عليـه أن نفـترض أن اللـه تعـالى هـو من جعـل الموظـف المهمـل يسـهو عن أداء عمله، وحتى يسهو الموظـف عن أداء عملـه فهنـاك سلسـلة من الظروف الاجتماعية والنفسية تقف وراء ذلك، سيكون الله تعالى قد دبّرها لتنفيذ مشروع تحطم الطائرة مثل وجود مشاكل وتــوتر بينه وبين أهله في البيت، وأسباب التوتر العائلي هذه سـتعود إلى دائرة أكبر من الظروف الجيوسياسية التي تحيط بالمنطقـة الـتي يعيش فيها الموظف، وسببها الدولة وخلافها مع الدولـة المجـاورة مـا نجم عنـه تضـخم اقتصـادي أدى إلى فقـر وبطالـة ونشـوب توترات عائلية واجتماعية، كـان من بينهـا التـوتر العـائلي في بيت الموظف المهمل الذي أدى إهماله إلى سقوط الطــائرة لكي يتم القــدر المكتــوب...الخ. حلقــة لا تنتهي من البحث عن الســببيات والــتي قــد تكــون منطقيــة بحــد ذاتهــا، لكن اللامنطقي هــو في افتراض وجود يد الله تعالى المباشرة فيها، فهـل يعقـل أن يسـيّر الله تعالى كل هذه الظروف لأجل أن يقتل منتخب زامبيا في ليلة واحدة، وينقذ كالوشا من الموت، وما هي الحكمة من ذلك؟

هذا يشبه ظاهرة أثر الفراشة المعروفة، فنحن نلاحـظ هنـا في المثـال السـابق أنـه في حـال افترضـنا التـدبير الإلهي المباشـر لواقعة مقتـل المنتخب الزامـبي فهنـاك ترتيبـات كثـيرة ينبغي أن تسبق الواقعة لكي تقع ضمن أسباب فيزيائية وتقنية، فالكون كله يجري ضمن أسباب ومسببات إلا إن كنا من ضمن مجموعة ثالثـة لا تؤمن بالأسباب أصلاً، وترى أن قدر الله تعـالى إن وقـع فإنـه لا يحتاج إلى أسباب، وهذه المجموعة الثالثة تشكل نسبة كبيرة من الناس، فعندما يتعلق الأمر بالقدر فلا تسأل عن السبب- هذه هي

القاعـدة الشـعبية العامـة، ولـذلك لـو مـات أحـدهم وكـان شـاباً وسألت باستغراب عن سبب موته، فسـيكون الـرد: انتهى عمـره وربنا كتب عليه الموت، وهـذه هي الإجابـة المريحـة الـتي تدغـدغ هرمونـات وغـدد المـؤمن، لكن الإجابـة المريحـة لا تشـفي غليـل الباحث الظامئ عن الحقيقـة، والحقيقـة أن المـوت ظـاهرة تقـع ضمن أسباب طبية وعلمية، ولا توجد حالة وفاة في العالم وقعت بدون وجود سبب طبي وعلمي لها، بمعـنى أن الإنسـان لا يمـوت وهـو في صـحة وعافيـة، ولا بـد من وجـود خلـل مـا، إن لم يكن بسبب السن والضعف وموت الخلايا فإنه يكون نتيجة خلل معين، تماماً مثل انهيار مبنى، فالمبنى لا يسـقط هكـذا من تلقـاء نفسـه وإنما يتعرض للتصدع التدريجي نتيجـة الأحمـال الزائـدة والتقـادم وتآكل الأساسـات، أو انهيـار أرضـي نـاجم عن زلـزال أو انفجـار، وطبعاً سيجد المعارضون لهذا الطرح الكثير من الأمثلة على بشر ماتوا بشكل مفاجئ وهم في صـحة وعافيـة، بينمـا فلان المـدخن ابن التسعين عاماً ما يزال حياً، وهذه مغالطة من المغالطات فلو بحثت في تفاصيل من مـات وهـو (في صـحة وعافيـة) سـتجد أن خللاً جينياً معيناً أدى به إلى الوفاة، حتى لو جاءك الطبيب يخـبرك أن وفاته تمت بدون سبب واضح، فلا شـك أن هنـاك سـبباً علميـاً لكنه خفي على الطـبيب، وأمـا فلان المـدخن ابن التسـعين عامـاً فما يزال حياً لأن هناك في تركيبة جسده من جينـات مـا سـاعده على احتمال أذى التدخين لهذه الفترة الطويلة ولا يجـوز القيـاس عليه، بل ينبغي القياس على الأرقـام والإحصـائيات العامـة وليس على الحـالات الفرديـة الشـاذة، فهـذه من المبـاديء العقليـة الضرورية.

التقرير الرسمي "Levels and Trends in Child Mortality 2024" الصادر عن مجموعة الأمم المتحدة المشتركة لتقدير وفيات الأطفال (UN IGME)[1] مثلاً يقول إن الطفل المولود في أفريقيا جنوب الصحراء يكون، في المتوسط، أكثر عرضة للوفاة قبل بلوغه سن الخامسة بمقدار 18 مرة

[1] https://data.unicef.org/resources/levels-and-trends-in-child-mortality-2024/

مقارنةً بطفل مولود في منطقة أستراليا ونيوزيلندا، وأشار التقرير نفسه أن معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة في أفريقيا جنوب الصحراء عام 2023 بلغ نحو 44 وفاة لكل 1000 مولود حي، بينما بلغ معدل وفيات الأطفال الرضع في أفريقيا ككل 47 لكل 1000 مولود حي عام 2021.

فهـل كتب اللـه تعـالى على أطفـال أفريقيـا المـوت دون سـن الخامسـة بهـذا العـدد؟ إن كـان قـد كتب عليهم المـوت في هـذه السن المبكرة وفجع أمهاتهم فما الحكمة من ذلك؟ ولماذا تجـاوز عن أوروبا وترك أمهات الأطفال هناك يسعدن بأولادهن؟

ولو افترضنا أن الله تعالى كتب عليهم المـوت فهـذا يعـني أنـه كتب عليهم مسـببات هـذا المـوت وهي المـرض والفقـر وانعـدام البيئة الصحية، وبما أن هذه العوامل ناجمـة عن مسـببات جذريـة وهي الجهـل والتخلـف والفسـاد فهـذا يعـني أن اللـه تعـالى لكي يحقق إرادته بوفاة ملايين الأطفال سنوياً في أفريقيـا فقـد سـلط عليهم الجهل والتخلف. فهل هذا السيناريو معقول؟

حينهـــا ســـيرد عليـــك المـــؤمن بـــالقول إن اللـــه تعـــالى لم يفرض/يكتب عليهم الموت لكنه يعلم فقط أنهم سـيموتون. ونـرد عليه: إذن الموت في هـذه السـن ليس حتميـاً وليس مكتوبـاً من الله تعالى؟ فيرد بل مكتوب ومفـروض من اللـه بـالوقت والهيئـة وكله يسير بقدر الله تعالى. وعنـدما تطالبـه بالشـرح أكـثر لإزالـة هـذا التنـاقض الصـريح يعجـز تمامـاً، ويكتفي بترديـد مصـطلحات غامضة واستخدام كلمات مُقعّرة.

ولو سألته عن فُلان الـذي مـات دهسـاً بسـيارة هـل كتب اللـه تعالى عليه هـذا المصـير؟ سـيرد عليـك: نعم. إذن ينبغي علينـا ألا نُحاسب من دهسه طالمـا أنـه ينفـذ إرادة اللـه المباشـرة وقـدره المحتوم، أليس كـذلك؟ فـيرد عليـك: بـل ينبغي محاسـبته، فاللـه تعالى لم يُجـبر السـائق أن يـدهس فلانـاً لكنـه يعلم منـذ الأزل أن فلانا سيموت دهساً.

إذن المسألة متعلقة بالعلم الأزلي لله سبحانه وتعالى وليست بالإجبار، والموت بهذه الطريقة ليس مكتوباً، أليس كذلك؟ لكنه سيعاود الهجوم ويقول لك: لا، فلو لم يمت دهساً كان سيموت بطريقة ثانية لأنه مكتوب عليه أن يموت في هذا اليوم وهذه الساعة، ويسوق لك واقعة رجل سقط من الطابق الرابع فوقع على كومة كبيرة من الرمل ولم يتأذّ، وعندما نهض لينفض الرمال عن ملابسه تلقى رصاصة بالخطأ صدرت عن حفل عرس بالجوار. وهو يسوق هذا ليقول لك إن الإنسان حتى لو نجا من الموت بطريقة معينة فسيموت في اللحظة نفسها بطريقة أخرى لأن الله كتب عليه الموت في تلك الساعة على مبدأ (ما أصابك ما كان ليخطئك)، وطبعاً اختيار أمثلة لحالات نادرة حدث فيها نجاة من الموت ثم الموت في الموقع نفسه لسبب آخر هي مغالطة معروفة ولا يُقاس عليها، فهناك مثلاً آلاف الحالات لأشخاص ينجون من الموت، وحينها طبعاً سيرد عليك بالقول: نعم، هذا لم يمت لأن عمره لم ينتهِ، بمعنى أنه ميت لا محالة لكن السبب قد يختلف اتباعاً لقاعدة (تعددت الأسباب والموت واحد)، وهذه القاعدة صحيحة بشكل عام فالموت حتمي ومهما حاول الإنسان الهروب منه فإنه واقع فيه بلا شك في نهاية المطاف، فالإنسان عندما خلقه الله تعالى وضع فيه مُقدّرات حيوية تكفيه لمئة سنة مثلاً، وربما تتحقق بشكلها الطبيعي المُقدّر لها أو تتحقق بشكل متسارع بسبب الإهمال الزائد، وطبعاً التوقيت لا ينطبق على الجميع في الوقت نفسه، فالجينات والهرمونات والسلوكيات الصحية والبيئات النفسية المختلفة تلعب دوراً في تسريع أو إبطاء هذه الوتيرة، وفي هذه الحالة الطبيعية ومع سلوك المسلك الصحي الجسدي والنفسي السليم يمكننا القول إن الموت مُقدر تماماً مثل العمر الافتراضي للمركبات أو الأجهزة، أما في حالة تداخل الظروف الأخرى مثل السلوكيات المتهورة والإهمال الصحي والانتحار –مثلاً- فهذا فيه تعجيل للموت المُقدّر، ولو كان الموت بجميع ظروفه وحالاته مكتوباً ومفروضاً بوقت وهيئة معينة لكان المفروض أن لا نتقيه،

طالما هو مكتوب، فإن كان مكتوباً عليك أن تموت دهساً بتاريخ ووقت معين، فلماذا الحذر من المركبات؟ هل تهرب من قدر الله؟

الأمر نفسه ينطبق على الرزق والزواج والعمل وكافة أمور الحياة، فالقدر شامل لها بجملتها أي أنها مُقدّرة من الله تعالى الذي جعل الرزق وهيأه لكل البشر بما يكفيهم، لكن تنازعهم وتنافسهم غير الشريف عليه أدى إلى توزيعه بشكل غير عادل، نعم هناك حظ، ولا بد من الاعتراف بهذا، فهناك تباين حتى عند ولادة الإنسان عندما يجد نفسه فقيراً مُعدماً بينما صديقه ورث الملايين من أبيه، فهذا لا ذنب للإنسان فيه، ولذا فقد بشر الله تعالى الصابرين بمثوبة عظيمة، إذ تقتضي إرادة الله تعالى وجود هذا التباين لأن هذه الفروقات هي التي تؤدي إلى فاعلية الحياة وقيام التنافس وإبراز المواهب، ولو تساوى الناس لهلكوا، وهذا ينطبق على الأمم والأفراد فعلى مستوى الأمم تجد بعض الدول تعاني من الجفاف والقحط وتُصارع بكل طاقتها للحصول على الماء، بينما تجري الأنهار العذبة في مناطق أخرى، فهذه تكسوها الخضرة النضرة، وتلك تعاني من قسوة المناخ وقلة المصادر، وعلى مستوى الأفراد ستجد من همُّه في الحياة توفير رغيف الخبز لأطفاله الجوعى في بيئات تنعدم فيها فرص العمل والأمن والكرامة، وآخر همُّه جمع المزيد من الأموال لشراء يخت جديد أو طائرة خاصة أكبر حجماً وأكثر رفاهية، وهذه في النهاية هي إرادة الله تعالى.

فحصولك على الرزق عندما تبذل أي مجهود قائم على أسباب علمية وعملية صحيحة لكن القدر الأكبر الذي يحيط بهذا الرزق هو بيد الله لقوله تعالى: " ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 18]، فالله تعالى هو من أنزل الماء من السماء وهو القادر على الذهاب به، بمعنى أنه هو من يملك مقاليد المطر بكيفية لا نعلمها، والاقتصار على نسبة ذلك إلى الأسباب العلمية المعروفة من رياح وضغط جوي وغيوم وخلافه لا يعطي الموضوع حقه، ولا

شك أن ما يجري في هذا الكون إنما يجري ضمن أسباب فيزيائية معروفة والمطر لا يخالف السنن، لكن مالك هـذه السـنن والـذي برمجها منذ بدء الخليقة هو اللـه سـبحانه وتعـالى، ولـك أن تنظـر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيـلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

ومعنى المقاليد هو المفاتيح، فالله تعالى هو المهيمن على هـذا الكون الذي يُـدار بالسـنن، فمفـاتيح السـموات والأرض بيـد اللـه تعالى، ودائماً نلاحظ في كتاب الله تعالى خطابات الرزق والنصـر موجهـة إلى الجماعـة لا إلى الفـرد (قـل أرأيتم إن أصـبح مـاؤكم غـوراً...)، (ومـا جعلـه اللـه إلا بشـرى لكم..)، (أمن هـذا الـذي يرزقكم إن امسك رزقه..)، فمفاتيح الـرزق والنصـر والنجـاح بيـد الله تعالى بكيفية لا نعلمها، فهي تجري مطواعـة للسـنن الكونيـة على مسـتوى الجماعـات، وللأفـراد أن يجـدوا ويجتهـدوا ويأخـذوا بالأسباب لينالوا من هذا الرزق والنصر والنجاح.

3. هل الله وحده من يحكم الكون؟

عائدية الضمائر في القـران موضـوع خطـير جـداً في العقيـدة، فالتنوع في استخدام الضمائر (أنا، نحن) في جنب الله تعالى في القــرآن أوقــع بعض المتــدبرين المعاصــرين في مغالطــة لغويــة ودلالية، وهناك من المعاصرين من خرج بنتيجة أن لله شركاء في حكم هذا الكون وخلقـه، وهـؤلاء الشـركاء صـناع قـرار وخـالقون ولهم مشيئة مستقلة في تسيير الخلق والعباد.

وبحسب هؤلاء فإن اللـه تعـالى عنـدما يتحـدث عن ذاتـه فقـط فإنه يستخدم الضمير(أنا)، لكن في حال استخدام (نحن) أو (إنّـا) فهـو يقصـد نفسـه والملائكـة أو الأربـاب، فـإن قـال تعـالى (إنّـا خلقناهم من طين لازب) فهذا يعني – بحسـبهم- أن اللـه اشـترك مع الملائكة في عملية الخلق (مشروع مشترك) وبهذا يكون اللــه تعالى السلطة التشـريعية والملائكـة أو الملأ الأعلى هم السـلطة التنفيذية مثلاً.

هذا طرح معاصر وهناك طبعاً بالمقابل الطرح الآخر التقليــدي والــذي يــرى أن اللــه تعــالى يســتخدم ضــمير (نحن) للتعظيم والتبجيل. فهل هذا أيضاً طرح موفق؟

والحقيقة بعد البحث الطويل بحسب مـا أراهـا أن المـدبر لأمـر هذا الكون هو الله تعالى فقط، والخالق من العـدم (الفـاطر) هـو اللـه تعـالى فقـط، ولا يشـترك معـه في هـذا أحـد. والتحـول من ضمير المفرد إلى الجمع في الآية نفسها هو من خواص الخطــاب القرآني الكريم، ولو نظرت في كامل النص القــرآني لوجــدت أن الامر بالخشية أو التقـوى أو الرهبـة وابتغـاء وجـه اللـه ومرضـاته يأتي دائماً بصيغة المفرد، ولا يرد نهائيا بصيغة الجمـع، لمـاذا؟ لأن الامر يتعلق بالتوحيد فاقتضى الخطاب الإفراد، وفي قوله تعــالى:

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13]، فمن يملك أن يقول هذا الكلام (ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها) سوى ملك الملوك؟ ثم يقول في الآية نفسها (لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) بضمير المفرد، فهو الله تعالى في الحالتين. وانظر أيضاً قوله تعالى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 156]، فالله تعالى هو الذي يصيب بالعذاب والرحمة، وهذا الكون من آياته جل جلاله، وقوله تعالى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 156]، هل يرقى أحد لأن يكتب مع الله تعالى أن الأرض يرثها العباد الصالحون؟ لاحظ هنا: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ". الضمير (نا) خاص بالله تعالى والدليل على ذلك تتمة الآية (لا إله إلا أنا فاعبدون) فالله تعالى لم يقل ....لا إله إلا نحن. ولاحظ قوله تعالى:

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [إبراهيم: 14]،

وقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة: 44]

وقوله تعالى: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ [الأعراف: 145]،

وقوله تعالى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 156]، من هو الذي قال (قال عذابي أصـيب بـه من أشـاء)؟ هـو اللـه تعـالى وأوردهـا بأسـلوب الغـائب، فهنـا أسلوب التفات بارع، وانظر الآيات السابقة: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آيَـةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَـبِيلًا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ [الأعراف: 146].

ملاحظة مهمة: في كل موضع يرد فيه الضمير (نا) في القــرآن فلا بد أن يسبقه أو يأتي بعده مـا يـدل على الإفـراد للـه سـبحانه وتعالى. مثلا: " لَهُمْ مِنْ فَـوْقِهِمْ ظُلَـلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَـلٌ ذَلِـكَ يُخَـوِّفُ اللَّهُ بِـهِ عِبَـادَهُ يَـا عِبَـادِ فَـاتَّقُونِ" يخـوف اللـه بـه عباده......يا عبادي فاتقون، وكذلك: "فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ويَدْعُونَنا رَغَباً ورَهَبــــــــاً وكــــــــانُوا لَنــــــــا خاشِــــــــعينَ" (90) فاستجبنا...ووهبنا....ويدعوننا...وكـانوا لنـا خاشـعين... كلهـا تعـود على الله تعالى، وانظر الآيـة الـتي تسـبقها: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَـادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَـذَرْنِي فَـرْدًا وَأَنْتَ خَيْـرُ الْـوَارِثِينَ [الأنبيـاء: 89]. وانظـر قوله تعالى "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُـونُ"، هل يعقل أن يكون هذا الكلام صـادراً عن مجموعـة تشـارك اللـه تعالى في حكمه وتقول للشيء كن فيكون؟ لا طبعـاً، والـدليل أن الله هو المتكلم هنا وانظـر قولـه تعـالى في موضـع آخـر: بَـدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْـرًا فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [البقرة: 117]، وكذلك: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82].

وهنا نأتي إلى دليل قوي جداً أن (نا) هو ضـمير عائـد على اللـه تعالى وحده يقول تعـالى: "ثم قلنـا للملائكـة اسـجدوا لآدم" فمن الذي قال للملائكة هنا؟ فلو كان كما يقولون إن (نـا) تشـمل اللـه والملائكة فكان الأنسب إذن أن يقـول (ثم قلنـا لبعض الملائكـة). دليل آخر: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"، فعندما بدأ الله تعــالى أول خلق لم يكن هناك ملائكة، ومع هذا قال تعالى... نطوي... بدأنا... نعيده.. إنّا... كنا... فاعلين. دليـل آخـر: (أم خلقنـا الملائكـة إناثـاً) المتكلم هنا بلا شك هو اللـه وحـده ومـع هـذا أورد ضـمير الجمـع (نا)، فمن هم الشركاء الذين خلقوا الملائكة مع الله تعـالى؟ هـل هناك ملائكة خلقوا الملائكة مع الله تعـالى؟ دليـل آخـر: أَفَعَيِينَـا بِـالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَـلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْـقٍ جَدِيـدٍ [ق: 15]، فلم يكن مع الله أحد عند الخلق الأول ومع هذا استخدم ضمير الجمع، إلا إن كنت مقتنعاً أن الملائكة تشـترك أيضـاً مـع اللـه تعـالى في الأزلية، وهذا محال.

وعليه فلا يمكن لله تعالى أن يشرك في حكمه أحـداً، ولكن إن حضرت القدرة الإلهيـة ضـمن وسـائل ووسـائط متعـددة وأفعـال كثيرة فإنّه يرد بصيغة الجمع.

قد يقول قائل: أحياناً نجد الفعـل نفسـه والظـرف نفسـه لكنـه يرد مرة بصيغة الجمـع وأخـرى بصـيغة المفـرد، مثلاً في الحـديث عن مريم يقول الله تعالى: وَالَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَـا فَنَفَخْنَـا فِيهَـا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَـا وَابْنَهَـا آيَـةً لِلْعَـالَمِينَ [الأنبيـاء: 91]، وقارنـه بحديثه تعالى عن آدم: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [الحجر: 29]. نقول إنه في حالة مـريم أرسـل اللـه ملكاً رسولاً، فصار هناك تعدديـة في الفعـل والخطـاب، بينمـا في حالة آدم فالوساطة غائبة والخلق تم بشكل مباشر بدون رسول.

وانظر قوله تعالى: إِنَّا كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ وَمَـا أَمْرُنَـا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [القمر].

التعددية هنا مطلوبـة لأننـا نعـرف اللـه تعـالى من خلال أفعالـه وأسمائه التي يتجلى بها فإذا استخدم ضمير الجمع (نا) فإنه يشير تعـالى إلى تجلياتـه (مقـام الكـثرة والتعـدد) وإن اسـتخدم ضـمير المفرد فانه يشير إلى مقام التوحيد، مثل قولـه تعـالى "انـني أنـا الله"، و"لا تشركوا بي شيئا"، و "لا تشرك باللـه". فمقـام (نـا) أو (نحن) هـو مقـام التجلي أو التعـدد وهـو كـل مقـام غـير مقـام الوحدانية.

وانظر قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52]، فالنداء والتقريب هنا استدعى تجليات ووسائط معينة نجهلها لذلك ورد الخطاب بصيغة الجمع، وهذه التجليات والوسائط هي التي دفعت بالكثير من الباحثين إلى نسبتها إلى الملائكة، وهذا إن جاز فإنما يجوز في تنفيذ المهمات غير السيادية في هذا الكون فالملائكة ما هم إلا عباد لا حول ولا قوة ولا علم لهم إلا ما منحهم الله إياه (لا علم لنا إلا ما علمتنا)

ولاحظ قوله تعالى (ما نُنزّل الملائكة إلّا بالحق) فكيف تعتبرون الملائكة شريكاً في الفعل والله يستخدم ضمير الجمع في وصفه لفعل خلق الملائكة وتنزيلهم؟، وفي قوله تعالى: "ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون" فهل نوح هنا يستغيث بالله والملائكة؟ لا طبعاً، وإنما يستغيث بالله تعالى بتجلياته وأسمائه وصفاته وقدراته، ألا تدعو الله عندما تكون فقيراً فتقول يا كريم وعندما تكون ضعيفا فتقول يا قوي وعندما تكون مكسوراً فتقول يا رحيم؟ هذه التعددية هي المقصودة في ضمير الجمع.

ولك بعد كل هذا أن تنظر في آيات الله تعالى وتتفكر هل يعقل أن يشرك الله تعالى في حكمه أحداً من خلقه، وانظر التالي كمثال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 27]،

و ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16]،

و ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46]،

و ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]،

و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]

فضمير المتكلم سواء كان مفرداً أو جمعاً هو الله تعالى فقط، وعندما تتكلم الملائكة فإن السياق واضح ولا لبس فيه، حتى وإن كان الانتقال الضمائري مفاجئاً بلا تمهيد مثل سورة الصافات، إذ يقول تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا)....ثم بعدها بقليل ...وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) ....وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165)وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(166) لذلك فقد حذرنا الله سبحانه في اخر السورة أن نقع في الشرك وخلط المقامات فقال تعالى: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ).

سؤال وتطبيق عملي: طالما أن مقام (أنا) هو مقام توحيد و(نا) أو (نحن) هو مقام تجليات وتعدد قدرات وأسماء فلماذا قال تعالى: "وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا" الم يقل في السياق نفسه "إنني أنا الله فاعبدني وأقم الصلاة لذكري"؟ فلماذا هنا ضمير جمع وهناك مفرد؟ جواب: وناديناه اقتضت الجمع لأن فيها تعدد وسائل ومنها الصوت والنار وتفعيل الاحاسيس والحواس وما لا علم لنا به، وقوله تعالى "إنني أنا الله فاعبدني" فيها دعوة خالصة فردية للتوحيد.

وبناء على فهم هؤلاء الباحثين فقد افترضوا أن المقصود من (ربك) في قوله تعالى: "وجاء ربك والملك صفاً صفا"، هو ملك من كبار الملائكة أو سيد من أسياد هؤلاء الملائكة مثل جبريل، لذريعة أن الله تعالى لا يجيء، فكيف يجيء الله تعالى بعظمته ليقف في صف واحد مع الملائكة يوم القيامة؟ ولكي يميزوا هؤلاء الأسياد من الملائكة عن بقية الملائكة العاديين فقد أطلقوا عليهم تسمية "الأرباب" مستندين إلى فكرة أن لفظة (الرب)

في القرآن الكريم لا تطلق على الله تعالى فقط وإنما لها معنى عام هو السيد، فالرجل هو رب البيت، والله تعالى هو رب هؤلاء الأرباب جميعاً، واستشهدوا بآيات من سورة يوسف عندما خاطب سيدنا يوسف رفيقه في السجن: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، والحقيقة أن ظاهر هذا الكلام فيه منطق إلى حد ما، لكنه غير دقيق، فكلمة (رب) و(ربك) و(ربهم) إلى آخره تشير في المقام الأول إلى الله تعالى في حال عدم وجود قرينة تصرفها عن ذلك، فالسياق هو الحاكم هنا.

مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، من الواضح أن الحديث هنا عن الله تعالى، والأمر ذاته ينطبق على قوله تعالى: "﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 149]، وغيرها الكثير من الآيات،

فالسياق المحايد العام يشير إلى أن ربك هو الله تعالى، ولا مجال للخلاف في هذا.

وقد أوقعت آية (وجاء ربك والملك صفا صفا) هؤلاء الباحثين في الاعتقاد الضال بأن (الرب) يختلف عن (الله)، إذ –بنظرهم- كيف سيجيئ الله تعالى بعظمته ولا زمكانيته ويقف بكل تواضع مع مخلوقات ضعيفة محدودة القدرات؟ والحقيقة أن كل ذلك ناجم عن فهم لساني قاصر لكتاب الله العظيم،

وبناء على فهمهم هذا فمن خلقنا ومن سيحاسبنا ومن يدير هذا الكون هو مخلوق آخر (الرب/أحد الأرباب) تحت إمرة وإشراف الله تعالى رب الأرباب، خاصة أن هناك آية تقول (فتبارك الله أحسن الخالقين) إذن فإن الله يخلق والملائكة تحته يخلقون لكن خلق الله تعالى أفضل من خلقهم، يعني شيء شبيه بالصناعة الألمانية والصناعة الصينية.

ولنحاول فهم الآية: (وجاء ربك والملك صفاً صفا)؟ فالحركة على الله تعالى مُحال، لأن ما تطلب حركة كان جسماً والجسم لا

يترتب عليه أزلية ومطلق قدرة، فالحركة حاجة والله لا يحتاج، ولذا يكون تقدير الآية وجاء أمر ربك، ففي اللغة العربية يمكن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فيصير معنى الآية وجاء أمر ربك بالحساب والجزاء، أو وجاء قهر ربك، أو وجاء ظهور ربك، لأن معرفة الله تعالى في ذلك اليوم تصبح ظاهرة ولا شك فيها، فيتجلى لخلقه بظهوره وقهره وسلطانه، فبذلك تزول الشبهة، ولك أن تنظر في قوله تعالى: ﴿وجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، بمعنى بروزها وظهورها وهيمنتها على المشهد، وليس سحبها بسلاسل وخلافه كما قال المفسرون، ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغاوِينَ﴾.

وهذا التقدير والحذف لكلمة سلطان أو قهر أو سلطة أو أمر في قوله تعالى (وجاء ربك...) سائد في اللسان القرآني إذ يعتمد كثيراً هذه الظاهرة، ولك أن تنظر في قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها) فالمحذوف والمفهوم ضمناً هو (واسأل أهل القرية التي كنا فيها)، وكذلك (والعير التي أقبلنا فيها) أي اسأل أصحاب القافلة والعير، لكن هذا محذوف لأنه مفهوم ضمناً.

وأسلوب القصر والإيجاز في القران الكريم هو من بلاغة وعظمة هذا الكتاب فلو رجعنا إلى نفس الآية سنجد القصر في ثلاثة مواضع

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها وإنا لصادقون)

واسأل القرية = واسأل أهل القرية

والعير = أصحاب العير

وإنا لصادقون = أي وإنا لصادقون فيما أخبرناك، والإيجاز هنا أبلغ، فلو قالوا (وإنا لصادقون فيما أخبرناك) لظن المستمع أنّهم قد يكونوا كاذبين في غير ذلك، لكن سكوتهم عن ذلك كان أبلغ فهم صادقون في هذا الأمر وغيره.

وخذ مثلاً آخر:

(وأنعام حرمت ظهورها) أليس معنى الآية (وأنعام حُرّم ركوب ظهورها)؟

وفي قوله تعالى (حُرّمت عليكم أمهاتكم) واضح هنا أن المعنى (حرم عليكم نكاح أمهاتكم) لكن القرآن الكريم يوجز دائما بأقصر عبارة ممكنة.

وكذلك في قوله تعالى:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4]، فما عدة (واللائي لم يحضن)؟

هي ثلاثة أشهر لكنها محذوفة لورودها في العبارة السابقة لها، وتقدير الآية واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: 177]، أي نزل العذاب بساحتهم، وقوله تعالى على لسان زوجة سيدنا إبراهيم، ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29]، والمعنى فصكت وجهها وقالت أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟

لا بل إن القرآن يحذف جملاً كاملة ويتركها لفهم القارئ، ففي قوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص].

هناك جزء فهمناه دون أن يخبرنا به القرآن، فعندما سقى موسى للفتاتين عادتا إلى البيت وأخبرتها والدهما بما جرى فما كان منه إلا أن أرسل إحداهما لتناديه كي يكافئه على صنيعه، لكن هذه التفاصيل غير مذكورة، واكتفى القران بأن قال (فسقى لهما ثم تولى إلى الظل...فجاءته احداهما تمشي على استحياء..)

فالنص أنْطَقُ ما يكون إذا لم ينطق، وأبين ما يكون إذا لم يُبنْ.

وبالعودة إلى آية (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)، علينا أن ننتبه إلى الواو التي تفصل بين (ربك) و (الملك)فهي هنا ليست

بالضـرورة واو عطـف وإنمـا واو حـال، بمعـنى وجـاء أمـر ربـك والملائكة حينها يقفون صفاً صفا، أمـا أن نفـترض أن الـرب ليس الله تعالى فهو جريمة بحق القران الكريم، فكيف سـنفهم قولـه: ﴿الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُمْتَـرِينَ﴾ [البقـرة: 147]، هـل معناها أن (الحق من جبريل فلا تكن من الممترين)؟

وكذلك آية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَـابُوا مِنْ بَعْـدِهَا وَآمَنُـوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 153]، فهل يعقــل أن ربك هنا عائدة على جبريل أو أي مخلوق آخر من الملائكة؟

ولك أن تنظر في كامل مساحة النص القرآني لتجد بكل وضوح أن الرب هو الله تعـالى ولا شـيء سـواه إلا في آيـات نـادرة هنـا وهناك يحكمها السياق ولا لبس فيها تأتي فيها كلمة الرب بمعــنى السيد كما أوردنا المثـال في سـورة يوسـف، وكمـا ورد في الآيـة التالية: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْـدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50]

وبشكل عام فإن الفرق بين (الله) و(الرب) في القران الكريم هي أن اللـه هـو الاسـم العلم لخـالق السـماوات والأرض، بينمـا الرب هو المقام أو الوظيفة، فنقول –ولله المثـل الأعلى-: أحمـد قائد عسكري، فأحمد هو الاسم وقائد هو المقام أو الوظيفة.

وحـتى نكـون منصـفين فإننـا لا ننفي دور الملائكـة في الحيـاة الدنيا والآخرة، ولا نـدّعي أن لا وظيفـة لهم، لكن مـا يقومـون بـه ليس فعلاً سيادياً إلهياً كالخلق والرحمة وإقـرار المصـير الأخـروي وإنما يعملون بحسب أمر الله لهم في تسـيير مهـام غـير سـيادية سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة، ففي الدنيا نستشعر من الآيــات حضورهم في معاقبة الأقوام الكافرين مثل عاد وثمود وكله بـأمر اللـه تعـالى، وكـذلك في الآخـرة فهم المسـؤولون عن الإشـراف على النار وتنفيذ العقوبات. ولنا أن ننظر في قوله تعالى: ﴿قِيـلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَـكَ وَأُمَمٌ سَـنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّـهُمْ مِنَّا عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هـود: 48]، فهنـا لا يمنـع الأمر أن المتكلم هنـا هم الملائكـة (اهبـط بسـلام منـا...) وقرينـة

ذلك (قيل يا نوح...) أي قالت الملائكة لنوح، ولكن بصيغة المبـني للمجهول وهذا محتمل ولا نجزم به، ويستحق مزيداً من الدراسـة وهناك الكثير من الأفعال المبنية للمجهول في كتـاب اللـه تعـالى نُرجّح أنها تعود على الملائكة ومنهـا قولـه تعـالى: ﴿وَسِـيقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَـرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَـا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَـا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَـاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْـذِرُونَكُمْ لِقَـاءَ يَـوْمِكُمْ هَـذَا قَـالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَـةُ الْعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71]، فعلى الراجح أن من يسـوق النـاس إلى مصيرهم يوم القيامة سواء الجنة أو النار هم الملائكة، وكذلك في قوله تعـالى: ﴿وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ وَيَـوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعـام: 73]، فـالراجح أن من ينفخ في الصور هو ملك من الملائكة.

وقد يزداد الأمـر تعقيـداً عنـد الحـديث عن إنـزال القـرآن حيث نجده أحيانـاً بصـيغة (أنزلنـا) مثـل قولـه تعـالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَـا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَـائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، وهذا مبني للمعلوم بصيغة الجمع وربمـا تم جمعه لتعدد وسائط الإنزال كما أسلفنا، بينما في قوله تعـالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَـا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُـوا أَوَّلَ كَـافِرٍ بِـهِ وَلَا تَشْـتَرُوا بِآيَـاتِي ثَمَنًـا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَـاتَّقُونِ﴾ [البقـرة: 41] فـوردت بصـيغة المبـني للمعلـوم للمفـرد (أنـزلتُ) وذلـك تـذكيراً بمقـام الوحدانيـة والسـلطة الإلهيـة لأن الأمـر متعلـق بتصـديق وتكـذيب وإيمان وكفر، لكن بشكل عام فالملائكة لها دور في هـذا التنزيـل فسيدنا جبريل ربما لم يكن ناقلاً حرفياً لهذا الكتاب العظيم بقـدر ما كانت مهمته تطويع المـراد الإلهي ليناسـب أفهـام البشـر فهـو الواسـطة بين المـراد الإلهي (المُرسـل) والمُسـتقبِل البشـري (المرسل إليه)، ويظل القرآن في نهاية المطاف كلام الله تعـالى ومُـراده وإن تم تطويـع وتـذليل النص لتتحملـه الأذهـان البشـرية وتفهمه. نقول هذا لأن فكرة أن القـرآن الكـريم كلام اللـه تعـالى قضية تدخل فيها تفاصـيل معقـدة وغيبيـة لا نسـتطيع الجـزم بهـا،

فهو بلا شك مراد الله تعالى لكن هناك على الـراجح من يتوسـط هذا الخطاب (الملائكة وتحديـداً جبريـل) **لنقـل هـذه الرسـالة من مملكة المطلق إلى عالم النسبية** كي يصبح نصـاً قـابلاً للفهم والأخذ والرد والتفاعل.

4. القرآن وداروين

يميل المتنورون بكافة أطيافهم إلى التصـديق بنظريـة التطـور، لأسباب كثيرة أغلبها متعلق بالهويـة الشخصـية والاجتماعيـة لهـذا المتنـور، فمن مسـتلزمات الظهـور بمظهـر المثقـف الـواعي المتمدن يجد المتنور نفسه مُلزماً بالإيمان بهـذه النظريـة، سـواء كان من المطلعين عليها بشكل دقيق أو لا. ونحن هنا لسنا بصـدد رفض نظرية التطـور كليـة أو قبولهـا كليـة ولسـنا بصـدد نقاشـها بتفاصيلها فهذا ما لا طاقة لنا به في هـذا المقـام، وإنمـا نريـد أن نطـرح بعض الجـوانب الـتي تسـمح لنـا بـالوقوف على منهجيـة التفكـير الشـعبي حـول هـذه النظريـة، إذ غالبـاً يميـل المؤمنـون بالنظريـــة إلى الاســتدلال بفكـــرة أن هنـــاك أعضـــاء في بعض الحيوانـات لا فائـدة منهـا، وانتفـاء الحاجـة إلى هـذه الأعضـاء –بحسبهم- دليل على تطـور هـذه الحيوانـات وارتقائهـا فمـا عـادت بحاجتها لكنها حافظت عليها كتذكار أو نوع من الزينـة والرفاهيـة، إذ لماذا ظل هذا العضو في الحيـوان طالمـا انتفت الحاجـة إليـه؟ ومن أمثلـة ذلـك وجـود عظمـتين خلفيـتين في الحـوت لا فائـدة منهما، ووجود أجنحة للبطريق لا يطير بهـا وكـذلك الأمـر بالنسـبة للنعامة فهي لا تطير ومع هذا زودتها الطبيعة بأجنحة.

بهـذه الأمثلـة سـيمطرك التطـوري عنـدما تطالبـه بـدليل على التطور والانتخـاب العشـوائي، وفكرتـه في ذلـك أن الحـوت كـان قبل أكـثر من خمسـين مليـون سـنة حيوانـاً بريـاً، ثم حصـلت لـه تطـورات عشـوائية وانتخـاب طـبيعي وتحـول إلى الحـوت الـذي

نعرفه اليوم، فضمُرت العظمتـان لعـدم الاسـتخدام لكنهمـا ظلتـا موجودتين كشاهد على هذا التطـور، ولـو أن اللـه تعـالى هـو من خلق هذه الحيوانات مباشرة فلماذا زرع هاتين العظمـتين؟ هكـذا سيقول لك.

ولماذا زود الخالق البطريق بجناحين لا قيمة لهما مع أنـه طـائر لا يطير؟

الحقيقـة ان غالبيـة من يؤيـدون نظريـة التطـور لم يدرسـوها بشكل عميق جداً وبشـكل كـاف ليصـدروا حكمـا قاطعـاً ورصـيناً عليهــا، وإنمــا يــرددون مــا ســاد في الوســط العلمي والكتب المدرسية الأجنبية، غير أن هذه الكتب والمراجع العلمية ما تــزال عـاجزة عن الإتيـان بـدليل ملمـوس (كالمسـتحاثات) على تطـور كائن عن كائن آخر، وأقصـى مـا يمكنهـا الـذهاب إليـه هـو تطـور للحيوانات نفسها ضمن النوع نفســه مـع العجـز عن تقـديم دليـل أحفوري على وجود كائن تطور إلى كائن آخر، فسمكة أبو شوكة بقيت سمكة أبو شوكة لكن بمواصفات أخرى، وطـائر الشرشـور بقي طائر شرشور في النهاية ولم يتحول إلى نوع آخر، والصحيح أن نقول إن هـذا – إن ثبت حدوثـه- هـو تكيـف وليس تطـوراً، ولا يوجد أمامنا أي دليل قاطع على تغير النوع.

ونعود الآن إلى صديقنا الحوت فأول من كتب حول عبثية وجود هـاتين العظمـتين في الجـزء السـفلي من الحــوت كــان كتــاب [1](بيولوجي باي كيرتيز آند بارنز 1989)، وتبعته في ذلك كـل كتب الاحياء في الجامعات الغربية.

العلم يثبت أن عظام الحوت هذه أساسية للتكاثر في الحيتان ولولاها لانقرض الحوت، فعظام الحوض هذه لها دور جوهري في التزاوج، وهذه ثبتت علمياً من أكثر من 100 سنة، لا بل منذ عام 1881، أي قبل وفاة داروين نفسه بسنة، حيث أجرى جون ستروثر[2] دراسة تشريحية مفصلة على الحوت مقوس الرأس (B

[1] Helena Curtis and N. Sue Barnes, Biology (1989)

[2] John Struthers, M.D, On the Bones, Articulations, and Muscles of the Rudimentary Hind-Limb of the Greenland Right-Whale (Balaena mysticetus)"
Journal of Anatomy and Physiology, 176-141ص

alaena mysticetus)، وأثبت وجود ارتباط وثيق بين عظام الحوض والعضلات المسؤولة عن حركة الأعضاء التناسلية، وأكد أن هذه العظام ليست مجرد بقايا عديمة الوظيفة بل تلعب دورًا جوهريًا في التكاثر.

فلماذا يا ترى الإصرار في الأوساط العلمية على تمرير معلومة خاطئة وتبنيها طوال هذه الفترة الطويلة؟

وكذلك فان جناحي البطريق ضروريان جداً فهو يشق الماء بسرعة باستخدام جناحيه، ويستخدمهما مرة أخرى للقفز السريع من الماء عبر فتحة الجليد هرباً من الفقمات، كما ورد في دراسة[1] (Hydrodynamic performance of a penguin wing: Effect of feathering and flapping) المنشورة في مجلة Physics of Fluids، عدد 35، صفحة 062115، عام 2023"، وكذلك النعامة فإن الأجنحة تساعدها جداً على السرعة والمناورة الحركية والالتفاف المفاجئ عندما تتعرض لمطاردة حيوان مفترس.[2]

فهل بعد أن ثبت ذلك اعترف العلماء بخطئهم في افتراض عبثية الخلق في النعامة والبطريق والحوت؟ لا، وانما ركبوا الموجة وعادوا من جديد يحشرون مصطلحات التطور وقالوا إن هذه العظام طورها الحوت للتكاثر، ولا يوجد هناك خلق ذكي. يعني –بحسبهم - إذا ثبت أن العظام ليس لها فائدة فهذا دليل على التطور وإذا ثبت أن لها فائدة فهذا دليل على التطور، وهذا لا يعقل ولا يدل إلا على أنهم يضعون النتيجة أولاً ويسعون بكل طريقة لأثبات هذه النتيجة.

وأقول إن علينا في المحصلة ألا نتعبد بالنظرية، وإنما أن نستند إلى براهين قوية في تعاملنا مع قضية التطور وألا نتبنى ما يردده

[1] دراسة Hydrodynamic performance of a penguin wing: Effect of feathering and flapping في المنشورة في مجلة Physics of Fluids، ص 35، عام 2023

[2] دراسة في مجلة البيولوجيا التجريبية (*Jindrich* et al., *2006* ,Journal of Experimental Biology)، انظر في قسم "Mechanics of cutting manoeuvres by ostriches"

الآخرون بدون أن نتبين الحقيقة، خاصة أن النظريـة في أساسـها تنفي دور الخـالق في الخلـق، فهـل أنت قـادر على إثبـات ذلـك بأدواتك ومستوى معرفتك الحالي؟
ألفريد والاس(1823-1913) كان من رواد نظرية التطور وكان يعمل عليها بالتزامن والتعاون مع تشارلز داروين، وقد توصل إلى أفكار مماثلة لأفكار تشارلز داروين حول التطور، وأرسل له مقالًا في عام 1858 يعرض فيها رؤيته، مما دفع داروين إلى نشر "أصل الأنواع" في العام التالي.

وفي وقت لاحق من حياته، بدأ والاس يختلف مع داروين في بعض النقاط، خاصة فيما يتعلق بتطور الدماغ والقدرات العقلية البشرية. فقد رأى أن بعض الصفات البشرية، مثل الوعي، والقدرة على التفكير المجرد، والأخلاق، والإبداع، لا يمكن تفسيرها بالكامل من خلال الانتخاب الطبيعي وحده، ففي كتابه "مكان الإنسان في الكون" (1903)، جادل والاس بأن تطور الدماغ البشري يتجاوز ما يمكن أن يفسَّر بالقوانين الميكانيكية للتطور، وأن هناك "قوة عليا" أو "ذكاء موجِّه" قد لعب دورًا في تشكيله.

وعلينا أن نعرف أن والاس لم يكن متدينًا تقليديًا، لكنه كان يؤمن بقوة روحية، فهو لم يكن يعزو هذه القوة إلى إله بالمعنى الديني التقليدي، لكنه تأثر بالروحانية (Spiritualism)، واعتقد أن هناك نوعًا من الذكاء الكوني الذي أثّر في تطور البشر، على عكس داروين، الذي كان يرى أن العمليات الطبيعية وحدها كافية لشرح التطور.

فما معنى ذلك؟
هذا معناه أن داروين يرفض وجود خالق لهذه الطبيعة وأي طـرح يزعـزع ذلـك فإنـه يرفضـه، لأن كـل نظريتـه قائمـة على نفي الخالقيـة. فهـل انحصـر دور اللـه تعـالى في الخليـة الأولى بنظـر

داروين؟ بمعنى أن الخـالق أوجـد الخليـة الأولى البسـيطة وتـرك لهذه الخلايا أن تتفاعل وتتشكل لتُنتج كائنات؟

الحقيقة أن حتى هذه شكك داروين فيها[1] لأنه يـؤمن أن الكـائن الأول نشـأ لوحـده في بركـة دافئـة، وكـل هـذا الجهـد الـدارويني يهدف إلى نفي الخالق بأي وسيلة ممكنة، وللسبب نفسه ظهرت نظرية الأكـوان المتوازيـة فالملحـد لا يريـد أن يـؤمن بوجـود إلـه ضابط لهذا الكون وعندما تسأله عن سر الدقة المتناهية في هـذا الكون وهل كانت مصادفة؟ سيرد عليك نعم مصادفة فهناك عــدد لا نهـائي من الأكـوان وبالمصـادفة نتج عن ذلـك كـون من هـذه الاكـوان يحمـل في طياتـه كوكبـاً بالمصـادفة تحققت عليـه سـبل الحياة (الأرض). هذه هي كل فكرة الأكوان اللامتناهيـة وهي غـير علمية ولا تسـتند إلى أي دليـل، ولـو سـألت كـل علمـاء الفيزيـاء والفلـك في العـالم أن يـزودوك بـأي معلومـة عن هـذه الاكـوان الموازية لكوننا لمـا كـان عنـدهم أي جـواب علمي لأنهـا موجـودة نظرياً فقط في أدمغتهم، وهي ليست موجودة لاقتناعهم بضرورة وجودهــا الفيزيائيــة ولكن فقــط ليــبرروا كيفيــة قيــام الحيــاة بالـ"مُصادفة" على كوكب الأرض.

أنا هنا لا أنفي نظرية التطور من جذورها فهي نظرية واسعة وتحتاج دراسة لا أدّعي أنني قمت بها، لكنني أحمل معي هذه التساؤلات البسيطة كي نضعها أمامنا ونتفكر، فالعين البشرية مثلاً أعقد بكثيرٍ من أن تنتجها الطبيعة ولو في تريليون سنة[2]، ولو افترضنا جدلاً أن هذه العين قد نجحت في التطور البيولوجي إلى هذا الحد الهائل من التعقيد والدقة دون تدخل خالق حكيم، فكيف إذن تمكنت هذه الطبيعة العمياء، التي لا وعي لها ولا هدف، من ربط هذه العين المعجزة بجهاز الدماغ المعقد، ذلك المركز الفريد الذي لا يكتفي فقط بنقل الصورة، بل يُفسرها ويُبدل معانيها، حتى ترى العين أجمل البشر على هيئة قبيحة إن كانوا

[1] كتاب أصل الأنواع The Origin of Species، تشارلز داروين، الطبعة السادسة، 1872، ص42

[2] كتاب صندوق داروين الأسود Darwin’s Black Box، مايكل بيهي 1996، ص 70-90

أصحاب نفوس شريرة، وترى الإنسان القبيح جميلاً إن كان طيب القلب محبوباً؟ كيف يمكن لمادة صماء أن تُحيك شبكة من المعاني والمشاعر تسبق الإحساس البصري نفسه؟

كيف يرى المكلوم الحديقة الغناء؟ هل هي بالنسبة له مجرد منظَر أخضر زاهٍ، أم تتحول تحت وطأة الأحزان والهموم إلى قطعة من جهنم لا رحمة فيها؟ وهل يكون جمال الطبيعة ذاته محكومًا ليس فقط بضوء الشمس، ولا بترتيب الألوان، بل بحالة النفس والروح التي تنظر؟ هذه الأسئلة تكشف لنا أن العين ليست مجرد عضو بيولوجي يعمل على تسجيل الصور، بل هي مفتاح روحاني، ومرآة للذات، وحاملة لمعانٍ لا تحدها المادة ولا تقيدها المصادفة.

إنها ليست مسألة حِسّ بحت، بل تلاقي بين الجسد والروح، بين المادة والمعنى، بين الملموس والمجاز. لذا، فإن القول بأن الطبيعة العمياء وحدها قادرة على تفسير هذا التعقيد، وهذا التواصل العميق بين العين والعقل والقلب، هو قول يتجاوز حدود العلم إلى حدود الإيمان والمعرفة الفلسفية، حيث لا يكفي مجرد الصدفة ولا القوة العمياء، بل لابد من حكمة عليا وعقل مدبر.

بمعنى لو افترضنا أن التطور انطبق على الحيوانات فكيف سينطبق الأمر على الإنسان- ذلك الكائن المعقد جداً؟ الفرق التطوري في العقل بين أدنى إنسان وأرِقى حيوان هو فرق هائل لم تنجح نظرية التطور في تبريره ومَنطَقته، وهذا من الحلقات المفقودة الكبيرة في نظرية التطور.

صحيح أن القرآن الكريم سلط الضوء على مواد خلق الإنسان وهي الطين والماء، لكنه أضاف نفخة الروح- أي روح الله، فكيف نفهم –كمؤمنين- سر هذه النفخة الإلهية في ظل نظرية التطور؟ كيف ارتقى الإنسان بين ليلة وضحاها من كائن بدائي غرائزي إلى إنسان يهوى الرسم والنحت والموسيقى ويحزن ويحلم ويكتئب ويفرح ويقرض الشعر؟ هل بعد مليار عام سيقرض

الشمبانزي الشعر يا ترى ويكتب أدباً يحاكي فيه خلجات تولستوي ونوازع دويستوفسكي؟ هذا الانتقال المذهل الذي حدث للإنسان ليس مجرد تغير في المادة أو تراكم طفرات جينية، بل هو قفزة روحية تعجز عن تبريرها حسابات التطور البحتة.

هل يمكن لعقل بشري، بهذا التعقيد والتطور، أن ينشأ من خلية بسيطة دون شرارة روحانية تحركه؟ هل بعد مليارات الأعوام سيتطور الشمبانزي ليحلم بالأمل و يعانق الحزن؟

وهنا تتجلى جمالية النبوة والكتب السماوية التي لم تكتف بوصف الإنسان ككائن مادي، بل كفرد وذات يحمل في داخله أسرارًا روحية وسموًا لا يدركه أي تحليل مادي، فهذه النفخة الإلهية لم تقدم الدعم التطوري البيولوجي البحت للإنسان، وإنما وهبته الفرادة الكونية كي يحلم ويأمل ويحزن ويتدبر ويرتقي إلى التكليف الإلهي.
وفي سعينا للخروج بجواب قاطع من القرآن الكريم حول نظرية التطور سنجد نفسنا أكثر حيرة، إذ لن نجد في الكتاب آيات قاطعة تنفي أو تؤكد التطور، لكنها شواهد هنا وهناك يستدل بها الطرفان لتعزيز قناعاتهما المسبقة، وهذا لأن القرآن أفق مفتوح للتدبر المستمر، ولأنه في المقام الأول كتاب هداية لا كتاب علمي، خاصة أنه كما أسلفنا نزل يخاطب قوماً لم يكن هذا ليشغلهم في القرن السابع الميلادي.
ويبرز هنا سؤال كبير: هل خدم القرآن البشرية علمياً؟ هل كان للقرآن دور يُذكر في بناء المدنية التي نراها أمامنا في العالم؟ وأجيب عن ذلك بالقول إنه لا يوجد هناك رابط وأثر مباشر للقرآن على المدنية المعاصرة، فمن الصعب على الآية القرآنية أن تسبق النظرية العلمية في الظهور والتغلب والانتشار، بمعنى من الصعب علينا أن نفتح كتاب الله تعالى ونتدبره فنخرج بنتائج واكتشافات علمية تفيد البشرية، ولكننا نخترع أولاً أو نكتشف ثم بعدها قد نجد صدى ذلك في القرآن الكريم فنهلل ونطبل ونقول إعجاز علمي. صحيح أن القرآن يحتوي القوانين العامة الناظمة

للكون والتي تقوم عليها أسس العلوم لكن الانسان اكتشف هذه العلوم دون الاستعانة بكتاب الله تعالى، وهذه نقطة مهمة فلا يجوز تجاهلها ولا يجوز الافتراض أننا بنينا الحضارات وتعلمنا العلوم من كتاب الله لمجرد الاستناد إلى آية وفكرة أن الله (علم الانسان ما لم يعلم)، فهذه لا يجوز فهمها على انها تعليم مباشر، وسنوضح ذلك لاحقاً. والحقيقة أن ما دفعني إلى كتابة هذا هو أحد الأصدقاء الباحثين الذي يرى أن الله تعالى هو الذي علمنا كل شيء في كتابه، فهو الذي علمنا الجمع في قوله تعالى "فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة"، يعني 3 + 7= 10 ، وفي قوله تعالى: "وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة" يعني 30 + 10 = 40 وأنه هو -كما يرى صديقي- الذي علمنا تقريب الأعداد Rounding أو جبرها في قوله تعالى: " وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون"، وهو الذي علمنا الكسور العشرية fractions في قوله تعالى (السدس...الربع...الخ)، وكأنما الناس إلى ذلك اليوم لم يكونوا يعرفون الجمع أو التقريب والجبر أو الكسور العشرية، وجاء القرآن ليعلم الناس ذلك، ثم سرّب أهل قريش هذه العلوم الخطيرة إلى الروم والفرس وازدهرت بعدها الحضارات.

هل كان كتاب الله تعالى المرجع للغرب في بناء مدنيتهم؟ هل وضع فورد المصحف أمامه عندما صمم سيارته الأولى؟ وهل استند "الأخوين رايت" إلى الآيات والسور القرآنية لاختراع أول طائرة في العالم؟ طبعاً انتبه صديقنا في نقاشي معه إلى حراجة هذه الأسئلة فأجاب بأن المعلومات الموجودة في الكتب السماوية تنتشر ويُستفاد منها ولكن بشكل غير مباشر.

لكن الحقيقة أن هذا الكلام بعيد عن الواقع العلمي، فالعلم يتولد نتيجة التفاعل مع الطبيعة والكون وما كان للإنسان ألا يكتشف الجمع والطرح والضرب والقسمة والتقريب، لذلك فان الانسان سيجمع ويطرح إجبارياً لان عقله مهيأ لذلك، ولأن ظروف

الحياة وتعاملاته وتفاعلاته اليومية وبناء الحضارة يقتضي منه ذلك.

الآن نأتي إلى قوله تعالى: علم الانسان ما لم يعلم وآيات أخرى قريبة من هذا المعنى، فما المقصود بتعليم الله لنا ما لم نكن نعلم؟

الإجابة فيما أرى أن الله أوجد فينا آليات التعلم التي لم تكن متاحة لسلفنا النياندرثال الهجمي في سلم التطور، وهذا ما أدى إلى انقراضه وارتقائنا، وهو تحديداً من اعترضت الملائكة على خلافته في الأرض فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...) لكن العليم الحكيم يعلم أن الإنسان الحقيقي (الهومو سابيان) مختلف بجيناته وهرموناته ودماغه عن النياندرثال وهو قادر على الكلام والتفكير المنطقي، ومصداق ذلك نجده في قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) فقد أوجد الله فيه آليات وجينات لتمكينه من الخلافة، وهذه قد تكون نفخة الروح (ونفخنا فيه من روحنا)، وقد يكون ذلك استغرق وقتاً طويلاً وليس بلمسة ساحر، والدليل على ذلك قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها "ثم" عرضهم على الملائكة). (ثم) في اللسان القرآني تفيد المسافة الزمنية الطويلة. وربما يسأل أحدهم فيقول: فلماذا قال تعالى (عرضهم) ولم يقل (عرضها)؟ وهذا سؤال مشروع لأن الحديث هنا عن الأسماء والأسماء كجمع مؤنثة والدليل على ذلك قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ولم يقل فادعوه بهم، والإجابة على ذلك – فيما أرى - أن الله عرض على الملائكة المسميات والسمات وليس الأسماء بمفهومنا الدارج، فالله تعالى هنا لا يتحدى الملائكة لغوياً ولكنه يتحداهم بعلم الربط بين الأشياء وسماتها وهذه خصيصة للإنسان، فالإنسان في رحلة سعيه على هذا الكوكب يحتاج إلى الربط والى التعرف على الماهيات والعلاقات والارتباطات بين الأشياء وكيفية عملها وسيرورتها، بينما الملائكة لا تحتاج هذا العلم نهائياً فهي خلقت لغير هذا، لذلك كان ردهم (إنك أنت العليم الحكيم) – أي تعلم ما يصلح لنا ويناسبنا وما يصلح لآدم ويناسبه.

6. الإطار

ربما حدث معك ان استأجرت كوخاً سياحيا في أحضان الطبيعة في بلـد مـا وعنـدما تدخلـه العائلـة تتـوالى صـرخات الإعجـاب بالإطلالـة الفتانـة من النافـذة، مـع أن هـذا لم يحـدث وأنت في الخارج وأمامك المشهد بأكمله، فما الذي اختلف يا ترى؟

الاختلاف يكمن في الإطار، حيث صارت الطبيعـة ضـمن إطـار، ضمن سـياق وحـدود، وهـذا التـأطير يجعـل للشـيء قيمـة خاصـة بمعـايير محـددة، والأمـر نفسـه ينطبـق على كثـير من القيم في حياتنا، فهي تكتسب جماليتها أو أهميتها من الإطار الـذي تتلبسـه، وبدون هذا الإطار تظل هذه القيم باهتة لا يدرك أهميتها أحد.

لننظر مثلاً في ماء زمزم والقيمـة الكبـيرة الـتي يكتسـبها عنـد المسلمين بشكل عام والحجيج بشكل خاص. هناك سـياق وإطـار معين لهذا الماء جعلاه يكتسب هذه القيمة، وهذا الإطـار تـاريخي وهو قصة هاجر الـتي تركهـا سـيدنا إبـراهيم في واد غـير ذي زرع وصـارت تـركض ذهابـاً وجيئـةً في حالـة من اليـأس لتنقـذ ابنهـا إسماعيل من الموت عطشاً، حتى تفجر ينبوع زمزم فشربت منه وسقت ابنها. هذا الإطار التاريخي، مُضافاً إليه الروايات المنسوبة

إلى النبي الكريم والتي تعلي من شأن هذا الماء هـو الـذي جعـل لمـاء زمـزم خصوصـية وقداسـة معينـة، ولـو قلت لهندوسـي إن المسلمين يقدسون هذا الماء لنظر إليك باستغراب، والسبب في ذلك هو أنه نظر إلى هذا الأمر بدون إطار وسياق، وكذلك سننظر نحن إلى الهنـدوس وهم يقدسـون الأبقـار بالمقـدار نفسـه من الاستغراب، وذلك لأننا نعـاين هـذه الظـاهرة بـدون إطـار وسـياق يؤطرها ويجعل لها قيمة ما.

وفي هذا يقول إرفينغ غوفمان[1]: "*الواقع الاجتماعي ليس شيئًا موضوعيًا وثابتًا، بل يُبنى ويفسر من خلال الأُطر التي يستخدمها الأفراد والمجتمعات. هذه الأُطر تؤثر على كيفية إدراك الناس للعالم وتوجيه سلوكهم وتشكيل قيمهم، مما يجعل الواقع متغيرًا بحسب السياق الثقافي والتاريخي*"، وهذا ينطبق على الكثير من المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد الاجتماعية التي اكتسبت قيمتها الأصلية من إطارها التاريخي وسياقها الاجتماعي، والذي لا يمكن أن يدركه الناظر من الخارج إلا بالاطلاع والتعرف على هذا الإطار.

وفي القرآن الكريم سنجد بعض الأحكـام والتشـريعات الـتي لا يمكن للنـاظر من الخـارج أن يتفهمهـا إلا بـالاطلاع على الإطـار والسـياق والبيئـة الحاضـنة الـتي نـزل فيهـا القـرآن الكـريم، لكن القـرآن الكـريم لا يحيطنـا – أو بشـكل أدق – لم يحـرص على أن يحيـط النـاظر من الخـارج بهـذا الإطـار والسـياق، لأنـه ببسـاطة خطـاب محلي يخـاطب قومـاً بمـا يفهمونـه ضـمن بـيئتهم، ولـو اطلعت على كتاب الله تعـالى بحياديـة وبشـكل مجمـل سـتلاحظ هـذه الظـاهرة، ولن ينجح اليابـاني في فهم القـرآن والمـراد من الكثير من النصوص إلا بالاطلاع على أساس ومناسبة وبيئة وإطار هـذه الآيـة أو الآيـات، وهـذا لا يتـأتى إلا للمختصـين والأكـاديميين وكبار المستشرقين.

كذلك فإن فهمنا لفكرة التأطير هذه يجعل منا أكثر تسامحاً مـع الاختلاف والتنـوع بشـكل عـام، فنتقبـل فكـرة تقـديس الهنـدوس

[1] إرفينغ غوفمان، *العرض في الحياة اليومية* (1959)، ص 10

للبقر وللنهر المقدس في الهند وغيرها، لأن هذا التقديس بلا شك نابع من إطار معين في تاريخهم وثقافتهم، لا بل ستساعدنا فكرة التـأطير على فهم وتقـدير الكثـير من الأحكـام والمُجريـات الـتي وقعت في تاريخنا نحن والتصـالح معهـا مثـل أحكـام ملـك اليمين والظهار والأشهر الحرم وضرب الزوجات وقطع يد السارق وجلـد الزاني وغيرها.

تعود جذور فكرة الإطار إلى الفلسفة الإغريقية، حيث تناول الفلاسفة مسألة الإدراك وعلاقة الإنسان بالعالم الخارجي.

الفيلسوف أفلاطون في أسطورة الكهف مثلاً، أشار إلى أن البشر يرون العالم من خلال ظلال على جدار الكهف[1]، وهي تمثل رؤيتهم المحدودة التي تتأثر بالإطار الذي وُضعوا فيه. لطالما كانت أسطورة الكهف لأفلاطون من أشهر الأعمال الفلسفية التي تتناول العلاقة بين الإدراك والواقع، وتبرز مفهوم الإطار الذي يؤثر على تصورات الإنسان للعالم. يصف أفلاطون في هذه الأسطورة مجموعة من البشر وُلدوا وعاشوا في كهف مظلم، مُقيّدين بالسلاسل بحيث لا يمكنهم الالتفات، ولا يرون من العالم الخارجي سوى ظلال الأشياء المنعكسة على جدار الكهف بفعل نار مشتعلة خلفهم. هذه الظلال تمثل، بالنسبة لهم، الحقيقة المطلقة، إذ لم يعرفوا غيرها طوال حياتهم.

تجسد الأسطورة فكرة الإدراك المحدود، حيث يظل الإنسان أسيرًا للأطر التي تحيط به وتوجه فهمه للواقع. حين ينجح أحد السجناء في التحرر من قيوده والخروج من الكهف، يواجه صدمة معرفية؛ إذ يرى الشمس لأول مرة ويدرك أن الظلال لم تكن سوى تمثيل باهت للحقيقة الكاملة، وهذه التجربة تجعل العائد إلى الكهف مدركًا لحقيقة أوسع، لكنه حين يحاول إقناع رفاقه

[1] إفلاطون، كتاب الجمهورية، أسطورة الكهف، الباب السابع، ترجمة ديزموند لي 2007، ص258-263

في الكهف بحقيقة العالم الخارجي، يواجه استنكارهم وعداءهم، إذ يرفضون تقبل فكرة أن ما يرونه ليس الحقيقة الكاملة.

ترمز الأسطورة إلى قيود الإدراك البشري وضرورة التحرر من الأُطر الضيقة للوصول إلى الحقيقة، فالإطار هنا ليس مجرد حدود مادية بل ذهنية وثقافية تُحاصر الإنسان وتجعله رهينة تصورات مشوهة. يعكس أفلاطون في هذا السياق رؤيته الفلسفية حول المعرفة، حيث يؤكد أن العالم المحسوس ليس سوى انعكاس لعالم أسمى من المثل والقيم الثابتة.

يمكن إسقاط مفهوم الإطار في الأسطورة على الكثير من السياقات الاجتماعية والفكرية، حيث تتشكل القيم والمعتقدات بفعل التربية والتعليم والإعلام والثقافة العامة. الأطر الفكرية هي التي تحدد كيف ندرك العالم وكيف نتفاعل مع الآخرين، وتجعلنا أحيانًا أسرى لقناعات محدودة لا تقبل النقاش. التحرر من هذه القيود يتطلب الشجاعة الفكرية والرغبة في البحث عن المعرفة الحقيقية، تمامًا كما خرج السجين من الكهف نحو النور.

إن إدراك فكرة الإطار في حياتنا اليومية يساعدنا على تجاوز التعصب الفكري، وفهم وجهات النظر المختلفة، وتقدير التنوع الثقافي والديني. وكما أوضح أفلاطون في أسطورته، فإن البحث عن الحقيقة لا يخلو من مشقة، لكنه السبيل الوحيد لتحرير العقل من ظلال الجهل والوهم.

ومفهوم الإطار بشكل عام يُشير إلى التأثير الكبير للمعرفة المسبقة والخلفية الثقافية في تشكيل تصورات الإنسان. وفي العصور الوسطى، برز مفهوم الإطار في النقاشات الدينية حول النصوص المقدسة، حيث اعتمد شُرّاح الأديان على السياق التاريخي والثقافي لفهم وتفسير النصوص، مما جعل التأطير

جزءًا لا يتجزأ من علم التفسير، وفي الإسلام، كان هذا النهج واضحاً في علوم التفسير وأصول الفقه، حيث كان لا بد من الإحاطة بمناسبات أو أسباب النزول والبيئة الاجتماعية لفهم الأحكام والتشريعات في ذلك الوقت، وفي القرن العشرين، تطور مفهوم الإطار ليصبح أداة أساسية في العلوم الاجتماعية، خاصة في علم الاجتماع وعلم النفس، فالناس لا يرون الواقع كما هو، بل كما يُعرض لهم ضمن سياقات معينة، وهذا ما يفسر اختلاف ردود الأفعال تجاه المواقف ذاتها تبعًا لاختلاف التأطير.

يسهم الإطار في تشكيل المفاهيم والقيم الاجتماعية بشكل يجعل من العادات والتقاليد والمعتقدات ذات معانٍ أعمق لدى الأفراد. فعلى سبيل المثال، قد يرى البعض قطعة قماش بلون معين مجرد قماش، بينما ينظر آخرون إلى العلم الوطني باعتباره رمزًا للشرف والكرامة والفخر. هذا التأطير الرمزي يمنح الأشياء قيمتها العاطفية والمعنوية، ويستخدم السياسيون والإعلاميون مفهوم الإطار للتأثير على الرأي العام وتوجيه التصورات حول قضايا معينة، فالطريقة التي يتم بها عرض الأخبار، سواء باستخدام كلمات إيجابية أو سلبية، تلعب دورًا في تحديد كيفية استقبال الجمهور لها، واستخدم الفقهاء المسلمون مفهوم الإطار لفهم النصوص الدينية وفقًا للسياق التاريخي والثقافي، مما سمح بفهم النصوص من زاوية اقتضتها مرادات البشر ومصالحهم وأفهامهم، مثل قضية الرق وملك اليمين، وبهذا يتضح أن مفهوم الإطار ليس مجرد فكرة تجريدية، بل هو أداة لفهم العالم والتفاعل معه. إدراكنا لهذه الأُطر يمنحنا القدرة على تقدير المعتقدات والثقافات المختلفة، وفهم الأحكام والنصوص الدينية بمعزل عن النظرة الأحادية.

ولعل ما يُعمّق هذا الطرح أنّ الإنسان بطبيعته لا يدرك الأشياء على نحو محايد، بل يراها من خلال عدسات ثقافته، ودينه، وموروثه، وحتى مخاوفه المكبوتة. وهذه العدسات ليست مجرد تصورات فردية عابرة، بل هي أطر فكرية مترسخة تشكّل ما يُعرف في علم النفس الإدراكي بـ"التحيز التأكيدي" (confirmation bias)، حيث يبحث الإنسان دومًا عما يؤكد قناعاته المسبقة ويتجاهل ما يناقضها. وهنا تبرز أهمية الوعي بالإطار كخطوة أولى نحو التحرر من سطوة التلقين والانحياز.

فالخروج من أسر الإطار لا يعني بالضرورة نفيه أو التمرد عليه، بل يعني وعيه وتحليله، وربما مراجعته إذا لزم الأمر. ففي التراث الإسلامي، نجد الإمام الشاطبي في "الموافقات"[1] يشير بوضوح إلى أهمية المقاصد والسياقات في فهم النصوص، مؤكدًا أن العبرة ليست بالظاهر فقط، بل بعلل الأحكام ومآلاتها. وهذا تأكيد على أنّ "الإطار" في الفهم الديني ليس أمراً ثانوياً بل جوهريًا، ولو تأملنا في ممارسات ثقافية آسيوية مثل تقاليد الشنتو في اليابان أو البوذية في التيبت، سنجد أن الطقوس والرموز التي تبدو غريبة للعيان، ما هي إلا تعبيرات عن تصوّر عميق للعالم والكون، ارتبط بجغرافيا مقدسة وتاريخ جمعي متراكم. فالإطار هنا لا يفسر الظاهرة فحسب، بل يبررها ويمنحها معناها المقدّس، وقد عبّر نعوم تشومسكي عن ذلك بوضوح في كتابه *السيطرة على الإعلام* بقوله[2]: "الإعلام لا يخبر الناس بما يجب أن يفكروا به، بل يحدد لهم ما يُفترض أن يفكروا فيه."

لذا فكلّما أدركنا تعدد الأطر وتنوعها، أدركنا نسبيتنا، فقلّ تعصبنا، وزاد تواضعنا المعرفي. ومن هنا، يمكننا أن نفهم قول الإمام علي رضي الله عنه: "الناس أعداء ما جهلوا"، إذ الجهل ليس

---

[1] الشاطبي، *الموافقات في أصول الشريعة*، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط5، 2004م، الجزء 2، ص 10–12.

[2] نعوم تشومسكي، *Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media*, Pantheon Books, 1988، ص 2

بالضرورة نقصًا في المعرفة، بل قد يكون قصورًا في إدراك سياقها.

7.سلف وأخوان

من الآيديولوجيات التي تسيطر على العالم الإسلامي السلفية والفكر الأخواني، وهما كفكر لا يبتعدان كثيرا عن بعضهما وينهلان من منهل واحد تقريباً مع اختلافات في تطبيق هذه الآيديولوجيا لكنهما كجماعتين سياسيتين تتباينان تبايناً واضحاً.

السلفية تتعبد بفهم السلف، والسلف –كما نعلم- هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، والقول باتباع منهجهم يعني بالضرورة أن السلف الصالح ساروا على منهج واحد ثابت، لكن الحقيقة غير ذلك، فقد تعارضوا كثيراً فيما بينهم، ومنذ وقت مبكر جداً من تاريخ الإسلام، فعمر بن الخطاب عارض أبا بكر في حروب الردة، ثم جاء التابعون ليكملوا مسيرة الاختلاف فيما بينهم، والأمثلة على الاختلاف بين الائمة الأربعة في أمور الفقه كثيرة، فقد أجاز الامام مالك الجمع بين صلاتي الظهر والعصر لكن أبا حنيفة لم يجز ذلك، واتفق مالك وأبو حنيفة على أن زكاة المال المشترك

لا تجب إلا إذا امتلك كـل من الشـريكين النصـاب، لكن الشـافعي خالفهما في هذا ورأى أن المال المشترك حكمه حكم مـال رجـل واحد، واتفق الائمة الأربعة على وجوب قتل المرتد بعد اســتتابته، وخالفهم في ذلك الثوري والنخعي.

ورأى أبو حنيفة أن الإيمان هو قـول باللسـان وتسـليم بالجنـان وأنه لا يزيد ولا ينقص، مستثنياً العمـل من شـروط الإيمـان بينمـا ذهب مالـك والشـافعي وابن حنبـل إلى أن الإيمـان قـول وعمـل، وقد هاجم الائمة الأربعة علم الكلام لكنهم لم يسلموا من الوقـوع فيـه، فقـد كـانت لهم صـولات وجـولات في التوحيـد والصـفات والقضاء والقدر، حتى أن ابن حنبـل كفّـر الفـرق الكلاميـة بسـبب التأويـل العقلي ثم اسـتخدمه بنفســه من خلال محاولتــه اثبـات العرش لله، والسلفيون المعاصرون يُقدّسون ابن حنبـل ومـع أنـه من أهل الظـاهر إلا أنهم لم يرقـوا إلى مسـتواه فهـو لم يكن من أهل الجمود والتقليد الاعمى، وهو القائل " لا تقلدوني وخـذوا من حيث أخذت"[1]، وهذه ظاهرة معروفة في الفكر بشكل عام فكلما ابتعدت عن المنبع تجد أتباع الفكرة أشد تقديساً وجموداً لها ممن أطلقوها بالأساس، لذلك فالسلفيون المعاصرون هم أكثر ســلفية من الســلفيين الأصــل أو بالعبــارة الشــائعة (ملكيــون أكــثر من الملك).

والأصل في الإسلام هو النظر العقلي، كذلك تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض الظاهري، وهذا التعـارض الظـاهري لا يزول إلا بدراسة اللغة دراسة معمقة وفهم السـياقات والـدلالات، وهـذا يتطلب تشـغيل العقـل والبحث، لـذا نجـد فـترة الصـحابة والتابعين طيفاً ملوناً مليئاً بالاختلاف والتنوع في الرأي، بينما نـرى السلفيين المعاصرين متجمدين عند النصـوص، لا يُقـرّون إلا بفهم واحد ومن خالفهم كافر – أو على أقل تقدير - فاسق.

هذا التجمـد العقلي عنـد السـلفيين المعاصـرين أفـرز فئـة من الناقلين عـاجزين عن التفكـير، فعجـزوا عن تقـديم أي جديـد في علـوم الفقـه وأحكامـه، باسـتثناء بعض الفتـاوى المضـحكة، مثل

[1] ابن القيم في "إعلام الموقعين" (2/302)

فتـاوى مضـاجعة الـوداع وزواج الأطفـال والنهي عن اختلاء الاب بابنته وجهاد المناكحة، وغيرها.

كـذلك لم يرتفـع سـقفهم المعـرفي عن سـقف زمن الصـحابة والتابعين فيما يخص الفلك والطبيعة، فهنـاك من المعاصـرين من أنكر كرويـة الأرض وهنـاك من أنكـر دورانهـا وكـل ذلـك لأنهم لم يجدوا في كتاب الله تعالى آية صريحة ومباشرة تشير إلى دوران الأرض وكرويتها.

لا بل وعجزوا عن الاطلاع على سـير الصـحابة والتـابعين بدقـة لان معظمهم أصـلاً غـير متخصـص في مجالـه، لهـذا تجـد هـؤلاء معادين لكثير من المختصين.

والسلفية رافضة للآخر لمجرد وجـود اختلاف، فـأي اختلاف عن الآخر ينتهي بالسلفي إلى رفضـه وإقصـائه حـتى لـو لم يكن هـذا الاختلاف جوهرياً، لذا تجدهم يرفضون الأشاعرة لمجـرد اختلافهم معهم في فهم القـرآن الكـريم، مـع أن الطـرفين من جماعـة التوحيد ومن أهل السنة والجماعة، لكن لمجرد الاختلاف في فهم الصفات وُضع الأشاعرة-مع أنهم يشكلون الثقل الأكـبر من ناحيـة العدد والانتشار في الأمـة الإسـلامية- في خانـة الإقصـاء والاتهـام بالضـلال، والتكفـير أحيانـاً، حيث فهم الأشـاعرة أن الآيـات الـتي تتضمن صفات لله مثل نسبة اليد والعين له هي مجـازات لغويـة، فاليد في قوله تعالى يـد اللـه فـوق أيـديهم تعـني القـوة والتأييـد وليست الجارحة التي نعرفها والـتي تتشـكل من سـاعد وخمسـة أصابع، بينما يرى السلفيون أن لله يداً على سبيل الحقيقة لكننا لا نعلم هيئتها وماهيتها، بدون تأويل، وكـذلك الاسـتواء على العـرش الذي يـرى فيـه السـلفيون اسـتواء حقيقيـاً بينمـا يـراه الأشـاعرة تعبـيراً عن الهيمنـة. هـذا رأي وهـذا رأي ولا بـأس بـالرأيين، لكن السلفيين وانطلاقاً من عقلية تحتكر الحقيقة وترفض الآخر اتهموا الأشاعرة بالضلال بسبب هـذا الاختلاف، وكـذلك لأن الأشـاعرة لا يستندون فقط على كتاب الله تعالى وسـنة نبيـه وإنمـا يعتمـدون أيضـاً على علم الكلام، وعلم الكلام يعـني الـرأي، والـرأي عنـد السلفية مذموم لأن فيه عقل، والعقل أكـبر التُهم وأخطرهـا، لـذا

يُسمون الأشاعرة أفراخ المعتزلة، وهذا يقودك إلى الاســتنتاج أن الفكر المُعتزلي القائم على العقل مرفوض تماماً عند السلفية.

هذا الجمود أدى بالسلفية إلى السقوط في هاوية اليهود نفسها عندما تعبدوا بظاهر النص التوراتي ووقعوا في التجسيم، فقالوا – أي السـلفيين – أن للـه جهـة ولـه يـد وأنـه يجلس على العـرش، والتشــبيه والتجســيم تســرب إلى الفكــر الإســلامي من خلال الاسـرائيليات عن طريـق اليهـود الـذين دخلـوا في الإسـلام مثـل كعب الاحبـار وعبـد اللـه بن سـلام، فـالتوراة مليئـة بالمتشـابهات أمثال نزول الله علي جبل الطور والاستقرار على العرش وجـواز الرؤية والتكليم جهراً.

أسباب الجمود في العقل السلفي مُتعـددة نـذكر منهـا – مثلاً – الثقافة السمعية، فغالب المعلومات والأفكار التي يكتسبها الفــرد السلفي قائمة على السمع، وهذا جزء من الثقافـة السـلفية وهي الجلوس إلى شيخ والتعلم على يديه، انطلاقـاً من قاعـدة عنـدهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

ولا يقلُّ الخطاب الإخواني جموداً عن الخطاب السـلفي، لا بـل يزيد عليه في التفافه حول شخص واحد وهو حسن البنـا، فـالفكر الإخــواني كلــه قــائم على اجــترار أفكــار حســن البنــا رغم تغـير الظــروف التاريخيــة والسياســية، وأي فكــر ومنهج في العــالم يتمحور حول شخص مفرد ينبغي إعادة النظر فيه والارتياب منه.

يُعتـبر حسـن البنـا مجـدد الإسـلام في القـرن العشـرين بنظـر أتباعه، وهذا التصنيم لـدى هـؤلاء الأتبـاع جعلهم يـديرون ظهـرهم كلية لكل فكر آخر فلم يلفتهم مجـددون كبـار مثـل جمـال الـدين الافغاني ومحمد رشيد رضا ومحمد عبـده، والملاحـظ أن تقـديس الرجل تم خلال حياته وبعد مماتـه، ويبـدو أن هـذا كـان يـروق لـه ويطربه، خاصة أنه اقترن بطاعة عمياء من أتباعه، لذا جعـل البنـا هذه الطاعة العمياء ركناً من الأركان العشرة للبيعة.

وفكر البنا هو صورة الإسلام الصحيح عند اتباعه ولا توجد منهجية أخرى صالحة لأي زمان أو مكان، فمهما لف الإخواني ودار ونمق الألفاظ وزخرفها وحاول أن يكون عصرياً مواكباً

للزمن فإن بداخله صنم البنا يأمره وينهاه، وهذا تلمحه من الواقع ومن تصريحات الإخوان الذين جعلوه في مرتبة لا يصلها صحابي، لذلك تجدهم يتعبدون بالكرامات التي أوردها هو نفسه في مذكراته، باعتبارها "معجزات نبوية" مع تغيير فقط في الكلمات والتعابير، وخاصة الرؤى التي كانت تأتيه قبل الامتحانات فيراجع معه شخص مادة الامتحان بدون برشام، لا بل ذهب إلى أكثر من ذلك فسرد عليهم رؤى منامية توحي بأن الله اختاره لكي ينقذ الأمة من الضلال والتيه.
التقديس الثاني في قائمة الإخوان ناله سيد قطب، وسيد قطب وصل مستوى من التكفير لم يصله من قبله ولا بعده، فهو صاحب براءة اختراع "تكفير المجتمعات" فإن كان السلفيون تخصص تكفير أفراد فهذا الرجل يميل إلى تكفير المجتمعات بكاملها، وهذا وضع الإخوان في مأزق، فهم من جهة معجبون جداً بأفكاره التكفيرية لكنهم خجلون أمام مجتمعاتهم الواعية من هذه الصدمات، لذا سارعوا بما يمتازون به من ازدواجية و"مرونة" إلى القول إن أفكار سيد قطب في كتابيه "في ظلال القران" و"معالم في الطريق" لا تمثل الجماعة، وحاولوا جاهدين إلى التمييز بين مشروع البنا الانفتاحي وقطب الانعزالي التصادمي. فهل فعلاً منهج حسن البنا انفتاحي وتقدمي ويختلف عن منهج قطب الانعزالي التصادمي؟
هذا هو السؤال الكبير، والاجابة المختصرة عليه هي: لا.
فالبنا هو أول من نادى بشعار "إما ولاء وإما عداء"، وهو الذي نادى بالجهاد العملي صراحة، ومن هذا نعرف أن قطب كان تلميذ البنا المخلص، فالبنا دعا صراحة إلى قيام دولة ثيوقراطية كهنوتية، لحاكمها العصمة الإلهية باعتباره ظل الله على الأرض، تماماً مثل أوروبا في عصور الرجعية والظلام، حيث كانت أوامر الحاكم هي نفسها أوامر الله في نظر الشعب، والخروج عليها خروج عن الدين. لذلك يتدرج البنا في شرحه للوصول إلى هذا الحاكم من خلال تكوين عصبة الأمم الإسلامية وينتج عن ذلك اجتماع على الإمام الذي هو ظـــــــــــل الله على الأرض.

وبهذا فإن البنا لا يعترف بوجود معارضة، ومن ليس مع الإخوان فهو عدوهم (إما ولاء وإما عداء)، فهو يرى أن الأحزاب كلها سواء ولا قيمة لها، ورفع دعوته – التي هي بنظره ميراث الرسول الكريم- فوق هذا المستوى الحزبي كاملاً.

إذن التعددية مرفوضة والاختلاف مرفوض، وعليك أن تكون معي وإلا فانت عدوي، فأين الاعتدال في منهجية البنا؟ ومن هذا الفكر نهل قطب وكفّر المجتمعات، وهذه الانعزالية والتصادمية الإخوانية هي أخطر من الفكر السلفي الذي يتسم فقط بالجمود والرجعية، فالسلفية -باختصار- وقعت في تكفير الأشخاص بينما الفكر الإخواني -وتحديداً فكر سيدنا قطب- متهم بتكفير المجتمعات.

هذه هي الآيديولوجية التي استولدت معظم الأفكار الشاذة المتطرفة، فظهور التنظيمات الاقصائية مثل الجهاد والقاعدة كان لاحقاً لقيام جماعة الإخوان المسلمين، الذين يتخذون الدعوة مطية للوصول إلى الحكم ولو على حساب الوطن فالأولوية للفكرة والآيديولوجية والسلطة وليست للوطن.

8.لمن الجنة؟

حـرص القـرآن الكـريم حرصـاً تامـاً على تعليـق مصـير الخلـق بأعمـالهم الصـالحة وإيمـانهم باللـه واليـوم الآخـر دون تحديـد لجنسهم وجنسياتهم وديانـاتهم، فقـال تعـالى: "﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ [البقـرة: 62]، وهـذه الآيـة الجامعـة تؤكـد لنـا أن اللـه تعـالى سيحاسـب النـاس على أطـر عامـة وهي الإيمـان باللـه، والإيمان باليوم الآخر، وكذلك العمل الصالح.

القـرآن الكـريم حـرص في نصوصـه على أن يكـون التسـامح والعفو هو القاعدة، معلقاً مصير البشر بيد الله تعالى يوم القيامة مهمـا كـانت خلفيـاتهم العقائديـة، وكـان ينبغي أن نتعلم من ذلـك عدم فرض فكرة الوصاية على أحد وعدم احتكـار الحقيقـة لكننـا حرصنا أشد الحرص على تأويل إرادة الله وتوليفها وتفسيرها بمـا يتوافق مـع المُنطلـق الشخصـي للخـروج بنتـائج تتسـم بالتعصـب الشديد تجاه الآخر، لذا فالتعصب والتشدد سمتان موجودتـان في الإنسان لا في النص القرآني، والناس بشكل عام يتعصبون عندما تكتسب الأفكار والمعتقدات التي يؤمنون بها صـفة التقـديس، ثم ترتقي بعد ذلك إلى التصـنيم والتأليـه، فالإقصـاء والأذى والـرفض والقتل يتم دومـاً باسـم إلـهٍ مـا، والتعصـب هـو حالـة يتخلى فيهـا الفرد عن حيادية الأفكار مانحاً إياها القداسـة ليكـون شـعاره (أنـا على حق وأنت بلا شك على خطـأ)، فنحن عُبّـاد أوثـانٍ بـالغريزة، ولدينا قدرة عجيبة على العبادة والتقديس والتأليه، وهـذه النزعـة فينـا هي المسـؤولة عن فكـر الإقصـاء والتهميش ورفض الآخـر، فنحن دوماً بحاجة إلى الإيمان بشيء ما حـتى نتصـالح مـع ذواتنـا دفاعاً عن هذا الإله ولكي نفـنى من أجلـه، مـع أن القـرآن أخبرنـا بعكس هذا وأكد لنا أن الله تعالى هو من يدافع عن المؤمـنين ولا حاجة للمؤمنين للـدفاع عن اللـه، فربنـا لا يحتـاج أن نـدافع عنـه،

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]، ووسط كل هذا التحيز والفكر الإقصائي المنتشر فإن الوقوف بحيادية أمرٌ في غاية الصعوبة، ومهارة لا يملكها سوى الندرة، بينما الأغلبية ما هم إلا دواب تبشيرية ودعوية، فالمتعصب هو كل من يدّعي امتلاك حقيقة ويريد تقديمها للناس بشغف، وبعدها يقوم بتقسيمهم هذا مؤمن وذاك كافر، وهذا الشغف هو الذي دفعنا إلى وضع البهارات على قصة الدابة الواردة في القرآن والتي-كما تقول التفاسير- ستظهر في آخر الزمان، فأضافوا إليها تفاصيل وحركات رياضية لترفس الناس على جباههم وتمنحهم ختم الكفر أو الإيمان، فأما من تسمه الدابة بالإيمان فيضيء وجهه وأما من تسمه بالكفر فيكفهر وجهه ويظلم – هوس غريب للتصنيف Labelling، لذلك فمن يعيشون مرحلة الشك والريبة في دينهم أرحم من الكهنة و"المؤمنين" عندما يتعلق الأمر بالنظر إلى الآخر، لأن الشكاك المرتاب لا يقترح شيئاً ويترك الناس يعيشون في أمان، أما الكاهن أو "المؤمن" فلن يتركك تعيش بأمان، وهنا خطورة التعصب، فبسببه امتلأ العالم بضجيج دواب متحمسة لفرض "الحقيقة" على الآخرين ولو بالقوة، وهذا حوّل المجتمع إلى مفرخة من المنقذين المستعدين لقتلك لإقناعك بمذهبهم أو تطهيرك من فسقك، ومن النادر أن تجد وسط هذا الركام الفكري المتشدد شخصاً غير مكترث، ومتصالح مع نفسه كما هي ومتصالح مع الناس كما هم.

إذن متى اعتنق التعصب ديناً يتحول إلى حالة من الرعب، ويصبح المتعصب كائناً أخطر مثلاً من السياسي، لأن السياسي يبحث دوماً عن مصالحه الشخصية ويمكن إقناعه بحسابات الربح والخسارة والمصلحة، بينما الكائن المتعصب لا يمكن "إفساده" وهو على استعداد للقتل أو الموت من أجل فكرته، ويظل في الحالتين سواء كان ساعياً إلى القتل أو الموت قنبلة موقوتة ساعياً بكل جهده لإقامة معبد على كل شبر من هذه الأرض، وإن

لم تفلح الدعوة باللين فبالسيف، يعني باختصار لكي ينقذك من الضلال أو يقنعك أنك ضال فإنه سيقتلك.

وهناك سنجد أيضاً البعد والجانب الشخصي عند المتشدد، فهو يسعى إلى لفت الانتباه إليه وشد العالم إلى الاكتراث به، ناصباً مساحة من الـ"سلطة القضائية" لمحاكمة الإنسان في محكمة عرفية بتهمة جاهزة واقتناع مسبق، ما يجعل من الحياة المشتركة أمراً لا يحتمل. هذا الإنسان المتشدد هو كائن لم يعد بإمكانه احتمال الوجود كما هو، ولا يجد حيلة أخرى لمقاومة هويته وكينونته سوى تحويل "أناه" إلى دين، ونحن نسهم بدورنا في توليد متعصبين كل يوم بسبب سعينا الدؤوب عن منقذ (مسيح أو مهدي) يأتينا من الفراغ.

لكي نرتقي عن التشدد علينا أن نعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء، وأن المختلف عنك ليس بالضرورة شيطاناً وأن نتقبل مجريات الحياة كما هي وألّا نسعى إلى إيقاظ الداعية فينا بل نحرص على إبقائه في حالة سكون ولا مبالاة.

أذكر قبل سنوات أنني التقيت صديقاً لي بعد غياب طويل وكان الرجل قد التزم و"حَسُن" التزامه الديني لدرجة أنه كان يراقب أدق تفاصيل تحركاتي باعتباري صديقاً عزيزاً ويريد لي الخير والنصح، صلينا في المسجد سويةً، وتعمدتُ الإطالة في الجلوس بعد أن انتهى الامام من صلاته فسبحت الله 33 مرة وحمدته 33 وكبرته 33 واستغفرت 33 لأثبت له مقدار إيماني، ولكن كل هذا لم يشفع لي فلباسي وطريقة جلوسي والتماثيل الصغيرة في سيارتي كلها توحي له بأنني بعيدٌ جداً عن "الهداية"، فنصحني وتناقشنا طويلاً، وبعد أن عجز عن تصنيفي قال لي بصراحة: "أنت تتبع أي جهة/طائفة؟"، وسر سؤاله ذلك هو أنه يحفظ قائمة الطوائف والملل جميعها وهناك تهمة جاهزة معلبة لكل طائفة. عنده تصنيف جاهز labelling، لم يتشكل لديه نتيجة كثرة القراءة والبحث وإنما شيخه أخبره بكل المتهمين والتهم المنسوبة إليهم، وحذره منهم فكل طرقهم تؤدي إلى النار إلا طريق شيخه فهي التي تقود إلى الفردوس الأعلى. إنها حالة

من العجز عن التحرر من "المصطلحات" والتصنيفات، وعلينـا أن نعرف أن هذه المصـطلحات (سـواء كـانت في الشـأن الـديني أو السياسـي أو الجغـرافي أو العـرقي) مـا هي إلا تسـميات بشـرية قامت أساساً لتساعدنا بطريقة مخادعـة على تحويـل الحيـاة إلى مكان قابل للاحتمال، فبداخلنا كائن يرفض الآخر باعتبار أن الآخـر إلهــه مختلــف. هــذه التســميات قــامت لتعــزز من تمظهراتنــا السطحية على حساب جوهرنا، كي لا نرى العالم كمـا هـو، فنحن نخــترع مظاهرنــا من أجــل ألا يرانــا أحــد، ولمزيــد من الحمايــة اخترعنا كبرياء عمودية تربطنـا مباشـرة بــــالإله (الصـحيح)، وإن لزم الأمر تجد المتعصب على اسـتعداد للفنـاء في "إلهـه" نصـرةً لكينونته الخجولة الجبانة، فالتشدد المؤدي إلى القتل هو حالةٌ من الجبن عن مواجهة العالم واعتقادٌ بوجـوب الفنـاء في فكـرةٍ أكـبر منا. إن مطلب التفكير الأول ليس أن نعرف بل أن نحتمـل كوننـا نحن، ليس أن نعرف الأشياء بل أن نحتملها ونتقبلها، بغض النظـر عن التصنيفات، وخاصة عندما يتعلق الامر بالإسلام كتصنيف فهذا المصطلح لم يقـترن بنـا وحـدنا في كتـاب اللـه تعـالى وإنمـا ورد كمظلة يستظل تحتها أبناء الملل المختلفـة، وبمـا أن الإيمـان من مقتضيات دخول الجنة حُق لنا أن نتساءل عن الفرق بين الإسـلام والإيمان وأيهما أسبق، وأنـا أرى أن الإسـلام سـابق للإيمـان وأنـه يشــبه شــهادة الثانويــة العامــة والــتي بــدونها لا يمكنــك دخــول الجامعـة، والشــيء نفســه ينطبــق على الإسـلام والإيمـان فلكي تتأهل وترتقي إلى الحساب أصلاً فعليك أن تكـون مسـلماً، أي أن الإسلام هو الحد الأدنى المطلوب من كل النـاس ليحاسـبهم اللـه وإلا فإنهم مجرمون ويدخلون النار بدون حساب.

ولـو تتبعنـا اللفظـتين (الإسـلام، الايمـان) في القـرآن الكـريم لخرجنـا ببعض الملاحظـات الـتي قـد تسـلط الضـوء على هـذه المسألة:

1. أينما استخدم القرآن اللفظتين معا في الآيـة نفسـها، فـإن كلمة الإسلام تسبق الإيمان في الترتيب.

مثلاً:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35]

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5]

2. في قوله تعالى ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: 53]

لاحظ أنهم آمنوا ثانياً وأسلموا أولاً (من قبله مسلمين).

3. في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2]، الآية هنا تتحدث عن كفار وسيدخلون النار، فهل يعقل أنهم يتمنون أعلى مرحلة في الدين أم أنهم يتمنون المرحلة الأدنى لأنهم في وضع مزري ولا يملكون رفاهية تمني الأعلى؟

الحقيقة انهم يتمنون الحد الأدنى فمن الطبيعي لكافر مجرم ان يتمنى لو أنه كان مسلما أولاً، ليضمن شرف الحساب الإلهي على الأقل، وهذا يشبه حالة رجل تائه في صحراء ويكاد يموت من العطش والجوع، هل يتمنى شرائح السلمون وبعض الكافيار وعصائر الاناناس، أم مجرد يتمنى الخبز والماء؟

4. لاحظ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15]، هنا الانسان لا يعقل أن يقرر أو يشهد لنفسه بالأعلى وإنما سيشهد لنفسه بالأدنى فقال "واني من المسلمين"، وهذا يدل على أن غاية الإنسان الأولى هي "الإسلام" أما الايمان فهو درجات لكن

على كـــل انســـان أن يســـعى لـــدخول دين الإســـلام أولاً.
5. في قولـه تعـالى: ﴿وَجَاوَزْنَـا بِبَنِي إِسْـرَائِيلَ الْبَحْـرَ فَـأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَـالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْـرَائِيلَ وَأَنَـا مِنَ الْمُسْـلِمِينَ﴾ [يـونس: 90]

فرعون الكافر بالله والـذي ادعى الربوبيـة يغـرق ويشـهد لنفسـه بماذا؟ بالإسلام طبعاً، بالحد الأدنى الرسمي، ولو كان الإسلام هـو المرحلة التالية والارقى والتي تأتي بعـد الايمـان فكيـف لفرعـون الكافر أيشهد لنفسه بذلك. هذا موضع هو يريد أن يثبت فيه الحـد الأدنى الرســـــــــــــمي للقبـــــــــــــــول.
6. لـذلك دعانـا اللـه جميعـا إلى أن نحـرص على هـذا الـدين وأن نتمسك به: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

لاحظ أن مضاد كلمة المسلمين في الآية التالية هـو المجـرمين (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيـف تحكمـون)، وسـمي المجرمون بذلك لأنهم قطعوا صلتهم بالله وأنكروا وجوده وكفروا باليوم الآخر فكلمة (جرم) تدل على القطع في اللسـان العـربي، وعكس هؤلاء هم المسلمون الذين يقرون بوجود الله ووحدانيتـه، وهذا دليل أن الإسلام يأتي أولاً وهـو عـام ولا يتمثـل بملـة واحـدة حصرية ثم يعقبه الإيمان – لأن كلمة إيمـان ليسـت مجـرد شـعور ولكنها تنفيذ وعمل:

إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللّـهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {2}

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {3}

أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {4} الأنفال

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {1}

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {2}

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {3}

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ {4}

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {5}
إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {6}
فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ {7}
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{8}
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{9}
أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ {10}
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {11} المؤمنون.

وهنا الخطأ الأكبر الذي يقع فيه من يظن أن الإيمان سابق للإسلام، فهم يعتقدون أن الإيمان مجرد شعور واقتناع نفسي وبما أنه شعور فينبغي أن يسبق أي شيء، وهذ غير دقيق، فالإيمان عمل كما تؤكد الآيات السابقة بكل وضوح وبشكل قاطع.

7. لذلك حرص يعقوب على أن يوصي أولاده بألا يقطعوا صلتهم بالله وأن يموتوا مسلمين: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]، فالخروج من دائرة الإسلام يعني الخروج من دائرة الرحمة الإلهية، ويضعك في دائرة وعِداد المجرمين، ودخول هذه الدائرة يضمن لك شرف الحساب الإلهي، وبالتالي الرحمة.

8. الدخول في دين الإسلام لا يضمن لك الجنة ولكن يضمن لك الحساب ولذلك ستجد الآيات الخاصة بالجنة مقترنة بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات في الكثير من الآيات، مثلاً انظر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 82]، وكذلك اقترنت بالمتقين، مثلا في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: 90].
بينما لم تقترن الجنة بالمسلمين نهائياً، واقترنت مرة واحدة فقط بالمغفرة والأجر العظيم وذلك في قوله تعالى: "﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الأحزاب: 35].

ووردت ضـمن قائمـة طويلـة من الصـفات أو الفئـات ولم تـرد لوحدها، ولاحظ هنـا مـرة أخـرى أن لفظـة "المسـلمين" سـبقت لفظة المؤمنين.

والإسلام هو التسليم والخضوع لقـوانين الكـون الكـبرى والـتي تتضمن العدل والفطرة، والإقرار بوجود الله تعالى واليوم الآخــر، ويعقب هذا العمل الصالح والتقـوى للارتقـاء إلى مرتبـة الإيمـان.

خاتمة

إن تحرير العقـل العـربي من النقل وعبـادة النص ومنحـه قبلـة الحياة المفعمة بالحرية هو ما سيقودنا إلى نهضـة شـبيهة بنهضـة أوروبـا، الـتي مـا كـانت لتنهض لـولا تصـميمها على كسـر قيـود الكنيسة ورجل الدين، وانطلاقها في رحلة العقل كبداية من خلال الفلسفة اليونانية التي تعرفت اليها أوروبا بفض التراجم العربيـة، فاكتسب الأوروبي الثقة بعقله وصار يبحث ويخترع ويطـور بعيـداً عن لاءات النصوص وجمودها.

إذن على المجتمع تحقيق العدل، من خلال القوانين والتشريعات المرنة التي تتوافق مع حالته وظروفه ومقاصده، والاستئناس بالنص الديني كإطار وقالب أخلاقي، لأن القيم في النص الديني لا تتبدل، والمجتمع الفاضل هو المجتمع المتجدد، وهذا التجدد تيار متدفق ينبغي ألا يعيقه نص تشريعي ديني مهما كان مصدره، لأن التشريع مقصده حياة أفضل للناس، فأينما وجدت حكماً أفضل فهو مراد الله تعالى، وحتى لو كانت هناك آيات تقف في طريقك، فعليك أن تعلم أن هذه الآيات تتناسب أكثر مع زمانها كأحكام تشريعية، لأن القرآن الكريم نزل بخطاب محلي ودلالات عالمية، وهذا الخطاب المحلي (وخاصة أنه لا يوجد وحي ثاني سواه) كان ضرورة لمخاطبة من نزلت عليهم الرسالة بأدواتهم وطريقة فهمهم وسقفهم المعرفي.

لذلك إن وجدنا اتفاقيات دولية تنظم التعامل مع الأسرى والحروب واتفاقيات السلام والسلاح وحقوق المدنيين في الحروب وحقوق الطفل والمرأة والأسرة مناسبة فعلينا الالتزام

بها، بغض النظر عن الأحكام الشرعية في النص القرآني، **فالله تعالى لم ينزل علينا أفضل ما عنده وإنما أنزل علينا أفضل ما كان يناسبنا في وقت نزول الرسالة**.

لا بد أن نعترف أن الحداثة والتجديد هي ثمرةٌ أوروبيةٌ خالصة، وأوروبا تعتبر نفسها محور العقل والتفكير المنطقي والفلسفة والتنوير بينما نحن كثقافات شرقية نمثل (الدين) ولغة السماء فهم يرتكزون على المنطق العلمي السببي، ونحن نرتكز في أحكامنا وفهمنا على آراء الأنبياء والرسل والصالحين ونصوص السماء، بينما هم اتخذوا من فلاسفتهم ومتنوريهم أنبياء ورسل ومشرعين. إذن الفكر الغربي محوره الإنسان وكيفية النهوض به وخط التقدم هذا نهر انطلق من اليونان والفلسفة اليونانية ويصب اليوم عند ضفاف الحضارة الغربية المعاصرة، أما أفكار المسلمين فتتمحور حول السماء وكيف ننصاع لحكم السماء متجاهلة الإنسان كقيمة أولى وعليا، ومقصد نهائي في الأحكام الشرعية.

فهل النص الإلهي غفل عن الإنسان كقيمة؟ أم هو الفقيه والمجتهد الذي أوّل النصوص وساومها عبر التاريخ تماشياً مع مصالح السياسة مروراً بأنفاق الطائفية ومستنقعاتها؟

ولنا في الثورة الفكرية التي شهدتها أوروبا خلال عصر التنوير (القرنين 17 و18) خير مثال، حيث تمرد المفكرون والفلاسفة على سلطة الكنيسة والتفسير الديني الجامد، وبدأوا في إعادة صياغة القيم الاجتماعية والسياسية بناءً على العقل والمنطق بدلاً من النصوص الدينية.

في العصور الوسطى، كانت الكنيسة الكاثوليكية تحتكر السلطة الفكرية والتشريعية، وكانت أفكارها بمثابة النصوص المقدسة التي لا يجوز المساس بها، كما كان تفسيرها للكون والإنسان قائمًا على تعاليم دينية جامدة. ولكن مع ظهور الفلسفة العقلانية والعلم الحديث، بدأ المفكرون الأوروبيون في تحدي هذا النظام.

على سـبيل المثـال، جـون لـوك[1] (1632-1704)، أحـد أهم فلاسفة التنوير، وضع أسـس الليبراليـة الحديثـة من خلال تأكيـده على أن الإنسان هو محور التشـريع، وأن الحقـوق الطبيعيـة مثـل الحرية والمساواة لا تـأتي من رجـال الـدين أو الكنيسـة، بـل هي حقـوق فطريـة يجب أن تكـون أسـاس أي نظـام سياسـي. وهـذا يتناقض مع الفكر الـديني التقليـدي الـذي كـان يـرى أن السـلطة تــأتي من اللــه، وأن الملــوك يحكمــون بتفــويض إلهي لا يجــوز الاعتراض عليه.

وبالمثل، جاء فولتير[2] (1694-1778) ليؤكـد على أهميـة حريـة الفكـر ونقـد التعصـب الـديني، وكـان شـعاره الشـهير: "اسـحقوا العـار" (Écrasez l’infâme)، في إشـارة إلى هيمنـة الكنيسـة على العقل الإنساني.

وبهذا نجحت أوروبا في وضع الإنسان في مركز التشريع، بينمـا في الفكـر الإسـلامي التقليـدي كـان النص الـديني هـو المرجعيـة الأولى. عصر التنوير الأوروبي يعكس كيف أدى التحرر من سلطة النصــوص الدينيــة إلى بنــاء نظم قانونيــة تعتمــد على العقــل والمصلحة الإنسانية، إذ كان للكنيسة نفوذ يشـبه إلى حـد مـا دور الفقهـاء في الحضـارة الإسـلامية، حيث كـانوا يحتكـرون تفسـير النصوص ويتحكمون في شؤون المجتمع. ولكن مع صـعود الفكـر الفلسفي، بدأ النقد العلـني للكنيسـة وللنظـام الـديني التقليـدي، مما ساهم في ظهور مفهوم الدولة المدنية الحديثة، وأدى تحريــر العقــل من التفســيرات الدينيــة إلى ثــورة علميــة وسياســية واقتصادية، بينما في العـالم الإسـلامي اسـتمر تـأثير الفقهـاء في توجيه مسار التشريع بعيدًا عن التحليل العقلاني والإنسـاني، وهـو ما قاد إلى إقصاء الإنسـان كقيمـة عليـا لصـالح سـلطة النصـوص والتفسيرات الفقهية.

لهذا يمثل عصر التنوير الأوروبي نموذجًا واضـحًا لكيفيـة انتقـال المعرفة والتشريع من سلطة الدين إلى سلطة العقل، ممـا عـزز

---

[1] جون لوك، Two Treatises of Government ص70

[2] منشورات مؤسسة فولتير 2001، ص15، Euvres de 1762, Volume 56A

مكانــة الإنســان كمحــور للفكــر والتشــريع، في حين أن العــالم الإسلامي بقي لفترات طويلـة أسـير القـراءات الدينيـة للنصـوص التي قدمت الطاعة للنصوص والتفسيرات التقليدية على حسـاب الإنسان كقيمة عليا.

ونحن نعيش اليوم حالة تشبه كثيراً ما كان عليه الأوروبيون في العصـور الوسـطى وعصـور الظلام، فقـد غـزاهم الفكـر الـديني المسيحي والفكـر الكنسـي الكهنـوتي وصـادر منهم حـق التفكـير المستقل، وتعطل المنطق عندهم وصاروا يبحثون عن نص جـاهز من السماء وقوى خفية من خلف الغيـوم لتنقـذهم من أمراضـهم وتخلفهم وفقرهم.

وبعد أن فقدت أوروبـا الأمـل في الـدين وفي الكنيسـة ودفعت ثمنــاً لــذلك قرونــاً من الــوهن والــتردي وتنبهت أن النص خــادم للإنسان وليس العكس ونفضت عن نفسها هذا الثوب بدأت رحلة النهوض والتقـدم، واليـوم فـإن أوروبـا تنظـر إلى الـدين كلـه في أنحاء العالم على أنه نسخة كنسـية مقفلـة تنطلـق من مُسـلَمات جاهزة ونصوص ثابت معيقة للتقدم، غير قـادرة على التـأقلم مـع سنة التغيير، لذا فمن الصعب على الإنسـان الأوروبي أن يفهم أن هناك فكراً دينياً متقدماً، فالتقدم في واد والدين في واد آخر، لأن النص الــديني ثـابت والواقــع متحــول، فكيــف للثــابت ان ينهض بالمتحول؟

القوانين تتطور بتغير ظروف الناس وارتقائهم في سلم المدنية والتقدم لتراعي التطور الإنساني والـوعي، لـذلك لا يمكننـا اليـوم تطبيق قوانين حمورابي الـتي سـادت في زمانـه وكـانت الأفضـل وقتهــا، وهــذا ينطبــق على كافــة القــوانين الوضــعية، الــتي تتم مراجعتها كل فترة لتتبلور مجدداً مفرزة تعديلات على القوانين أو قــوانين جديــدة بالكامــل، فمثلاً القــوانين المعقــدة الــتي تضــعها الســلطات اليــوم لحمايــة الأفــراد من الاعتــداءات الالكترونيــة المختلفــة لا تصــلح للســبعينات من هــذا القــرن فهي قــوانين

مستجدة بالكامل، أفرزها التطور التكنولوجي الكبير الذي نشهده.

كذلك راعت القوانين الوضعية الظروف الاجتماعية والجيوسياسية وحتى الجغرافية والمناخية التي تحكم البلدان، فقانون سن الزواج مختلف من بلد إلى آخر بما يراعي هذه الظروف، وما نراه مُستهجناً في بلد ما قد يكون طبيعياً في بلد آخر.

قوانين السماء ينبغي أيضاً أن تخضع للمعادلة نفسها وأن تراعي الشرائع المختلفة صيرورة ومستجدات الأمور بما يتوافق مع السقف المعرفي المتطور للناس وظروفهم الاجتماعية المختلفة، إذ لا يعقل أن يتنبه البشر محدودو العقل والبصيرة إلى ضرورة تطوير وتعديل القوانين بينما تغفل النصوص السماوية عن ذلك. وهذا ما حدث فعلاً فقد تطورت الشرائع ونهضت لتتوافق مع ظروف البشر أولاً بأول، فالعهد القديم بشرائعه يختلف عن العهد الجديد وهذا يختلف عن القرآن، فضلاً عن عشرات الملل الأخرى التي لا نعلم عنها الكثير لكنها بالتأكيد نزلت بشرائع وقوانين تطورت مع الزمن مراعاة لكل حقبة، وهذا لا ينطبق على التشريعات والقوانين فحسب وإنما يسري على الخطاب كاملاً، فالخطاب الإلهي "ارتقى" من حقبة إلى أخرى بما يتوافق مع الفهم البشري لتلك الحقبة، ولو نظرنا في الآيات أو المعجزات التي أيد الله تعالى بها أنبياءه مثلاً سنلاحظ الخطاب الحسي الذي يتوافق مع العقلية الحسية البدائية للبشر في ذلك الزمان مثل عصا سيدنا موسى التي تنقلب إلى ثعبان ويده البيضاء، وكذلك الأكمه والأبرص وإحياء الموتى عند عيسى، وظل الخطاب الحسي قائماً والبشر يرتقون أولاً بأول حتى نضجوا بما يكفي واستحقوا الخطاب العقلي البحت فنزل القرآن الكريم.

القرآن الكريم إذن هو استحقاق للعقل الحر المرن، فهو يخاطب العقل أولاً وأخيراً، لكنه كنص تشريعي وأحكام قانونية سيرافق المؤمنين به في رحلة قصيرة حتى تتشكل نواة الدولة الإسلامية وهي فترة البعثة النبوية وحقبة التابعين، مع تشديده

في الوقت نفسه على التزام العقل والمنطق والبرهان، ضمن إطار مرجعي للأخلاق والقيم، وضمن مساحات واسعة يمارس فيها البشر فردانيتهم.

هذا هو مراد الرسالة الخاتمة لكن هذا لم يحدث في الواقع للأسف، فقد ألّهت الأجيال النص نفسه وحنّطته في قالب مقدس يُمنع فيه من المس، فالقرآن الكريم قدس الأقداس، ومن مسّه فقد لغى لا بل كفر، وعليك أن تتقبله دائماً هكذا كقالب لا يعتريه التغيير ولا تطاله الظروف، فهو من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا الكلام وإن كان فيه حق، إلا أنه يحتاج إلى مرونة في الفهم، صحيح أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى له، وهو قدس الأقداس لأنه كلام الله تعالى لكن هل مُراد الله في هذا النص أن نلتزمه بحرفيته مهما طال الزمن وتقلبت الظروف؟ وهنا تحديداً فإنني أتحدث عن القوانين والتشريعات التي اختارها الله لعباده وقت نزول الكتاب، مثل قطع اليد وحكم الظهار وأحكام مُلك اليمين والعبيد والقصاص (الحر بالحر والعبد بالعبد) والميراث والدين وشهادة الزنا وغيرها، أما القيم والأخلاق والحكمة العامة في هذا الكتاب فلا نختلف على أنها أزلية وصالحة لكل زمان ومكان وثقافة.

النص القرآني توقف عن النزول وهو آخر الرسالات ومات النبي الكريم وهو آخر الأنبياء، وفكرة أن القرآن خاتم الرسالات وأن النبي خاتم الأنبياء معناها ببساطة أن عصر الأنبياء والرسالات قد توقف عند تلك المرحلة وأن الإنسان تخرج من مرحلة الحضانة إلى مرحلة العقل المستقل، وأن عليه أن يبتدع تشريعاته وقوانينه بنفسه، استناداً إلى هدي القرآن العظيم وإطاره الأخلاقي والقيمي، وهذه هي الرسالة التي لم تصلنا من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40] أي أن الله تعالى يخبرنا هنا أن عصر النبوات قد انتهى وأن هذا النبي الكريم الذي كان بين ظهرانينا يجتهد لنا ووجبت علينا طاعته في زمانه قد مات، فالخاتم هو القفل والمعنى أنه تم إقفال مرحلة

النبوات، ولننظر في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]، فختم هنا معناها أقفل أو حجب، ولذا نجرؤ على القول أن وصاية السماء احتجبت على البشر تاركة لهم الدستور الأزلي وهو القرآن العظيم ليكون إطاراً عاماً يهتدون به ومساحات يمارسون فيها فردانيتهم بما تمليه عليه ظروفهم وسقفهم المعرفي وبيئاتهم.

ومن دلائل ذلك هو توقف المعجزات الحسية عند زمن النبي محمد وكأنها رسالة إلى البشر أن عصر العقل قد بدأ من هنا، غير أن قريش بمؤمنيها وكفارها أصروا على طلب هذه المعجزات: الكفار يريدون دليلاً على نبوة محمد عليه السلام لما اعتادوا أن يسمعوه من معجزات للأنبياء السابقين، والمؤمنون يريدون أن يطمئنوا إلى أن نبيهم ليس أقل شأناً من عيسى عليه السلام الذي كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص وموسى عليه السلام الذي كان يشق البحر بعصاه وتنقلب العصا بين يديه إلى ثعبان، وهذا سبب ضغطاً نفسياً وفكرياً على النبي خاصة أمام مطالبات المشركين المتكررة له بالإتيان بمعجزة، فكان يحيل طلبهم هذا إلى الله تعالى.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37]

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: 20]

ومن الواضح في هذه المرحلة أن النبي نفسه لم يكن يدرك تماماً السر وراء حرمانه من المعجزات أسوة بأخوته الأنبياء السابقين، ونتيجة لهذا الغموض الإلهي تجاه هذه النقطة فقد ضاق صدر المؤمنين والمشركين على حد سواء، لا بل ضاق صدر النبي نفسه تجاه هذا الصمت الإلهي، لذا جاءت الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنعام تحمل بعض الملامة للنبي وتستهجن منه أن يكون قد كبر عليه إعراض المعرضين.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: 35]

بمعنى آخر يا محمد إن لم يعجبك هذا الوضع فأت أنت نفسك بمعجزة، ولو شاء الله لهداهم، فلا تكن من الجاهلين.

هذه الآية مع ما فيها من قسوة على النبي الكريم إلا أنها تحمل بعض التوضيح، أي أن الله لو شاء لهداهم أجمعين، لكنه أراد اختبارهم بعقولهم لا بمعجزات حسية، فالعصر عصر العقل الآن، والبشرية تتطور وتكبر وتنضج، تماماً مثل الانسان الفرد، فعندما كانت البشرية ما تزال تحبو زود الله أنبياءه بمعجزات حسية لأن هذا ما كان يفهمه الناس، لكن عندما ارتقت البشرية ونضجت (أو كان مطلوباً منها الارتقاء) نزل القرآن يخاطب العقل، وهذه الفترة – فترة قريش- والبعثة النبوية هي نهضة بشرية صادمة لقوم النبي لذلك واصلوا مطالبهم بالمعجزات الحسية، بمن فيهم المؤمنون، لا بل والنبي نفسه.

لذا جاءت الآية الثانية عشرة من سورة هود تحذر النبي من أن يضيق صدره لأنه غير معضود بآية.

يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 12]

وفي سورة يونس توعده الله بما هو أكبر من هذا، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94]

فهذه المرحلة كانت انعطافة بشرية مهمة جداً، وكان من الصعب على الناس تقبل هذا التطور والتغيير الكبير، وكان عليهم أن يرتقوا ليؤمنوا بالقرآن، فوجود إنسان يشبههم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويدعي النبوة كان أمراً صعب التصديق، لذا أكثروا وألحوا في طلب معجزات لكن الرد النبوي كان دائماً (قل

إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي)، وهذه الصورة للنبي تتعـارض مـع ما ورثوه من تصورات عن أنبياءٍ شبه آلهـة يجـترحون المعجـزات لذا استغربوا أن يبعث الله بشراً مثلهم (أبعث الله بشرا رسولا؟) وتساءلوا باستغراب (مال هـذا النـبي يأكـل الطعـام ويمشـي في الأسواق)؟

الفكرة نفسـها يطرحهـا هشـام جعيـط في كتابـه "في السـيرة النبوية-الوحي والقرآن والنبوة": (ولذا فعامـل الـزمن يلعب دوراً كبيراً في ترويج وترسيخ الدين، بل النبي محمد ارتفـع مقامـه في الحضارة الإسلامية إلى درجة أن اختلق له المسـلمون معجـزات، فيما أن القرآن لا ينفك ينفيها عنه ويؤكد على بشريته).[1]

ثم تلا ذلـك بعض التعليـل القـرآني لإحجـام السـماء عن تزويـد النبي بمعجزات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَـاتِ ثُمَّ اتَّخَـذْتُمُ الْعِجْـلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 92]

وكذلك: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَـكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132]

بمعنى أنه حـتى يـا محمـد لـو عضـدناك بآيـة فسـيكذبونك كمـا كذبوا موسى، لذا فالآيات (المعجزات) لن تزيد في عدد المؤمنين بدعوتك.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَـاءُوا بِالْبَيِّنَـاتِ وَالزُّبُـرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184]

وكذلك ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَـادٌ وَثَمُـودُ﴾ [الحج: 42]

ثم حسم القرآن المسألة بقوله:

"وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون"

كـذلك من أسـباب إحجـام السـماء عن تزويـد النـبي محمـد بمعجزة حسية هو اتهام الأقوام للأنبيـاء السـابقين بالسـحر، فقـد قيل لعيسى (إن هذا إلا سحر مبين) وقيل لموسى (إن هذا لسحر

[1] هشام جعيط، في السيرة النبوية- الوحي والقرآن والنبوة، ص71، دار الطليعة بيروت

مبين)، وانظر كمية المعجزات التي امتاز بها موسى لكنها لم تشفع له بأن يصدقه قومه، فلماذا يركب سيدنا محمد المركب نفسه؟

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد أنه أعفاهم من ضريبة هذه المعجزات، لأن من يكذبها سيكون مصيره النار ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211]

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 115]، وبدلاً من ذلك فقد فتح الله لهم باب الرحمة والتوبة.

هذه مرحلة مخاض كبيرة في التاريخ وهو الانتقال من عالم المحسوسات إلى التجريد العقلي، عانى في تقبلها الكفار والمؤمنون على حد سواء، وهذه تثبت عظمة الإيمان الذي كان عليه أوائل الصحابة فهم لم يروا معجزات بأعينهم مثل سحرة موسى أو بني إسرائيل وإنما كانوا مطالبين بتصديق فكرة غيبية مجردة، ولأول مرة في تاريخ الأديان.

وقريب من هذا يرى هشام جعيط أن: "*محمداً قد بُعث في فترة متأخرة من التاريخ انتظمت فيه الإنسانية في ممالكها وحضاراتها ودياناتها ورقاعها الجغرافية بدءاً من منتصف الألفية الأولى قبل المسيح. وإذا كانت الجزيرة العربية متأخرة عن القافلة لأسباب مناخية، فالقرشيون كان لهم مستوى عقلاني بعيد عن السذاجة وأرفع بكثير من مستوى أبناء الجليل زمن المسيح*".[1] ويضيف: "*إن المصداقية التاريخية للقرآن هي ابتعاده عن كل عنصر لاعقلاني بخصوص النبي بالذات*".[2]

لذلك فإن أي تجسيم للذات الالهية وروايات الصراط المستقيم في أنه أحد من السيف وأدق من الشعرة ونزول الله تعالى في الثلث الاخير من الليل وأن الله خلق آدم على صورته وأننا سنرى الله يوم القيامة وغيرها، وإجراء جبريل لعملية قلب مفتوح

---

[1] هشام جعيط، في السيرة النبوية – الوحي والقرآن والنبوة، ص28، دار الطليعة بيروت

[2] هشام جعيط، في السيرة النبوية – الوحي والقرآن والنبوة، ص29، دار الطليعة بيروت

لسـيدنا محمـد ونـزع أعضـائه وغسـلها بالمـاء وإرجاعهـا مكانهـا كتفسـير فج لقولـه تعـالى: (ألم نشـرح لـك صـدرك) كـل هـذه الروايات ما هي إلا نكوص بالبشرية إلى الوراء – أي إلى مـا قبـل مرحلة التجريد وعودة بنا إلى عصـور غـابرة لا يسـود فيهـا الفهم المتطور بقدر ما تسود فيها إدراكات بدائية، فهذا القــرآن العظيم استحقاق وصلته البشرية بعد نضـج كبـير وحـق لـه أن يكـون هـو المعجزة الحقيقية: معجزة العقل الحر.

وهذا ما يؤكده جورج طرابيشي في كتابه (المعجزة أو سبات العقل) بالقول: (*إذ ما الحاجة في خاتمة المطاف إلى معجزات جديدة؟ فمن يطلب برهان المعجزة فما عليه إلا أن يجيل نظره في الكون ليجده عامراً بالمعجزات التي لا تعد ولا تحصى، منذ أن تخلّق من العدم الأول إلى اليوم، فكل ما في الكون معجزة، من النطفة التي تتخلق في الرحم علقة ثم مضغة ثم جنيناً ثم إنساناً سوياً إلى الجبال التي تنصب والأرض التي تبسط والسماء التي ترفع والنجوم المسخرة لهداية الإنسان في ظلمات البر والبحر. والآيات الكونية تتخلل شتى سور القرآن، وتكاد تؤلف نصف القرآن المكي، وهي تحصى بالمئات.*)[1]

هذا الخطاب العقلي وهذه الديناميكية الساحرة هي الـتي تمـيز كتـاب اللـه تعـالى، فهـو نص ثـابت وإلهي المصـدر لكنـه رسـالة مفتوحة تحث الناس على العقل والبحث عمـا فيـه خـير الإنسـان في كل مكـان وزمـان بعيـداً عن سـطوة النص نفسـه، وكنت قـد طرحت سؤالاً استفزازياً قبل سـنوات على أصـدقائي في الفيس بـوك: لـو نـزل القـرآن الكـريم اليـوم علينـا فهـل سـيكون بنفس الصيغة والأحكام والألفاظ؟ وكما كان متوقعاً فالجميع تقريباً كان يـرى أنـه سـيكون بالصـيغة نفسـها تمامـاً، وهـذا مفهـوم ومتوقـع فالناس تتعامل مع القرآن الكريم على أنه بمثابة صـندوق مغلـق، هدية وكنز من الله تعـالى للبشـر، لا يحيطـه زمـان أو مكـان، ولا تعتريه ظروف، قديم قدم العالم، محفور حفراً لا يُمحى في اللوح المحفوظ في مكـان مـا على أطـراف مجـرة درب التبانـة، يمنـع لمسـه أو الاقـتراب منـه أو التشـكيك فيـه، وأن تطـويره ومجـرد

[1] جورج طرابيشي، المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، ص 26، دار الساقي.

محاولة فهمه مقاصدياً سيعني بالضرورة أنه ناقص وكلام الله ليس بناقص.

والحقيقة أن هذا الكلام غير دقيق، فكتاب الله تعالى سواء كان كلام الله تعالى المباشر، كما تؤمن بذلك أمة محمد قاطبة إلا النزر اليسير، أو كان من صياغة الوحي لكن مصدره الأساس هو الله تعالى – كما يرى البعض، يظل في الحالتين رسالة هداية وتوجيه وإرشاد لمن نزل عليهم وفي الوقت الذي نزل عليهم، بخطاب يفهمونه هم ويعقلونه ضمن سقفهم المعرفي وأدواتهم المعرفية في ذلك الزمن، فلو افترضنا أن القرآن نزل اليوم على ألمانيا فهل سيعدهم الله تعالى بجنات تلفها الغابات وهم مصابون بالاكتئاب بسبب كثرة الغابات عندهم؟ لو نزل على روسيا أو كندا هل سيعدهم بجنات تجري من تحتها الأنهار وهم يعانون من تُخمة في الأنهار وبحيرات المياه العذبة؟ لو نزل على اليابان اليوم فهل سيخاطبهم بـ(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) وأين هي الإبل هناك حتى ينظروا اليها؟ بل سيقول لهم (أفلا ينظرون إلى السلاحف كيف خلقت)، وأما الاحكام والتشريعات فسيخاطب الناس بما يتناسب مع القوانين المدنية اليوم حيث لا يوجد اليوم ملك يمين ولا ظهار ولا رقيق ولا غزو ولا فيء ولا سبي، وفي العقوبات فستختلف الحال بما يتناسب والعصر فقديماً كان العقاب امتداداً لغرائز الانتقام، حيث كان منطق القصاص والعين بالعين هو السائد، وكان مشهد الجلد أمام المارة مألوفاً، لذا فلو نزل القرآن الكريم اليوم فلن يأمر بجلد الزانية والزاني أمام العامة، ولن يأمر بقطع يد السارق وإنما سيقدم بديلاً عصرياً لذلك.

القرآن أفق مفتوح –كما أفهمه- وليس صندوقاً مغلقاً مغلفاً بالقداسة وتحذيرات "ممنوع اللمس أو الاقتراب أو التصوير" كما تفهمه غالبية الأمة، والقرآن الكريم "مُنتج" ثقافي تفاعلي – كما وصفه المفكر المرحوم نصر حامد أبو زيد-، وليس مجموعة أحكام ثابتة تُطبق في كل زمان ومكان فتصيب دائماً، فالله تعالى لم ينزل علينا أفضل ما عنده وإنما أنزل علينا ما كان يناسبنا

وقت التنزيل، ولو أن أحدهم أورث ابنته اليـوم مثلمـا يـورث ابنـه فلن يخالف قول الله تعالى (للذكر مثل حظ الانثـيين) وإنّمـا فهم مقاصدية القرآن بالشكل الصـحيح، فالآيـة نـزلت في بيئـة معينـة تناسـب فيهـا هـذا الحكم –وغـيره- مـع ظروفهـا، واعتبـار القـرآن الكـريم صـندوقاً مغلقـاً يُمنـع لمسـه هـو الـذي دفـع بالعديـد إلى تأويلات لآيات الميراث من أجل عصرنتها، وهؤلاء جميعاً ينطلقون من مبدأ أن القرآن الكريم ثابتٌ وٌجامد ويصلح لكل زمان ومكـان ورسالة عالمية تخاطب أهل طوكيـو كمـا تخـاطب أهـل الجزيـرة العربية بكل مـا فيـه لـذا سـعى هـؤلاء إلى تطويـع الآيـة لتناسـب منطق العصر الحديث مع الالتزام –في الوقت نفسـه- بمنطوقهـا وحروفها كما وردت، فزادوا الأمر تعقيداً.

ونختتم حديثنا بـالقول إن القـرآن الكـريم هـو كلام اللـه تعـالى الذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديـه، وإنـه بلا شـك عـالمي بقيمـه وأخلاقه ومعاييره، ولا يجوز الحط من قيمته المقدسـة بـأي حـال من الأحوال لمجـرد قولنـا إنـه محلي الخطـاب، بـل على العكس فهـذا يرفـع من قيمتـه العليـا نظـراً لمراعاتـه لتطـور السـقف المعرفي للبشر فهو آخر الرسالات الـتي خـاطب اللـه تعـالى بهـا عباده، ليقول لهم: **اليوم انتهى عصر النبوات والنص وبـدأ عصر العقل**، وسيظل القـرآن العظيم مرجعيتنـا النهائيـة لننهـل منه الحكمة والمنطق لما فيه من الحق المُطلق والحكمة الإلهيـة الخالدة.